من رسائل الأب صفرونيوس

المؤاتاة

للأب صفرونيوس

من رسائل الأب صفرونيوس

المئويات

إسم الكتاب : من رسائل القديس صفرونيوس
المئويات
الطبعـــة : الأولى ــ يناير ٢٠١٣
المطـــبعـــة : جي سي سنتر
١٤ ش محمود حافظ ــ ميدان سفير ــ مصر الجديدة
ت: ٢٦٣٣٨١٣٧

المحتويات

المئوية الأولى

التوبة وعمل الروح القدس في القلب

رسالة الأب صفرونيوس
إلى تلميذه ثيؤدوروس (تادرس)

مائة مقالة

عن التوبة وعمل الروح القدس في القلب

١- لا توبةَ بدون محبةٍ حقيقية؛ لأن توبة الخوف ناقصةٌ بذل المحبة. ولا توبةَ بدون بذل؛ لأن الخوف – حتى من العقاب – يلد توبةً مريضةً.

٢- كلُ زمانٍ – مهما كان – هو زمان توبةٍ، ومَن يتوب كل ساعةٍ تنمو محبته دائماً.

٣- السقوط المتكرر في خطيةٍ معينةٍ، يؤكد عدم نمو المحبة؛ لأن ضعف الإرادة تحركه الشهوات. والشهوات أو الشهوة الخاصة، هي محبة خاصة للذات لم تدخل أعماق محبة يسوع المصلوب، ولم يدخل الصليب إلى أعماقها.

٤- مَن يقف بعد السقوطِ مباشرةً – إذا كانت لديه محبة — يدوم وقوفه.أمّا إذا كان الندم هو الذي يحركه، فقد يسقط مرةً ثانيةً وثالثةً؛ لأن الندم الحقيقي ليس في الخوف من العقاب، بل في خسارة شركتنا مع الثالوث.

٥- التوبة التي يحركها الخوف، يحركها الندم، والندم لا يزرع المحبة ولا يرويها، بل ماءُ الحياةِ – الذي يروي كل قلبٍ تائبٍ – هو الروح القدس المعزّي.

٦- لا تبحث عن أعذارٍ لأي سقطةٍ؛ لأن هذا من علامات عدم التوبة، ولكن اقبل عذر الآخرين — مهماً كان — لأنّ هذا من علامات الاتضاع.

٧- قل للرب يسوع: أخطأت ضدَ تجسُّدك؛ لأنني لا أُكرم جسدي. وأخطأت ضدَ صليبك؛ لأنني لا أُريد أن أترك ما أُحب. وأخطأت ضدَ قيامتك؛ لأنني لا أُحب حياة المجد السماوي وأبحث عن الحياة الأرضية. عندئذٍ سوف تسمع منه

تعزيةً سماويةً، سيقول لك بسببك تجسَّدت، ولأجلكَ ذُبحت. ولأن محبتي لك دائمة، قمت من الأموات لكي أفدي جسدك من الموت والفساد.

٨- هل تريد طريقاً رسولياً للتوبة؟ هذا هو الطريق الرسولي: صَلِّ يسوع. ليكن الرب يسوع هو صلاتك، وهذه الصلاة تقودك إلى حياة الشركة. صَلِّ تجسُّده، وصَلِّ معموديته، وتجاربه في البرية، وتعليمه، وموته المحيي وقيامته، وأنت تسلك الطريق الحقيقي.

٩- إمَّا أن يصلب إيمانك كل خطاياك، فتحيا للرب يسوع. أو تصلب خطاياك إيمانك فتموت روحياً.

١٠- إمَّا أن تسود المحبة على كل مخاوفك، فيحيا إيمانك. أو يظل الخوف يلعب مع المحبة بقوة الداء الخفي (أي الخوف من الموت) فيحيد إيمانك.

١١- حاول أن تثير مخاوفك بالإيمان، تجدها ميتة. ولكن عندما تحركُ المحبةُ إيمانَكَ، وإيمانُكَ محبتَكَ، تجد نفسك في طريق الحياةِ، ومخاوفك ميتة.

١٢- الحزنُ يلازم التوبةَ، أمَّا الفرح يحرسه الغفران.

١٣- لا تطلب الغفران لكي تنجو من العقاب، أي عقاب الخطية، بل اطلب الغفران لكي تعود إلى الشركة في الثالوث الآب والابن والروح القدس.

١٤- عقاب الخطية الحقيقي ليس من الله، بل هو الخوف والشك وفقدان الرجاء وضياع السلام وخسارة الذين نخطئ ضدهم.

١٥- هل تريد أن تنجو من عقاب الخطية؟ تمسَّك بالإيمان وبمواعيد الآب السماوي الحية التي ختمها الآب بابنه يسوع المسيح وبالروح القدس.

١٦- لا توجد خطايا للفكر، وأخرى للقلب، وثالثة للسان، ورابعة للأيدي، وخامسة للأرجل، بل الخطية أو الخطايا تأتي من القلب وتحرك كل أعضاء الجسد.

١٧- الذين يتهمون الجسد بأنه مصدر الخطية، لم يتوبوا توبةً حقيقيةً؛ لأنهم - بسبب عمى القلب الذي وضعته الخطية فيهم - لا يبصرون حقيقة "التعدي"

الذي جاء من الابتعاد عن الشركة، ومن عدم الإيمان، ومن سيادة الشهوات على القلب والفكر.

١٨- خطايا الكذب والنميمة والشتائم هي تعاسة القلب المظلم الخالي من سلام وفرح الروح القدس، ولذلك قبل أن تدرِّب نفسك على الكلام المعسول وعلى عدم الكذب، التصق بروح الحق المعزّي لكي تتناغم مع الحق الذي يتكلم به الروح القدس.

١٩- هل تريد أن تكُف عن الكذب؟ عليك أولاً أن تتوب عن الخوف، وأن تصلب أمه (الكبرياء)؛ لأن الخوف والكبرياء هما معاً علامة عدم الالتصاق بيسوع المصلوب رب التوبة الحقيقي، وطبيب القلب الذي يشفي بالمحبة.

٢٠- قال واحدٌ من الشيوخ لن تتوب توبةً حقيقيةً حتى تكُف عن الإفراط في محبة ذاتك؛ لأنك إن كنت تحب ذاتك أكثر من الله، تعذَّر عليك أن تتوب. لذلك جاء ابن الله وسكب حياته ذبيحةً حيةً لله الآب لكي يفتح طريق الحياةِ للتائبين الذين يشتركون معه في بذل الصليب.

٢١- لا يترع الكبرياء من القلب إلّا ذاك الذي أخلى ذاته ومات على الصليب. وعندما صار في "صورة العبد" ثبَّت أول أساس للتوبة بترك الكبرياء وطرحها تماماً. لذلك عندما يستهين "الغنوصيون" بصليب رب المجد، يترعون أساس التوبة، وتصبح توبتهم مثل أعمى يدور حول نفسه دائماً، ويظن أنه مسافرٌ نحو بلد السلام.

٢٢- لا تترك قلبك مثل الأرض الفضاء، أو حقل بلا حارس أو مالك؛ لأن الإنسان إذ خُلِقَ على صورة الله، هو ظِلٌّ للكلمة ابن الله، يجب أن يتبعه بقوة النعمة الأولى، أي عطية الخلق على صورة الله. أمّا إذا تبعه عن جهلٍ، وعن عدم إيمان، فهو لن يصل إلى بلد السلام وميناء الخلاص، أي الإيمان بالرب يسوع المسيح.

٢٣- لا يزرع الخوف من الموت، أو الخوف من نار جهنم، التواضع في

القلب؛ لأن الخوف له أمٌّ خفيةٌ هي الكبرياء، وهي دائماً تلد أولاداً هم النجاسة، وتعظُّم المعيشة والتسلط، فكيف يلد الخوفُ التواضعَ، بينما أمه (الكبرياء) تحبل من القوة، وترقد مع هذا الزوج لكي تلد دائماً أبناء للشيطان.

٢٤- يزرع ابن الله التواضع بالتشبُّه به، فقد ترك المجد وأخذ الهوان، وقَبِلَ الضعف وهو القوي، وداس الموت بقبوله، فجرّده جهاراً على الصليب من قوته. ولذلك هو يتودد إلى النفس ويضع بذرة الإيمان في القلب حتى تثمر التواضع الحقيقي.

٢٥- قد تسألني - يا تادرس - عن التواضع الحقيقي والتواضع الكاذب؟ وأقول لك: إن الأول من يسوع رب الحياة، والثاني من الشيطان. وإذا نزعت قناع التواضع الكاذب تجد تحته محبة القوة والسيادة وقهر الآخرين، والتظاهر بفضائل كاذبة مثل اللين في الحديث، والمرح وضيافة الغرباء وكل ما يجلب الصيت الحسن. أمَّا إذا اختلفت مع المطعون بالتواضع الكاذب، تجده مثل الوحش، ينقضُّ عليك بلا رحمة، ويدوسك دون أن يترك لك فرصةً، حتى للاعتذار. وإذا اعتذرت لا يقبل عذركٍ، ويشهِّر بك علناً لأن محبته للقوة هي ذات رذيلة الشيطان.

٢٦- إذا ضاعت منك فرصة للخطية، وشعرت بالحسرة والحزن، فأنت لم تقتنِ بعدُ توبةً نقيةً؛ لأن الحزن على ضياع الفرصة يعني أنك لا تزال تحب الخطية، ولا تزال توبتك في مرحلة الطفولة.

٢٧- يقول رسول رب المجد: المحبة لا تفرح بالإثم، وهذا تعليم شاملٌ ضد الشماتة والفرح بسقوط الآخرين. ومن يشهِّر بالساقطين هو حليف الشيطان، وهو يجد عزاءه في ذكر خطاياهم لكي يصرف الأنظار عن خطاياه.

٢٨- عندما يقول الرسول: إن المحبة لا تسقط، فهو يعني محبة الله لنا؛ لأنه كتب: "ونحن بعدُ خطاة مات المسيحُ عنا" مؤكِّداً قبل ذلك إن "الله بيَّن محبته لنا". لقد جزَّأت عبارة الرسول حتى لا تقرأها في عجالة، بل لكي تفكر فيها وتستوعب المحبة الإلهية التي لا تقوى عندما نتوب ولا تضعف عندما نسقط، بل هي دائماً مثل لهيب نارٍ حي.

٢٩- عندما يقول الرسول: "لا خوف في المحبة"، فإننا لا يجب أن نتوب بسبب الخوف وحده. حسناً أن يحركنا الخوف ويجرّنا نحو الله، ولكن إن كان الخوف هو السيد والمالك، فإننا لم ندخل بعدُ الإيمان.

٣٠- لا تسلك سلوك الصبية الذين لا يتوبون حتى لا يحزنون قلب الله، بل اسلك سلوك البالغين الذين يتوبون بسبب محبتهم لله.

٣١- الله لا يحتاج إلى توبتنا، بل نحن نحتاج إلى التوبة لأنها طريقنا إلى الحياة الأبدية. لذلك عليك أن تتوب من أجل الحياة الباقية.

٣٢- قال الرب في بداية الإنجيل: "توبوا وآمنوا بالإنجيل"، فقد جاء بالخبر السار وبشارة الحياة، وهي قبول التائبين. لذلك، كل مرة نقرأ فيها الإنجيل في الليتورجية علينا أن نتذكر هذه البداية الضرورية حتى لا يضعف رجاؤنا.

٣٣- لم أبدأ بتعريف التوبة؛ لأن التوبةَ هي طريق الحياة الجديدة في يسوع المسيح. ومَن يظن أنه إذا حدد التوبةَ قادرٌ على التوبةِ، هو مثل من يشتري الصنارة ويظن أنه بشراء الصنارة سوف يصطاد السمك دون أن يجلس بجانب النهر ويلقي الطعم وينتظر.

٣٤- المعرفةُ لازمةٌ لكل إنسان، ولكن خضوع المعرفة للإيمان هو مثل خضوع العبد لسيده؛ لأن السيد أي الإيمان إنما يعلِن للعبد إرادته ويأمره ويطلب منه الطاعة. لذلك عليك أن يكون الإيمان هو سيد فكرك؛ لأن الرسول طلب "طاعة الإيمان"، أي خضوع الفكر للإيمان.

٣٥- التوبةُ بدون الصليب هي مثل من يملأ بطنه بالماء ويظن أنه الطعام الوحيد للحياة. وهي توبةٌ جوفاء؛ لأن الصليب هو الدواء الذي يعطي لنا الحياة الباذلة، ومن الصليب نأكل ثمرة شجرة الحياة أي جسد الرب ودمه.

٣٦- هل نشترك في جسد الرب ودمه، إذا كان لدينا شكٌّ في دقة وأمانة التوبة؟ بكل يقين نعم؛ لأن الرب قال: "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيبٍ بل المرضى". ولذلك مَن يأكل، يحيا حسب وعد المخلص: "مَن يأكلني يحيا بي".

تناوَل برجاء الإيمان مهما كانت مشاعرك؛ لأن الربَ رحيمٌ ومحبٌ للخطاة. وعندما جلس مع العشارين والزناة ليأكل معهم، رَسَمَ ترتيب المائدة السماوية. ولأنه يجلس معنا ويعطي لنا طعام الحياة، لذلك تناوَل بإيمان مهما كانت مشاعرك؛ لأنك عندما تقترب من الرب يعطي لك حياته فتحيا، أمَّا إذا كنت تظن أنك ستحيا بدونه، فإنك لا تعرف إن الرب هو مصدر الحياة.

٣٧- اعترف بخطاياك للرب أولاً قبل أن تعترف بها للأب الروحي؛ لأنك تعترف للمخلص بما في داخلك، وهو وحده القادر أن يرد لك الحياة.

٣٨- ندم المحبة ليس مثل ندم الخوف. الأول له مواعيد الحياة، والثاني يملك توقع الدينونة. الأول يدفع القلب نحو الله بقوة الرجاء في الصلاح الإلهي المعلَن في ربنا يسوع المسيح وفي عطية الروح القدس، والثاني يرد القلب بالخوف من الدينونة ويمنع إدراك صلاح الله ويجعل غاية الوصية غامضة. الأول هو طريق الحياة الحقيقية وهو وليد الإيمان، والثاني هو طريق الناموس وهو وليد الدينونة.

٣٩- الندم يلد الدموع، وهي دموع مَن فَقَدَ مكانته كإبنٍ لله وأخ في معية "البِكر بين إخوةٍ كثيرين". وقد غسل ارسانيوس الكبير كل حياته بالدموع.

٤٠- لا تغرس عطية الدموع محبة الله فينا؛ لأن محبة الله من الروح القدس، وهي تأتي بإلحاحٍ، وبموت الصليب الذي يتم في القلب.

٤١- لا تطلب الدموع؛ لأنها تنساب نتيجة تأمُّل صلاح الله وحنانه.

٤٢- كثرة البكاء تغسل القلب، لكن بدون معونة المعزِّي لا ننال التقديس؛ لأن القداسة ليست منَّا ولا هي ثمرة سلوكٍ صالحٍ، بل هي عطية الروح القدس. أمَّا النسك والأعمال الصالحة، فهي مثل حرث الأرض، لكن البِذار والماء هما اللذان يعطيان الحياة والحصاد. والبِذار هي كلمة الله الحية في الأسفار. والحياة من روح يسوع الرب المحيي المشتاق لأن يقدسنا.

٤٣- تذكُّر الخطايا الماضية غير نافع لِمَن لم يَذُق محبة الله، ولا هو جيدٌ بالمرة، بل هو ضار. والمُعلم الماهر لا يذكِّر تلاميذه بأخطائهم، بل بما تعلموه من أمورٍ جيدة.

٤٤- لا تنتهر أي إنسان، حتى لو قَتَل أمامك، إلّا إذا كانت بينك وبينه شركة؛ لأن الانتهار يصبح مثل شرارة النار التي تحرق كل شيء. وإذا خسرت أخيك تعذّر عليك أن تأتي به إلى المسيح الطبيب الحقيقي.

٤٥- سألني أحدُ الإخوة مرةً: هل نستطيع أن نتوب عن الكبرياء؟ وقلت لهم إن الكبرياء هي الحية السامة التي تختفي داخل القلب، وعندما نهدم جحر الحية ومكانها نظن أننا قتلناها، ولكن لا يهدم الكبرياء إلّا روح التواضع الحقيقي، روح الذي أخلى ذاته وأخذ صورة العبد.

٤٦- لا تجادل أي إنسانٍ محبٍ للجدل؛ لأن حية الكبرياء كامنة في قلبه، ولذلك يقول الرسول: "لا تكونوا شغوفين" بالتعليم الكثير؛ لأننا جميعاً نعثر في أشياءٍ كثيرةٍ.

٤٧- لا تتوانَ عن قراءة الأسفار المقدسة؛ لأنها المياه التي تغسل نجاسة القلب، وتكشف للإنسان مكامن الحية القديمة، أي الكبرياء.

٤٨- أقول لك الحق: تحركنا الكبرياء نحو طلب الأمور الزائلة؛ لأننا نظن أن فيها الحياة، ومع الكبرياء يدخل الخوف من الموت.

٤٩- لا يتوب الجبان ولا المتردد؛ لأن الجبان يخاف موت الصليب، والمتردد الخائر العزم يخشى آلام المحبة.

٥٠- أوصانا معلمنا باخوميوس الكبير أن تكون لنا شجاعة الأُسود التي تعرف كيف تطارد الفريسة وأين تقتلها. ولذلك، التوبةُ سعي الشجعان.

٥١- عندما نضع الخشب في النار، يحترق وترتفع ألسنة اللهب بقدر ما نرمي من أخشاب، لذلك كلما أدركنا عزتنا عند الله، ازدادت حرارة التوبة. أمّا إذا تملّك "صِغَرُ القلب"، بردت نار التوبة.

٥٢- من أين تأتي عزة الإنسان؟ ليس من المديح، بل عندما يدرك أن ابن الله، محبوب الآب مات من أجله.

٥٣- الانسحاق لا يأتي من حصر وجمع الخطايا، ولا من التأنيب، بل من إدراك عدم جدوى الشر وحلاوة محبة الله الآب الذي بذل ابنه الوحيد عنا وأعطانا روحه القدوس.

٥٤- يحفظ الانسحاقُ التوبةَ؛ لأنه يضع في القلب حرارة الطلب الدائم والصراخ لرحمة الرب والتوسل برجاءٍ في المخلص الذي عنده وحده دواء الحياة الأبدية الذي يشفي الطبيعة الإنسانية المريضة.

٥٥- الذي يفرح ويسعى وراء مديح الناس، يجد باب التوبةِ ضيقاً جداً؛ لأنه لا يتراجع عن أي خطية علنية، بل يتمادى فيها لكي لا يفقد مكانته المزيفة المرذولة من الله.

شفاعة الروح القدس

٥٦- الفرح الروحي بالرب وبميراث الملكوت لا يجعل وجه التائب عابساً، بل فرِحاً. وإن سقط، فالحزن - بسبب فقدان الشركة - لا يأتي بالتأنيب، بل بشفاعة الروح القدس المعزِّي الذي يغرس الرجاء في صلاح الله ومحبته.

٥٧- لا يحكم الروح القدس على الخطاة مثل حكم القضاة أو السادة، بل يحكم مثل الطبيب الذي في صلاحٍ ومحبةٍ، يخبر بالمرض وبالدواء وبالوعد بالشفاء. أمّا نحن الخطاة فكثيراً ما نحكم دون أن نقدم الدواء، ولا حتى نعلن مواعيد الله؛ لأن لذة التسلط تغلب إيماننا في مواعيد الله.

٥٨- أمّا شفاعة الروح القدس وعمله في القلب، فهو على قدر قامة كل مؤمنٍ ولا يوجد لدينا تقنينٌ خاصٌ بالروح القدس، ولكن الممارسة والثبات في المسيح لا يأتي من قلب الإنسان، بل يغرسه الروح القدس في وداعة وبدون تسلطٍ.

٥٩- هذه بعض الأمثلة على شفاعة الروح القدس كما سُلِّمت إلينا من الشيوخ الذين سبقونا في الإيمان:

* يتكلم الروح القدس في قلب المؤمن بكلمات الوحي المقدس، ويزجر النفس غارساً مع الزجر سلاماً وفرحاً دون قهرٍ، ودون تسلطٍ، ويعزِّي النفسَ بمواعيد الله الحية.

* لا يترك الروح القدس النفسَ، بل يشجعها في وداعةٍ، ويعزِّي القلب بالمثابرة هامساً بشكل غير منظور، ويمتزج صوت الرب مع فكر الإنسان بشكل لا يلاحظه الإنسان حتى أنه يظن أنه هو الذي يتحدث مع نفسه. وإذا ثابر الإنسان واستمر في حياة الشركة، أعطاه الروح القدس العزم وبذلك يستطيع أن يعبر بحر تجارب العالم.

* إذا مال الإنسان وانعطف نحو الخطية وسقط، فإنه يمر بمرحلة ظلام روحي على قدر قوة وتسلُّط الشهوة، ومتى ضاع أثر اللذة وأفاق الإنسان مثل النائم من شرب الخمر، يقترب الروح القدس في هدوءٍ، ويحدِّث النفس في القلب شارحاً لها عدم جدوى الخطية، وكيف أفسد التعدي الحياة الداخلية. هنا يعمل الروح القدس مثل طبيب يكشف عن المرض ويقدم الدواء.

* يتودد الروح القدس للنفس مخاطباً إياها عن حبها الأول، وعن الصلاة والقدَّاسات التي نالت فيها قوةً وعزاءاً، وعن الاحتفالات بأعياد القديسين لكي ينعش بذرة الرجاء بمياه المواعيد، ويفتح لها باب الحياة من جديد.

٦٠- حقاً سمَّى الرب يسوع الروح القدس "الباراكليت"، أي المدافع عن الإنسانية التي افتُديَت بدم الابن الوحيد، وهو أي الروح القدس لا يقدم لها دفاع المحامين في المحكمة وأمام القضاء، بل دفاع المُعلِّم والمرشد؛ لأن صلاح وعزاء الثالوث هو صلاحٌ واحد وعزاءٌ واحد لرب واحد. هكذا يقترب المعزِّي الذي يعرف أعماق النفس ويشرح لها - مثل مُعلِّم حنون — مواعيد الله، ويكشف لها أسرار الحياة السمائية لكي تشتاق إليها وتعرفها، ويقدِّم لها عربون هذه الحياة لكي تحيا حسب الرجاء وتترك — بحريةٍ — لذَّات وشهوات وغرور الخطية.

٦١- هكذا يحفظ الروح القدس النفس في المسيح، ويثبتها حسب وصايا الرب حتى لا تستهين بموت الخطية.

موت الخطية

٦٢- موت الخطية هو الارتداد عن نعمة الله، وإنكار الإيمان وجحد الرب يسوع المسيح.

٦٣- بداية موت الخطية هو برودة المحبة، مثل الماء الذي يبرد قليلاً قليلاً حتى يصبح بارداً. وبرودة المحبة - كما قال الرب يسوع معلّم الحياة - "بسبب كثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين".

٦٤- لا تخفَ أيها الأخ؛ لأننا نتوسل لمخلصنا الصالح ابن الآب ونقول(١): "اسمك القدوس هو الذي نقوله"، أي نعترف به ونتمسك به؛ لأنه "رئيس الحياة"، أي ينبوعها، وهكذا يجعل نفوسنا تحيا بالروح القدس، ولذلك "لا يقوى علينا موت الخطية"؛ لأن موت الخطية يبدأ ببرودة المحبة. والخلط بين وصايا الرب ووصايا العالم، وبين العزاء السمائي والرجاء الحي ومغريات الخطية هو الذي يقود إلى بداية جحد الرب في القلب قبل جحده علانيةً.

٦٥- علامات موت الخطية ظاهرة وهي: عدم الاكتراث بالوصايا ومقاومتها، واحتقار كلمة الله في الكتب الإلهية، واعتبار معايير العالم هي المعايير الصحيحة، وكراهية وبغض يسوع، واحتقار صليب رب المجد والتجديف عليه، وهذه كلها في كلمةٍ واحدة: "برودة المحبة".

٦٦- طريق الهراطقة حدده الشيطان نفسه، فهو يبدأ بتعليم سامّ ينكر تجسد ابن الله المساوي للآب، وهذه هي الأريوسية. وينكر اتحادَ ابنِ الله بالطبيعة البشرية الكاملة: النفس والجسد، وهذه هي النسطورية. وبذلك يخفي ويدمّر تماماً حاجتنا إلى الحياة الإلهية التي تجعلنا نبقى أحياء إلى الأبد بفضل شركتنا في إلوهية الابن المتجسد كوسيطٍ بيننا وبين الآب والروح القدس، وكطريقٍ جديدٍ لحياةٍ

١- راجع كلمات أوشية السلامة الكبيرة.

جديدةٍ. وسُمُّ الهرطقةِ القاتل – كما نراه – يقتل تواضع الله وقبوله التجسُّد، ويقتل محبته لأنه ينكر اتحاده بنا وينكر عطية الحياة الأبدية، إذ يقصر الاتحاد على ألوهية وإنسانية ربنا يسوع المسيح، ويعزله كمصدر وينبوع الحياة التي لا تفنى، وبذلك تفقد الأسرار فاعليتها وقوتها، وهو ما يجعل التوبة قاصرة على الإرادة الإنسانية، ويجعل عطية الحياة الأبدية قاصرة على الذين استطاعوا – بوسائلهم الخاصة – الوصول إلى ينبوع الحياة التي لا تفنى، أي اللاهوت، وهذا هو شر وخطية الغنوصيين الذين انتشروا في كورة مصر في أيامنا.

سُكنى الروح القدس في القلب هي الطريق الملوكي للتوبة

٦٧- يحرس الصومُ والصلاة، وقراءة الكتب الإلهية، والشركة في السرائر المقدسة، عطية الله لنا. هذه العطية لا تأتي من الصوم أو الصلاة أو أي ممارسة نسكية، بل تأتي من الثالوث نفسه: من الآب بواسطة الابن وبنعمة الروح القدس. ولذلك قال الآباء لنا: لا توبة حقيقية بدون الثالوث.

حذِّر الإخوة من كل تعليم غريب يردُّ التوبةَ إلى توحيد الغنوصيين؛ لأننا بدون الثالوث لا نصبح أبناء الله، بل أبناء الجسد[٢]. وبدون الثالوث لا شركة لنا في الحياة الإلهية؛ لأننا إن لم نأخذ الروح القدس نموت إلى الأبد؛ لأن الموت يجعل الحياة التي فينا تجف، بل وتفنى؛ لأننا لا نملك - حسب طبعنا المخلوق من العدم - أن نحيا إلى الأبد.

٦٨- ومع أن الذي ذكرته لك يكفي، إلّا أننا نحتاج معاً أن نتأمل تدبير الله الذي أعدَّ لنا طريق الحياة في يسوع المسيح، وثبَّته فينا بالابن وبالروح القدس.

كان تجسُّد ابن الله هو بداية البشارة بالحياة، إذ أعدَّ الروح القدس الهيكل الإنساني الذي سكن فيه الابن المتجسِّد ربنا يسوع المسيح. و لم تكن مجرد سُكنى، بل حلول واتحاد معاً حسب كلمات الأمانة المقدسة: "لاهوته لم يفارق ناسوته لحظةً واحدةً ولا طرفة عين"؛ لأن الرب يسوع لم يكن إلهاً في أوقات معينة، وإنساناً في أوقاتٍ أُخرى، بل هو الإله المتجسد ابن الله المُتَّحد بالطبع الإنساني إلى الأبد، والذي فيه تمجَّدت الطبيعة الإنسانية بغنى ومجد اللاهوت.

٦٩- من هنا تبدأ التوبة، أي من تجسُّد ابن الله الذي غرس التواضع كأساس

٢ - راجع صلاة المعمودية حسب طقس كنيستنا.

الشركة. تواضع المحبة لا تواضع القوة؛ لأنه "بالضعف قد غلب الموت، وبالتواضع أباد الكبرياء، وبالمحبة رد لنا الحياة". هذا هو معنى الالتصاق بالرب يسوع؛ لأن التوبة تبدأ بتواضع المتجسد الذي لم يلجأ إلى وسائل القوة لكي يغلب، ولم يجعل القوة طريقه، بل "أخلى ذاته". وهذه هي عثرة التجسُّد، وبعدها جاءت عثرة الصليب، أي بذل الحياة لمن لم يطلب، ولأجل من لا يستحق، أي عن الجنس البشري الذي صَلَبَ رب المجد. وقد سبق البذلُ إخلاء الذات، وكَمُلَ إخلاءُ الذاتِ بالموت، ولذلك نقول إنه بالضعف داس الموت وهدم حصن الموت المنيع بموته على الصليب. ومن هنا تبدأ التوبة بالتواضع وإخلاء الذات والبذل وجحد القوة.

٧٠- ونحن نلاحظ إلحاح الروح القدس في قلوبنا؛ لأنه يقودنا برفقٍ نحو الصليب. ويفتح قلوبنا لكي لا نتمسك بالحياة الحاضرة في كل صورها، بل نضع هذه الحياة برمتها تحت أقدام المسيح. وهو يعزّي قلوبنا عندما يكشف لنا عن جمال المواعيد السمائية مؤكداً لنا أن السماء أفضل، وأن الروح أهم من الجسد، وأن الشركة مع الله وفيه أعظم من كل كنوز الأرض.

هذا الإلحاح نراه فينا كل يوم، وهو الذي يردّنا إلى التوبة؛ لأن الروح القدس - بسبب شركتنا في المسيح - يتودد إلينا بذات الحنو والصلاح ويعمل فينا ناقلاً من الرب كل ما يخص صلاحه ومحبته التي أظهرها نحو الخطاة والساقطين غارساً فينا رجاءً لا يفنى.

٧١- علامات سُكنى الروح القدس فينا هي الرجاء والثقة في صلاح الله وقبوله للخطاة؛ لأن الخطية - بسبب الكبرياء التي فينا - تدفعنا نحو اليأس، وهو خطية يهوذا الإسخريوطي.

برفقٍ يقودنا الروح القدس نحو يسوع المصلوب، ويغرس الصليب في الفكر وفي القلب وفي الإرادة: في الفكر كرؤية، وفي القلب كمحبة عميقة تدفع الإرادة نحو الغفران ونحو البذل، وفي الإرادة حتى نرفض، ليس فقط إغراءات الخطية، بل حتى الأمور الصالحة التي تعطل البذل.

٧٢- يقودنا الروح القدس نحو يسوع المصلوب لكي يعطي لنا توبةً مسيحيةً،

أي توبة الذين – في المسيح – قد مُسحوا بالروح القدس. وحسب هذه المسحة، مسحة المصلوب والحي الذي حوَّل الموت إلى حياة، والقبر إلى رقاد؛ لأننا في المسيح يسوع ننال موت الحياة القديمة، وفيه ننال سُكنى روح الحياة الذي أقام يسوع من الأموات.

التوبةُ قيامةٌ من الموت، ليس بقدراتنا، بل بقدرة يسوع المسيح. التوبة بقوة المسحة تندفع بقوةٍ نحو الصليب كقانون κανον للحياة[٣]. أمَّا التوبة بقوة الإرادة، فهي تبحث في دقةٍ عن كل الذرائع وأسباب الخطية وتطاردها وتدوس عليها دون تردد. الأولى نار المحبة، والثانية مطرٌ يروي الأرض العطشانة.

٧٣- تدخل الإرادة والفكر والقلب كله صحراء التوبة عندما تبحث عن قوة الحياة الجديدة ولا تجدها في الداخل، فتصبح مثل العطشان الذي يلهث من أجل قطرةٍ واحدةٍ من الماء. هذه بداية الحياة الجديدة، والرَحِم الذي منه نُولد جميعاً؛ لأن الرب يقودنا في البرية نحو ينبوع المياه الذي لا يجف، بل يفيض دائماً، أي الروح القدس الرب المحيي الذي ينقل إلينا حياة الرب يسوع مختومة بالصليب، متوَّجة بالقيامة، وممجدة بالصعود.

٧٤- التوبة التي بلا ألم هي توبة غير حقيقية. وأنا لا أعني ألم فقدان لذة الحياة المائتة، بل الألم الذي قال عنه الرسول: "العالم قد صُلِبَ لي وأنا للعالم"؛ لأن الذي يصلبنا مع الرب هو الروح القدس الذي نُمسح به بعد المعمودية في مسحة الميرون لكي ننال فيه وبه آلام الرب: المسامير والشوك وضربات، أي جلدات العالم لكي ننال فيها موت الحياة القديمة. فقد ظهر بطلان العالم لعجز القوة، وظهر فساد السلطان الذي لا يعرف المحبة. وقد أسَّس الربُ المحبةَ بتواضع تجسده وانسكاب ذبيحة محبته على الصليب الذي صار بالقيامة الانتصار الأبدي للحياة على الموت، وللمحبة على العداوة.

٧٥- هكذا يسكن فينا "روح يسوع"؛ لأنه يغرس فينا تجسُّد ابن الله بتواضع المتجسد، وموت الرب المحيي أي الصليب، والحياة الغالبة الموت والفساد، أي

٣- كلمة κανον تعني غاية أو هدف.

القيامة؛ لأننا نتوب توبةً حقيقيةً ليس بنكران الذات (جحد الذات) في فراغ الخطية، بل نجحد أنفسنا كمن يرى صورته في مرآة ويرى عيوبه، ولكنه يرى صورة المسيح؛ لأن المرآة هنا هي المسيح يسوع ربنا الذي عندما نراه كما هو، نترك حياتنا القديمة. وعندما نرى محبتنا المنقسمة نتركها. وعندما ندرك قذارة الحياة التي فينا نطلب طهارته. هكذا يعمل الروح القدس، يحركنا نحو المصلوب والحي إلى أبد الآبدين.

٧٦- قال ربنا له المجد: إن مَن يريد أن يكون له تلميذاً عليه أن يسير خلفه - لأنه قائد وربان سفينة الكنيسة وراعيها الحقيقي - ويحمل صليبه، أي حياته التي تُبذل، ويتبعه؛ لأنه بهذا وحده، أي مسيرتنا مع الرب وفي "شركة آلامه"؛ نصل إلى الجلجثة حيث صَلَبَ الربُ الإنسانيةَ فيه لكي نموت معه عن الحياة القديمة.

فهل كانت للرب حياةٌ قديمة؟ بكل تأكيدٍ لا، لكن كانت ولا تزال هي حياتنا نحن فيه، الحياة التي أعاد خلقها فيه، والتي تأقنمت بالاتحاد، ومُجِّدت بكل غنى اللاهوت، هذه الحياة تحوَّلت إلى تواضع وتسليم كامل للآب، ومُسِحَت بالروح القدس لكي يحفظ الرب لنا فيه المسحة. ولذلك، كل عمل الروح القدس فينا، في زمان غربتنا هو أن يحولنا إلى صورة المسيح، ولذلك يحركنا الروح القدس نحو الرب في الصلاة، وفي قراءة الأسفار وفي المحبة الخادمة مع الإخوة، وفي ترك كل ما يتعارض مع وصاياه.

الالتصاق بالمسيح المصلوب
لاقتناء التواضع الحقيقي
وسلوك طريق الحياة

٧٧- التواضع الحقيقي ليس بالكلام: "أنا خاطئ"، ولا هو بمحاولة الشعور بالخطية، رغم أننا لا ندرك ما هي خطايانا، وإنما هو رؤية المحبة الإلهية التي تسحق الإنسان، محبة المصلوب للخطاة "لأن الله بيَّن (أي أعلن) لنا محبته؛ لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا".

٧٨- التواضع الحقيقي هو قبول صورة العبد، أي صورة الرب نفسه الذي قَبِلَ عبودية الإنسان ولم يتذمر، بل عاشها لكي يفتدي الإنسان. هكذا يبدأ التواضع عندما نقبل صورة العبد، ولا نحارب كبرياء الآخرين أو نتضايق منها، بل بمحبةٍ نقاومها دون أن يكون لدينا كبرياء خفية تدفعنا لأنْ نظن أننا قادرون على تجديد حياة الآخرين بالانتهار والتهديد والتشهير؛ لأن هذه هي علامات موت روحي خفي كامن في القلب.

٧٩- عندما يسقط المتكبر، يندهش ويندم ويفقد الرجاء، أمَّا المتواضع فهو يعرف ضعفه ولا يندهش من تصرفٍ أو سلوكٍ، بل يندم برجاءٍ حي في رحمة الله.

٨٠- لا تطلب من الله اقتناء التواضع، بل اطلب من الله معرفة أسرار قلبك الخفية، وأنت تنال من معرفة أسرار قلبك الاتكال على عمل الروح القدس؛ لأن ضعفك سوف يجعلك تستدعي دائماً رحمة الرب والمخلص.

٨١- إذا كانت المحبة، أي معرفة محبة الله هي التي تغرس التواضع، فإن بذرة التواضع هي بذرة الملكوت التي تصبح شجرةً عظيمةً كما قال الرب يسوع.

الاعتراف بالخطية

٨٢- السقوط في خطيةٍ معينةٍ يكشف ضعف المحبة، أي محبة الذات، ومحبتنا لله. ولذلك، الاعتراف الصحيح المُقبول هو أن نعترف بأننا نحب أنفسنا أكثر من الله، إذا كانت خطية معينة مفضّلة عن غيرها من الخطايا.

٨٣- تكرار السقوط في خطية معينة يحتاج لدواء الصليب، وهو صلب الإرادة بالفكر، وإخضاع الجسد بالصوم والسهر لأن هذا يكسر محبتنا للخطية، لكن الشفاء هو من الروح القدس.

٨٤- الاعتراف بخطيةٍ معينةٍ إذا تكرر يجب أن يعالَج بثلاثة أدوية شافية، وهي أن نعمل ما هو ضد هذه الخطية باقتناء بتولية القلب، أي رفض ما هو صالح من أجل الله، وخدمة الإخوة، والاعتراف الدائم لله لكي تولد التوبة.

٨٥- أيها الأب المحبوب، بحكمةٍ استمع واقبل كل مَن يقول إنه أخطأ، ولا ترغم أحداً على الاعتراف، بل علّمه المحبة والبذل.

امسك بيد كل معترفٍ وانقله من عبودية الخوف إلى حرية المحبة بالتعليم.

سلّمه شريعة الإفراز لكي يكون تلميذاً طاهراً من وسواس الخوف ومن رعب جهنم؛ لأن رعب الإنسان لا يقرّبه من الله، لأنه اقترب منّا وصار كواحدٍ مثلنا في كل شيء ما خلا الخطية.

إفراز نوايا القلب

٨٦- الصليب هو قانونٌ[٤] (أي دفة السفينة التي تحدد اتجاهها). لذلك، كل ما هو ضد المحبة المصلوبة الناهضة من أوجاع الموت، وغالبة القبر، يجب الحكم عليه فوراً وبلا أي تأخير.

٨٧- افرز نوايا القلب:

أولاً: بما تريد أن تحققه (الهدف). إذا كان ضد الصليب، اتركه، أي كل ما يزرع العداوة والبغضة والانقسام؛ لأن الرب دعانا إلى الوحدة، ودعانا إلى أن نسير «الميل الثاني»، وأن لا نتشاجر بسبب الأمور الزائلة الوقتية.

ثانياً: حدِّد لنفسك الأسلوب الذي يجب أن تسلكه، واعلم أن للرب يسوع طريقاً واحداً، وهو يسوع المسيح نفسه. والطريق والغاية (والهدف) يجب أن يكون واحداً مقدساً؛ لأن الشر لا يلد الخير، والكذب لا يخدم الحق، والزنى لا يثبِّت العفة.

٨٨- إذا كان يسوع هو الطريق، وهو الغاية، فقد لخَّص كل ما يخص الإفراز في عبارتين: الأولى، "لا يقدر أحد أن يخدم سيدين". والثانية، "من لا يجحد ذاته ويحمل صليبه ويتبعني لا يستحقني"، أي لا يملك معي ذات الملك الذي أعدَّه الآب السماوي.

مَن له قلبين ولسانين لم يعد واحداً، بل اغترب حتى عن جسده، أي يسلك بسلوك من لا يعرف حدود الخير والشر، بل يمزج بينهما مثل شعب إسرائيل القديم الذي سمع صوت إيليا يصرخ: "لا تعرِّجوا بين الفرقتين". ومَن له قلبين لا يصلح لشيء، فهو "من وضع يده على المحراث"، ولم ينظر إلى ما هو أمامه،

٤- الكلمة اليونانية Κανον تعني القلم، والاتجاه، وأخيراً تعني الدفة التي تحدد سير السفينة.

بل إلى ما هو خلفه حسب قول الرب. وقد قال الأب ديونيسيوس إن النظر إلى الخلف هو الحياة الماضية القديمة التي حذّرنا منها الرب يسوع المسيح؛ لأن الخمر الجديدة لا توضع في زقٍ قديم، والرقعة الجديدة لا تضاف إلى الثوب العتيق.

٨٩- اكشف نوايا قلبك للرب يسوع، ولتكن صلاة يسوع هي بداية كل فكر وقول وعمل، وأنت تتعلم من الصلاة والشركة كيف تفرز نوايا القلب.

صلاة المزامير

٩٠- نحن لسنا تحت حكم الشريعة، ولا حتى تحت حكم المسيح يسوع ربنا؛ لأنه لم يأتِ لكي يُخدَم، بل لكي يخدِم ويبذل نفسه فديةً عن كثيرين. يسوع المسيح مخلصنا هو فينا وليس خارجاً عنا، هو رأسنا الذي يعطي حياةً لكل أعضاء جسده، أي الكنيسة. ومن لا يعرف هذا، يرتبك في كل أمور حياته، لذلك رغم أننا نحرص على استخدام المزامير لكي لا نقع أسرى احتياجاتنا اليومية والشخصية وننسى تسبيح الله مع الخليقة والشكر على الخلاص العظيم، نصلّي المزامير؛ لأنها مدرسة التوبة الأولى التي يجب أن ندخلها بإفرازٍ ومعرفةٍ حتى نتعلم حقائق الإيمان.

٩١- لا يجب أن نخاف من اللعنات والعبارات القاسية التي ردَّدها الشعب القديم؛ لأنه كان يسلك حسب الشريعة "عين بعين وسن بسن"، ولذلك مُنِعَت هذه المزامير من صلوات السواعي، وتُرِكَت للناضجين من المتوحّدين والمعتكفين لأنهم يقرأون هذه الصلوات ومعها الفصول التي تشرح حروب بني إسرائيل والصراع ضد الوثنية.

ونحن لا نُلزم الإخوة بتلاوة هذه المزامير مثل المزمور ٣٥ وغيره، بل نختار ما يناسب هؤلاء حسب اختبارهم. وقد رتّبت الكنيسة بحكمة الروح القدس أن تختار مقاطع (استيخون) قبل قراءة الإنجيل للتوبة وطلب معونة ونعمة الرب. وأحياناً نجمع نصين من مزمورين معاً قبل قراءة الإنجيل لكي يدرك السامع أننا نتعلم التوسل والطلب والشفاعة في مدرسة الصلاة الأولى، أي سفر المزامير.

٩٢- مَن يجد لذةً أو عذراً في طلب هلاك الأعداء ويدعّم ذلك بما ورد في بعض المزامير، فقد حسب نفسه مع الشعب القديم، ولم يدرك أنه قد صار عضواً حياً في جسد المسيح الذي غفر لصالبيه، ولم يسكن في قلبه الفرق بين العهدين؛ لأن موسى ليس ابن الله، وخادم البيت (موسى) ليس مثل مالك البيت يسوع

المسيح ربنا (عب ٣: ١ -٣). ونحن هنا لا نُشَّرع، ولا نضع قانوناً؛ لأن ما جاء في الإيمان هو السند الأول والأخير لنا.

٩٣- قِيل عن الرب يسوع إنه ”إذا ظُلِمَ لم يكن يهدد، بل كان يسلّم لمن يقضي بعدلٍ“، وعدلُ الله قادرٌ أن يقيم الساقطين. و لم يلعن الرب بني إسرائيل، بل لعن شجرة التين لكي يعلن لهم علانية الدينونة، ويترك لهم زماناً للتوبة. هكذا نحن أيضاً علينا أن نسلك حسب ”رباط الكمال“، أي المحبة، ولذلك قال الرب: ”باركوا لاعنيكم“، ومع كل عبارات البركة في المزامير، علينا أن نطلب بركة لكل مَن نعرفه.

التناول
من جسد الرب ودمه

٩٤- يقام القداس (حرفياً الليتورجية) في السبوت والآحاد وأعياد القديسين ورتب الملائكة والأنبياء حسب ترتيب الكنيسة الجامعة، والتناول من الذبيحة هو دواء النفس والجسد؛ لأننا بالاشتراك في حياة الرب وموته وقيامته المجيدة نمتلئ من الحياة ومن قوة الرب يسوع ومن الروح القدس، فتنمو توبتنا نحو الاتحاد الكامل بالرب جسداً وروحاً، ومع الإخوة الذين معنا في ذات الشركة؛ لأن جسد الرب ودمه هو الذي يوحِّدنا معاً ويجعلنا الجسد الواحد، الذي له روحٌ واحد هو روح يسوع المسيح.

٩٥- شَجِّع الإخوة على الصوم قبل التناول؛ لأن طلب خبز الله النازل من فوق من عند الآب (يو ٦: ٣٢) هو للحياة. وليصُم كل واحدٍ على قدر طاقته وحسب نموه الروحي؛ لأن الإفراط في الصوم قد يجلب مضرة جسدانية وروحية.

٩٦- نحن نستعد للتناول من عشية يوم الرب وصلاة وتسبحة نصف الليل وباكر؛ لأن هذه الأوقات تخلِّص العقل من الاهتمامات وانشغال الفكر بالأمور الصالحة، أمَّا الأمور الرديئة فليس لها مكان في حياتنا.

حضور هذه الصلوات هو أفضل استعداد للاتحاد بالرب وبكل الكنيسة، لذلك شَجِّع الإخوة على المثابرة لأنه لا يوجد قانون خاص بالصلوات؛ لأن طلب الرب هو من القلب وليس بقوة وسلطان الشريعة.

٩٧- نحن نتناول لكي نتوب، ونتوب لكي نتناول. هذا ما سمعناه من الآباء الذين عاشوا قبلنا والذين معنا، لذلك لا يجب أن نمنع مَن يريد التقرب من السر المجيد حتى الذي له أخطاء علنية؛ لأن توبة الخوف من دينونة الناس لا تلد في

القلب تواضع الروح، بل نفاقاً، ونترك مَن له خطايا علنية لأبيه الروحي لكي يدبّر أمره.

٩٨- لا انقطاع عن الطعام بعد التناول؛ لأن التناول هو عيد قيامتنا، ''وفرح الرب هو قوتنا''. لذلك عندما نفرح بالشركة نتعزّى بمراحم الرب. ولا سجود، ولا حتى طلب بركة أجساد القديسين؛ لأنه يكفي أن يشتعل القلب بمحبة الرب وينشغل به ويترك كل ما عداه، حتى المُقدّس والطاهر، من أجل الذي أعطانا جسده ودمه.

٩٩- نظافة الجسد ليست هي طهارة القلب. وحسنا أن نكون أنقياء من الداخل؛ لأن القبر قد يكون بناءاً عظيماً، وفي داخله عظام ميتة. ونحن ليس لدينا عادات ولا قانون خاص بنظافة الجسد؛ لأن هذه الأمور تقع تحت سلطان كل مؤمن بالمسيح؛ لأننا باغتسال واحدٍ هو مياه المعمودية، قد صرنا أطهاراً ولا حاجة لنا إلّا بالاغتسال من أعمال الجسد الميتة بالتوبة، أمّا مياه الخليقة فهي لا تقربنا إلى الله.

١٠٠-الاعتكاف بعد التناول ضروري لمن يطلب الرب من كل قلبه، ولكل واحد منا شركته الخاصة، ومع ذلك شَجّع الإخوة أن يأتوا إلى مائدة الطعام (الأغابي) بعد القداسات، لكي يكون لنا شركة. أمّا مَن يفضّل الاعتزال – عن محبة – فهو مجاهد نافع وشريك في مجد ابن الله.

أمّا ما يخص السر المجيد، فقد كتبت عنه التعليم الأول الخاص بالمبتدئين، وقد راجعه الآب ديونيسيوس المعلّم الحكيم، ولكن في الختام أقول: إن المسيح هو حياتنا التي لا تموت، ولا يقوى عليها الموت. ولذلك نحن نقبّل الإنجيل المقدس في صلواتنا لأنه بشارة الفرح والحياة التي تؤكد لنا أن توبتنا تحفظ ما نناله، ولا تُعطي لنا نعمةً أوفر؛ لأن النعمة الكاملة هي يسوع المسيح نفسه الذي لأجله نتوب لكي نكون شركاء في ميراثه السماوي، له المجد مع الآب بالروح القدس في كل الدهور.

آمين

المئوية الثانية

التوبة وعمل الروح القدس في القلب

رسالة الأب صفرونيوس
إلى تلميذه ثيؤدوروس (تادرس)

طبيعة الخطية

١- سألتني عن طبيعة الخطية؟ وجوابي هو أن الخطية والموت والشيطان معاً طبيعة واحدة؛ لأنهم يشتركون في التعدّي. الأولى والثاني أي الخطية والموت، لا يمكن فصلهما عن بعضهما، والثالث هو المصدر. الأولى لا وجود لها إلّا في الخطاة. والثاني هو النتيجة. والثالث هو مصدر الغواية لترك الحق، أي الحدود التي تخص الطبيعة.

وقد جاء الرب يسوع المسيح، فأباد الخطية والموت معاً؛ لأنه عندما أباد الموت، فصل الموت عن الخطية، وجرّد الشيطان الذي له سلطان الموت من سلطانه (كولوسي ٢: ١٥).

وهناك فرقٌ بين من يشرح الخطيةَ كتعدٍّ، ومن يشرح الخطية في نور إنجيل ابن الله؛ لأن المسيح يسوع ربنا كشف لنا عن طبيعة الخطية. وعندما نتكلم عن الخطية، فإن الموت والشيطان معاً هما مصدر الظلمة الفساد والتعدّي والموت.

٢- حسناً يا مَن دُعيت عطية الله (ثيؤدوروس)، هل تريد أن تعرف جذور الخطية؟ تأمّل حُب الرئاسة. هو من الشيطان الذي أراد أن يكون مثل الله، وأغرى آدم لكي يسلك في ذات الطريق، فوقع في فخ الموت الروحي الذي أدّى إلى موته الجسداني بعد ذلك؛ لأنه لم يمُت بعد السقوط، بل عاش كل حياته خارج الفردوس. ولأن بذرة الموت في الروح الإنسانية؛ لذلك زرع الربُ بذرة الحياة في القلب لكي تنمو بمياه روح الحياة الذي أقام ربنا يسوع من الأموات.

٣- هل مات الرب يسوع المسيح على الصليب موتاً روحياً وجسدياً معاً مثل آدم؟ الجواب: نعم، ولا. فقد أخذ "الحكم" الذي كان يخصنا، ولكنه مزّق "الصك" ورفعه من الوسط، أي أزاله من علاقة الشركة بين الله والإنسان، فقد مزّقه بالصليب عندما سمّره في الصليب. هذا لا يحدث إذا كان الرب قد مات موتاً

روحياً مثل آدم، ولذلك يقول الرسول بطرس في يوم العنصرة إن الموت عجز عن أن "يمسكه" (أع ٢: ٢٤)؛ لأن الحكم صدر من فم الثالوث الواحد، ولذلك لم يكن هناك آخراً له سلطان الحكم غير الآب والابن والروح القدس. والديان العادل لا يُعطِ حساباً لآخر، بل حسب صلاحه يعطي ما يشاء؛ لأن الطين لا يتجاسر على أن يسأل الخزّاف لماذا صنعتني هكذا؟ (رو ٩ :٢٠ - ٢١).

وعندما نقول: نعم، فلأنه مات فعلاً، وانفصلت نفسه عن جسده، وهو ذات موت آدم. وعندما نقول: لا، فلأننا لا ننسى أن الرب له سلطان الحياة، ولذلك نزل إلى الجحيم، ليس كميِّتٍ تحت سلطان الموت أي الشيطان، بل نزل وشتَّت قوات الظلمة، وأباد قوات الجحيم، وكسر شوكة الموت، ومزّق الصك؛ لأن له سلطان الحياة.

٤- تأمّل سلوك الموحّدين، إنهم يمدحون كبرياء الله، وحُب الرئاسة فضيلةٌ عندهم، والتواضع ضعف؛ لأنهم غرباء عن ابن الله، وهم مثل أبيهم الذي اشتهى أن يكون مثل الله لكي يحارب الله وينزع سلطانه، ففقد إدراكه بأنه مخلوق. أمَّا آدم، فقد خَلُصَ بموت الرب وتواضعه. والصليب وحده هو الذي يكشف عن ضعف القوة وعجزها، فهو ميزان القوة الحقيقية، أي قوة المحبة والتواضع التي أعلنها الرب.

الموت الروحي

٥- الموت الروحي والجحيم هما وجها الدينار؛ لأن الجحيم هو الحياة المحصورة التي لا نمو فيها والتي فقدت الهدف أو غاية الوجود؛ **لأن الإنسان إذ خُلِقَ على صورة الله، فهو بدون الله يصبح صورة نفسه**، وبذلك يحدد وجوده ويحصره في الوجود غير النامي والمحدود بصورة الإنسان التي خلقها لنفسه، ولذلك يعجز الإنسانُ عن أن يرتفع إلى ما هو أعلى من صورته الإنسانية؛ لأن محاربة صورة الله فينا تجعلنا غرباء عن وجودنا الحقيقي، وأسرى وجودنا الكاذب الذي صنعناه لأنفسنا.

وعندما قال الرسول عن ربنا له المجد إنه "أدان الخطية في الجسد" (رو ٨: ٣)، فقد قَبِلَ موت الجسد الذي يشتهي الخلود، ويسعى للبقاء بقوة الحياة الداخلية بدون الله، أي بدون نعمة الله المصدر الحقيقي للحياة. أمَّا الرب يسوع، فقد أخذ جسدنا وردَّه إلى الحياة التي لا تموت بالشركة في أُقنومه الإلهي، وهي شركة في الآب والابن والروح القدس.

وعندما ذاق الربُ الموتَ بالجسد على الصليب، حكم على فساد الخطية كأسلوب (أو وسيلة) للحياة، فقد رفض الحياة التي لا تعرف الله ولا تقبله، بعكس آدم.

فعندما ذاق الموت، وضع نهايةً لاغتراب الجسد عن الله وعن الحياة الداخلية (القلب)؛ لأن الجسد يغترب عن الروح الإنسانية عندما يصبح وسيلةً وأداةً للخطية، فيترك الحياة الطبيعية (البيولوجية) ويتشكّل بكل صور الخطية ويقع أسيراً للموت؛ لأن موت الخطية نابعٌ من الخطية التي يصفها الرسول بأنها "أعمال الجسد الميتة"، أي تلك التي لا حياة فيها، والتي تجعلنا غرباء عن أنفسنا، وعن أجسادنا، وعن الله مصدر الحياة.

هل الموت الروحي انفصالٌ عن الله؟

٦- يتناقض وجود الإنسان مع غاية خلقه؛ لأنه لا يوجد كائن في السموات أو على الأرض له حياة في ذاته، حيٌّ بقوته وإرادته، وقادرٌ على البقاء بقدراته. فالله وحده هو الحي إلى الأبد، وهو كما تقول الأسفار المقدسة "الكائن"، أمَّا نحن فلنا صورة هذا الكيان. ولذلك، الانفصال هو من جانبنا فقط، بدأ منَّا ويبقى فينا برفض الوصايا، وطلب القوة التي لا تعرف المحبة، ولا يحركها التواضع، أي ذات حياة الشيطان الذي ماتت حياته عندما أراد أن يصير مثل الله بدون الله.

هنا يجب أن ندرك أن الانفصال هو من جانبنا فقط، وإن الله لم يفصل حياته عنّا، بل حفظ لنا نعمة الوجود، وحسب عبارة الرسول: "إننا به نحيا ونتحرك ونوجد" (أع ١٧: ٢٨)، منتظراً زمان التجديد. ولا يجب أن نخطئ في فهم هذا الأمر حتى لا نسقط في اليأس؛ لأن الله لم يتركنا، بل أرسل الأنبياء لأجلنا[٥] وأعطى الشريعة، وأعلن بره للإنسانية؛ إذ ترك الشريعة الداخلية تحركهم لطلب الله خالقهم، وهو ما نراه حتى في عبادة الأوثان التي هي عبارة عن بحث وطلب الخالق، وإن كان هذا البحث يغطيه فساد الإدراك.

ما هي علامات الانفصال عن الله، وهل هي الموت الروحي؟

٧- كما ذكرنا من قبل، علامات الانفصال هي:

أولاً: جهل الإنسان بخالقه، لا سيما صلاحه ومحبته.

ثانياً: الجهل والظن الكامن في القلب بأن الإنسان هو مصدر حياته، وإن الطعام هو مصدر وجوده، وهو ما حذَّرنا منه الرب يسوع عندما نهانا عن أن نهتم بما نأكل، أو بما نلبس، وغيرها من الأمور التي نظن أنها مصدر حياتنا (مت ٦: ٢٦ - ٣٢). وعندما وجَّه نظر القلب نحو عناية الله بكل المخلوقات مثل زنابق الحقل وطيور السماء، فقد كان يكشف عن جهل الإنسان بالله، وهو أول علامات الموت الروحي؛ لأن هذا الخلود الكاذب هو مصدر الكبرياء. فإن كان الله هو مصدر حياتنا، فلماذا نتكبَّر؟ وما هو السلطان الذي فينا، الذي يجعلنا نقرر

٥- راجع صلاة القداس الإلهي "لم تتركنا عنك إلى الانقضاء"، و"أرسلت الأنبياء من أجلي أنا المريض".

مصائر غيرنا من البشر؟

ثالثاً: الظن بأن «التعدّي» يقودنا نحو وجودٍ أفضل، وحياةٍ أفضل يعطي لها النمو.

رابعاً: الشك في حكمة وصايا الله، واعتبارها ضعف وجهل، وإن الخير الذي يحدده الإنسان لنفسه هو أفضل من الخير الذي يأتي من الشركة. في الوقت الذي يكون فيه اختيار الخير والشر حسب شهوات وغرور القلب هو «التعدّي».

هل تريد أيها الأخ المحبوب أن تعرف أكثر من ذلك؟ أقول لك في اختصارٍ شديد، وفي عبارةٍ واحدة: الموت الروحي هو الجحيم، والجحيم هو حياة إنسانية أُسِرَت لغاياتٍ متباينة ومتفرقة، لا تنمو، ولا ترى، ولا تَذُق ما هو أبعد من الجسد، أو أبعد من هذه الغايات المتفرقة التي تمزّق الكيان الإنساني.

مثال عن الموت الروحي هنا على الأرض

٨- إذا كنت أنت نفسك، أو إذا كنت قد راقبت إنساناً - غرق في هاوية الكراهية والبغضة — وكان له عدوٌ يريد القضاء عليه أو الانتصار عليه، فإنك تجد أن هذا العدو قد صار محور الحياة، بل أَسَر الحياة كما لو كان هو الوجود كله.

وإذا أراد الإنسان أن يفلت من هذا الجحيم، فإنه يغرق في لجة الغضب، والعجيب حقاً أنه بينما يريد الفكاك والحرية، ترده الكبرياء إلى هاوية الكراهية. هذه هي صورة مصغَّرة زمانية عن الموت الروحي أو الجحيم الصغير الذي لا يتركه الرب، بل يترل إليه، فكما قال واحدٌ من الشيوخ: إن الجحيم هو قلب الإنسان نفسه.

لماذا نقول إن للشيطان سلطان الموت؟

٩- لم يُعطِ الربُ خالقنا للشيطان إي سلطان علينا، ولا حتى على الخليقة غير العاقلة؛ لأنه لما طلب الإذن بالدخول في الخنازير، كان سقوط هؤلاء في البحيرة هو رمز نهاية قوة وسلطان الشيطان. وحتى أيوب البار، فقد جُرِّبَ في كل شيء، ولكن الله لم يعطِ للمُجَرِّبِ أن يكون له سلطانٌ على عقل أيوب. فكيف صار

للشيطان سلطان الموت؟

جمعت الغواية الإنسان والشيطان معاً، ولما سقط عدو جنسنا من رتبته، أسقط الإنسانَ؛ لأنه أدرك أن الإنسان سوف يأخذ ميراثه. ولذلك تجمع شبكة الغواية التي يدخلها الغافلون، الشيطان والبشر معاً، بل وحتى الحكماء من البشر الذين يتكلون على حكمة هذا العالم، متى سقطوا، صاروا في شركة مع الشيطان، وصار هو مركز الغواية، وصارت الغواية تجمع هؤلاء معاً، ولكن رغم ذلك يبقى قلب الإنسان الغارق في خطاياه بعيداً عن سلطان وسطوة العدو الذي لا يعرف ما يدور في داخلنا من صراع، وإنما فقط يستطيع أن "يخمِّن" ذلك بمراقبة انفعالاتنا وتصرفاتنا الخارجية التي تكشف عن طبيعة ما يحدث في داخلنا.

أيها الأخ المبارك، إن الغواية هي الطُعم الذي يوضع في الصنارة لنا، لكي يمسكنا عدو الخير ويصطادنا بواسطته.

علامات التوبة الحقيقية

١٠- الالتصاق بالربِ وطلب مشورته من الأسفار المقدسة والمعلّمين الروحيين، وسماع صوت الروح القدس في القلب، وتفضيل وصايا الله على حكمة العالم.

١١- سيادة المحبة على كل فكر وفعل وقول، وهذا نراه في سرعة غفران الإساءة ورد الإهانة بروح يسوع.

١٢- عدم تحول القلب عن وصايا يسوع، وحتى إذا مرت فترات تردد، وصرخ الإنسان طالباً نعمة الرب وقوته، فإن الصراخ هو من علامات التوبة. والاعتراف بالضعف ضروري.

١٣- تفضيل شريعة الصليب والمصلوب على كل شيء في الحياة، حتى الحياة نفسها، وحساب كل شيء – كما قال الرسول – "نفاية".

١٤- كراهية شديدة للخطية، وتواضع في معاملة الخطاة؛ لأن كراهية الخطية بدون تواضع هي دفاعٌ عن سيرتنا، وطلبُ مديحٍ مستتر، ومحاولة الظهور بأننا أبرار بمهاجمة الخطاة والخطية علانيةً.

هل أعلنت قيامة الرب شيئاً عن اتحاد النفس بالجسد؟

١٥- عندما قام الرب من بين الأموات، وصار "باكورة الراقدين"، حَفِظَ جراحات الصليب في جسده، أي المسامير وطعنة الحربة، وهي تلك التي عاينها توما الرسول وهتف: "ربي وإلهي". لقد أقام الرب جسده بدون فساد، ولكن كعلامة على محبته الأزلية لنا، أبقى على جراحات الصليب، تلك التي قبلها بإرادته وحسب محبته للبشر. هذه الجروح، بقيت لكي تعلن لنا ثلاثة أشياءٍ هامة:

أولاً: لقد تجلّى الرب قبل موته المحييّ على جبل تابور أمام تلاميذه، وبذلك كشف لنا عن مجده الإلهي الذي احتجب في جسده، وسطع نوره الإلهي معلِناً بهاء الحياة الإلهية التي سوف تعطى لنا في القيامة، والتي أخذناها هنا في الزمان الحاضر، ولكن تبقى مستترةً إلى أن يأتي يوم تجديد الخليقة. هذا البهاء الذي ظهر علانيةً، ظهر في جسده المحيي معلِناً لنا ما سوف يحدث لأجسادنا عندما نقوم فيه في اليوم الأخير، وهو ذات البهاء الذي تعاينه النفس ويظهر أحياناً بشكلٍ منظور في أجساد بعض القديسين مثل مكسيموس ودوماديوس، والأنبا أرسانيوس ويوحنا القصير وغيرهم. فقد تجلّى الأب مكاريوس أمامنا بشكلٍ منظور في أثناء استدعاء الروح القدس حتى أن الأخ تيموثاؤس ظن أن ناراً قد اشتعلت في الهيكل؛ لأن مجد الرب يسوع المسيح ظهر علانيةً في جسده.

ثانياً: حَفِظَ الربُ جروح الصليب لكي يؤكد محبته، ولكن أيضاً لكي يؤكد لنا أن المحبة – بشكل خاص – تحوّل الجسد إلى ذات الرؤية التي تراها النفس ويستوعبها القلب وتثبت فيه. إن ما يحدث لنا من تحول داخلي، ينعكس، بل يشع بشكل منظور؛ لأن محبته لنا كامنة في جوهره الإلهي، وهي ذات المحبة

التي ظلت تشفي المرضى، وتطرد الشياطين، وتحرر المأسورين. وعندما قَبِلَ الصليب بإرادته وبسبب محبته للآب ولنا، ترك الجروح مُعلِناً إن ما في الداخل في القلب، يظهر بشكل علني ومنظور في كل أعضاء الجسد؛ لأنه بإرادته قَبِلَ المسامير في يديه، والإرادة واليَّدين هما واحد. ولأنه ثابتٌ في محبته، قَبِلَ المسامير في قدميه؛ لأن الإنسان يقف على قدميه، والقدمين والرجلين هما الشكل المنظور للبقاء والحركة، فقد قيَّد حركته بالمحبة، أو بمعنى أدق، ثبّت حركته علناً وبشكلٍ منظور بمسامير القدمين. وهكذا أيضاً توّج فكره بتاج الشوك؛ لأنه قَبِلَ أن يغسل آثامنا وجراحنا الروحية، مؤكداً – بتاج الشوك – أنه تُوِّج الطبيب والشافي. وهكذا أيضاً جُرِحَ في جنبه سرياً حيث الضلع الذي أُخِذَت منه حواء رمز الكنيسة والتي وُلِدَت منه بالماء والدم.

نحن نولد روحياً من جراح الرب ولادةً تؤكد لنا أن المغفرةَ ليست إعلاناً بالكلمة فقط، بل بحياةٍ تُعطى لنا تغلب الحياة القديمة البالية. هكذا عندما نتأمل جراح الرب، نعاين أن ما يحدث للنفس، وكذلك التحول الداخلي في القلب، ذلك التحول الخفي، يؤكد لنا أننا ننال علامات القيامة ونحن هنا في «جسد الموت»، أي الجسد الذي يفنى حسب أصله الترابي الذي أُخِذَ منه؛ لأن فناء الجسد الطبيعي هو مقدمة قيامته؛ لأن شكله الطبيعي يفنى بالموت لكي يقوم حسب شكل المسيح. وتركيب الأعضاء البالي ينحل؛ لأنه يُزرَعُ في هوانٍ ويقام في مجدٍ حسب كلمات الرسول (١كور ١٥: ٤٢ – ٤٤)، وهو ما نحسُّه روحياً حسب روح يسوع، أي الروح القدس الذي أقامه من الأموات.

لذلك ذَكّر الإخوة بأن انحلال الجسد وعودته إلى التراب هو بداية القيامة؛ لأنه يعود إلى التراب ليس بلعنة الموت، بل بقوة القيامة؛ لأن لعنة الموت معناها عدم القيامة، أمّا نعمة الرب، نعمة القيامة، فهي حياة أبدية في يسوع المسيح ابن إلهنا الآب السماوي.

ثالثاً: وبسبب تجسُّد الرب وموته وقيامته، ثبّت لنا وأعلن لنا سر اتحاد النفس بالجسد؛ لأنه جاء لكي يخلِّصنا ويحملنا مثل خرافٍ صغار في أحضانه،

معلناً لنا أن النفس هي الأصل، وهي قاعدة (جوهر) الوجود الإنساني، وإن الجسد هو صورتها الخارجية المنظورة، ذلك لأنه جدّد النفس وردّها إلى صورته السماوية التي حُدِّدت في بشارة الإنجيل. فقد أعلن أن التجديد هو روحيٌّ، وأنه يكمُل في يوم القيامة. وأعلن لنا مراحل التجديد مؤكداً لنا أولوية النفس بالميلاد الجديد في مياه المعمودية التي يغتسل فيها الجسد أيضاً من لعنة الموت منتظراً قيامته لمجد ابن الله. وأعلن لنا أيضاً سُكنى الروح القدس في النفس والجسد معطياً للنفس الدور الأول مقدِّساً الجسد في مسحة الميرون التي لا تفنى رغم انحلال الجسد، ولذلك نحن نكرِّم أجساد الشهداء والقديسين الذين أعلنوا لنا الرب يسوع بالتعليم والشهادة والسلوك الصالح المقدس، وهم بذلك آنية حية للرب وهيكل الروح القدس الذي لا يفارق حتى ما يبقى من عظام، بل لأن الكل خُتِمَ بالروح القدس، أي بشكل الرب يسوع المجيد؛ يبقى الكل مثل بذرةٍ تنتظر يوم مجد الرب يسوع الذي سوف يغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده؛ لأنه استطاع أن يُخضِع له كل الأشياء (فليبي ٣: ٢١).

وماذا يمكن أن نقول عن السر الفائق المجيد، سر بذل محبته، فقد سبق وكتبنا الكثير، لكن العبرة هي في تذوُّق صلاح الرب وإحساناته لنا، وإعلان شفاء وتجديد كل كياننا بالاتحاد به في سر مجد محبته، سر جسده ودمه.

هل انحلال وحدة الكيان الإنساني، وعودة الجسد إلى التراب هو من بقايا الخطية؟

١٦- هزم الرب الشيطان بطرده وأسره في الجحيم. وهزم الموت على الصليب. أعلن الغفران وهو معلقٌ على خشبة الصليب، وفتح الفردوس للص اليمين، وأقام الموتى، وفتَّح أعين العميان، وشفى المرضى. فهل بعد كل هذا يمكننا أن نقول أنه توجد بقايا للخطية؟ لقد محا كل شيء، وجدد كل شيء، وردَّنا بميلادٍ سماوي إلى الحياة السماوية. فكيف يجوز لنا أن نتكلم عن بقايا الخطية؟ لقد دفعت الخطية أجرتها لنا، وهي الموت، وجاء الرب وهزم الموت، فلماذا لا ننال بعد التجديد كاملاً؟ ولماذا تنحل وحدة الكيان الإنساني ويعود الجسد إلى تراب الأرض؟

لقد أجاب الرسول على هذا في نهاية الفصل الثاني من رسالته إلى رومية

(٨: ٢١)، حيث أعلن بوضوح أن التجديد الشامل لكل الخليقة سوف يتم في اليوم الأخير، وإننا نحن الذين نلنا الفداء في إنساننا الداخلي، "نئن متوقعين فداء أجسادنا" (راجع رو ٨: ٢٣)؛ لأننا لن نتجدد جسدياً إلَّا مع باقي الخليقة؛ لأن الجسد الذي يحيا بالأكل من ثمار الأرض، وعلى الرغم من أنه يأكل طعام الحياة الأبدية، جسد الرب ودمه، إلَّا أنه يأخذ "العربون"، أي القيامة حسب مواعيد الله. هنا نحن نحيا حياةً في موت الجسد؛ لأن النظام الكوني لم يتجدد بعد، ولا يزال يئن على رجاء استعلان "حرية مجد أولاد الله"، لذلك لا يجب أن نفشل في انتظار قيامة الأموات، بل بصبرٍ في العمل الصالح، ننتظر أن يأتي الرب والمخلص ويجدد النظام الكوني.

كيف رفع الرب لعنة الموت؟ وكيف لا نزال نموت ونُدفن؟

١٧- ما معنى كلمة "لعنة"؟ حسب كلمات الروح القدس في الأسفار الإلهية، اللعنة هي ما يرفض الله أن يعطي له البقاء والكثرة، أي الزيادة حسب كلمات المزمور (١٠٩: ١٨). وقيامة الرب بجسده الذي أخذه من العذراء القديسة مريم، والذي مُجِّدَ بقوة القيامة تؤكد لنا أن اللعنة قد رُفِعَت، بل أُبيدت تماماً؛ لأن الرب يسوع وعدنا بالقيامة، فكيف نقوم إذا كانت لعنة الموت باقية؟

١٨- لقد حوَّل الربُ الموتَ، وهو ثمرة الخطية، وجدَّده عندما غيَّره من قوة فناء وانحلال إلى قوةٍ تخدم تجديد الخليقة؛ لأن انحلال القديم، هو ميلادٌ للجديد. ولذلك نحن لا نموت كما يموت غير المؤمنين، بل نموت في الرب ونرقد في الرب، أي أن موتنا يُحسب لنا خلاصاً، أمَّا موت الأشرار فهو دينونة.

والمسيحي يموت مرةً واحدة عندما يُصلب ويُدفن مع المسيح، ولا حظ أن الرسول لم يقل إن المسيح يُدفن معنا، بل نحن «دُفنا فيه ومعه وبه».

فيه؛ لأنه أخذ طبيعتنا.

ومعه؛ لأنه البكر وباكورة الراقدين، ونحن سوف نتبعه.

وبه؛ لأنه أباد قوة القبر.

ثبّت الإخوة لكي لا يقعوا ضحية حزن العالم، ولكي لا يبكوا على الراقدين مثل غير المؤمنين، أو يقيموا مناحةً على الموتى من أجل إعلان يأسهم من رحمة الرب. ومن يبكِ متوجعاً، ليس كمن يبكِ يأساً وخوفاً؛ لأننا نفتقد الإخوة والأخوات الأحباء الذين رقدوا. ونحن نبكي أحياناً، ولكننا نتعزّى بالإيمان بأنهم مع الرب.

وهكذا نحن نموت ونُدفن مع الرب، ولكن تبقى حياته فينا؛ لأنه على الصليب كان الميت الحي، وفي القبر كان راقداً لكي يحطّم الهاوية التي نزلت إليها نفسه الإنسانية متّحدةً بلاهوته، نزلت بقوة اتحادها باللاهوت، أي دخل الرب الجحيم بقوته معلِناً نهاية قوة الجحيم. كان الرب في الهاوية حسب كلمات المزمور (١٣٩: ٨)، ولكنه الآن يدخل الهاوية بنفسه الإنسانية، دخلها لكي يبيد قوة الجحيم، ولكي يُخرج الأسرى من الظلمات، ويفتح لهم باب الفردوس.

١٩- هناك فرقٌ بين أن يكون الرب في الهاوية بقوة إلوهيته، وأن يكون في الهاوية بنفسه الإنسانية؛ لأن قوة الابن كخالق ليست هي موضوع السؤال، ولكن وجود الرب بنفسه الإنسانية المتحدة بأُقنومه الإلهي هي التي تحرك فينا الحمد والتمجيد؛ لأنه لم يترك مكاناً إلّا وأعلن فيه الخلاص: في السماء من فوق، وعلى الأرض من تحت، وفي الهاوية أيضاً، لكنه نزل لكي يعطي المؤمنين قوة الاقتحام الذي أكمله، ولكي يغلق ”فم الهاوية“ إلى الأبد. أمّا قوة الاقتحام، فهي في نفس كل من نال سر المعمودية؛ لأننا ”دُفنا معه“، ولأنه ”سبى الجحيم“، وبذلك صار لنفوسنا ذات القوة القادرة على أن تسبي ”كل فكر إلى طاعة المسيح“ (٢كور ١٠: ١٥)، وأن تحول كل قوة أخرى إلى ”الأسر“ الذي أعطاه لنا الرب بموته المحيي.

لماذا يتأخّر التجديد إلى اليوم الأخير؟

٢٠- حسبما أشرنا من قبل، تظل الحياة تعمل في الموت إلى يوم القيامة العامة، وهو اليوم الذي سوف يُعلن فيه كل ما كان ”خفياً“ ومستتراً عن عيوننا، وهو كائنٌ معنا ولكننا لا نراه، وإنما نحسه بالإيمان، أي برؤيةٍ داخلية إلى اليوم الذي عيّنه الرب لكي يعتق فيه الكل مجدداً الكل وهو آخر ”مراحل“ التدبير.

كيف نعالج عودتنا إلى خطيةٍ معينةٍ؟ وهل التأديب نافع؟

٢١- كما ذكرنا من قبل، العودةُ إلى خطيةٍ معينةٍ هي ضعف في محبتنا لله، والضعف لا يعالج بالتأديب، أي التأديب الذي يجعل كل مَن يقبله "حقيراً" في عيني نفسه؛ لأن هذا هو أول الدرجات الهابطة إلى بئر "صغر النفس". نحن نحتاج إلى محبة وحكمة المسيح الذي قيل عنه إنه لم يطفئ "فتيلةً مدخّنةً»، ولم يكسر عوداً يكاد أن ينشط، بل هو المعلم والمعزّي الذي يترك الـــ ٩٩ ويذهب إلى الواحد الضال.

مَن لا يعرف ذلك، لا يجب أن يؤتَمَن على خدمة المحتاجين إلى التعليم؛ لأننا لو قلنا: "خدمة الخطاة"، فهذا يشملني ويشملك ويشمل الدير كله؛ لأننا جميعاً خطاة، ولا يوجد خاطئ أكبر وخاطئ أصغر، نحن جميعاً "عبيد بطّالون"؛ لأننا خوفاً من العقاب وطمعاً في كسبٍ، نتوب، وهو ما يجعل توبتنا ناقصةً نار المحبة، ولكن الله الصالح والرحيم لا يرفض هذه التوبة.

والتأديب ينفع الذين لهم أشواقٌ عالية، أمّا الذين ضربهم اليأس والخوف وسقطوا في "صِغَر القلب"، فهؤلاء يموتون روحياً، وفي بطءٍ شديد، إذا وضعنا عليهم تأديبات. كذلك يحرّك التأديب متواضع القلب، طالباً الخلاص من الله. أمّا الذي سقط عدة مرات ولم يتُب، فإن ضعف تواضعه يقوده إلى العصيان والتمرّد.

ولا يجب أن نخلط بين التأديب والعقوبة؛ لأن الأول هو دواءٌ ينفع مع البعض. أمّا الثانية فهي تجلب الأوجاع وتزيد من المرض. والتأديب لا يكون من أجل مكسبٍ للأب، أو من أجل منفعة وقتية، ولا يقوم على المنع والنهي، بل مَن لا يعرفُ التواضع، يُلزم بخدمةٍ تعلّمه التواضع، مثل الأب البطريرك الذي طلب

الشفاء من الشهوة الجنسية، فكان تأديبه هو تنظيف قلالي الشيوخ، وكان تأديب يوحنا القصير هو سقي عود شجرة يابس، وكان تأديب مرقس هو الاهتمام بطاحونة الدير وإعداد الخبز، وذلك حتى تنمو محبته للإخوة وتموت فيه لذة الهجوم على الذين يختلفون معه في الرأي.

وتأديب مَن يُسرع إلى سلاح الغضب، هو الأعمال الجسدانية مثل الزراعة وري الأرض وتوزيع المياه (مياة الشُرب) على قلالي المتوحّدين. هذه كلها وأمثالها ليست عقوبات، بل أعمال نافعة تُعطي للإخوة - الذين يعانون من ضعفاتٍ معينة - مكانةً في الشركة كخدام نافعين، وليس كأعضاء ميتة أو ضعيفة أو ناقصة.

لقد أدّب الأب ديونيسيوس، الأخ أرميا الذي يحسن القراءة بأن يمر على قلالي الإخوة الذين لم يتعلموا القراءة الجيدة لكي يدرّبهم على حُسن القراءة باللفظ اليوناني، وهو ما جعله ينمو معنا كخادم أمين. وعندما شكوت للأب دانيال كثرة انشغالي بالإخوة المبتدئين، طلب مني أنً أنسخ له رسائل القديس أنطونيوس، وأن أُشرف على المطبخ. ولما جاء عندنا الأخ مينا الذي اتُهم بقتل طفلٍ في المدرسة، ولم تثبُت عليه الجريمة، أعطاه الأب ديونيسيوس خدمة تنظيف الكنّيسة وترتيب الخدمات وتوزيع أنصبة الآباء المعتكفين، وبعد ثلاث سنوات عاد إلى خدمة تعليم الأطفال.

هذه نماذج من التأديبات التي عرفتها أو سمعت عنها، وهي كلها من أجل تأكيد المحبة والاحتفاظ بخدمة الإخوة وعدم قتل كرامتهم؛ لأننا عندما ننزع كرامة مَن يسقط، إنما نلقي بهم في بئر "صِغَر القلب"، وبذلك نُطوّح بهم في لجة الشك والعصيان وفقدان (الهدف)، أي غاية الوجود؛ لأننا في المسيح ننال كرامة البنوة، ويعاملنا الآب السماوي كأبناء له، ويعطي لنا الآب السماوي كرامة البنين، لأن الآباء الرسل عندما سمعوا: "لا أعود أسميكم بعدُ عبيداً"، كانوا - من فم الابن الوحيد - قد نالوا كرامة البنين، ومع ذلك فقد جحد بطرس وأنكر بعد أن عاين المعجزات وتجلّي الرب على جبل طابور، وهرب الباقون ليلة القبض عليه في البستان، ومع ذلك لم يعاتِب الرب أياً منهم، ولا وبّخ حتى توما، بل قال

له – بحنانٍ شديد – ''لأنك رأيتني يا توما آمنت'' (يو ٢٠: ٢٩)، وكأنه يذكّره بما رآه من قبل بمعجزة إقامة لعازر وغيرها. والآن جاء الرب في اليوم الثامن، يوم قيامته، وربما خصيصاً لأجل توما.

لذلك، ليكن لنا وداعة المسيح وحلمه، وأن نعطي الدواء الذي يشفي لا السكين الذي يقطع ويبتُر، مع أن الدواء هو حسب حكمة وتقدير الأب الروحي، إلّا أن الأب الروحي خاضع لحكمة الإنجيل، ويعمل حسب تعليم الرب محب الخطاة، وكأبٍ يضع أمام عينيه أن ''المُعترف'' هو ''وريثٌ'' معه في نفس الملكوت، ويقف معه على قدم المساواة كابنٍ للآب، وأخٍ للأخ البِكر ربنا يسوع المسيح.

٢٢– أمّا العودةُ إلى خطيةٍ معينة، فليس لدينا قانون ولا تعليم يمكن أن نقدّمه، ولذلك أكتب لكم – دون أيِّ تخصيص – إن المأسور لخطيةٍ معينة، قد لا يحتاجُ إلى تأديب كنسي، وإنما قد يحتاجُ إلى تعزية وإلى تعليم قوي عن محبة الله للخطاة، وإلى ما يعيد إليه كرامته؛ لأن استصغار الإنسان لنفسه يدفعه للسقوط، وعدم إدراك كرامة ومجد البنوة. وقد لا يمكن علاجه بالتأديب، بل بالصلاة والتعليم. وحسنٌ أن ينقل الأب الروحي ابنه – بالتعليم – إلى تأمُّل السماويات والهذيذ في حياة الرب يسوع نفسه لكي تقوى شركته في الرب، ويجد عزاءاً في الرب.

عموماً – دون تخصيص – علاج السقطات المتكررة في خطية معينة لا يعالَج إلّا بحكمة الإنجيل، وحفظ كرامة المعترف وحثّه على الإقبال على دراسة الأسفار والتفوق في خدمةٍ معينة تردُّ إليه كرامته لكي يعيد النظر في سلوكه، ولكي تقوى إرادته. لكن هذا كله هو سياج لفردوس النعمة، أمّا الفردوس نفسه فهو غرس الرب وفلاحة الروح القدس. الرب يسوع المسيح يعطي لنا أن نعبر بحر هذا العالم في هدوءٍ وسلام.

ماذا يحدث لنعمة المعمودية، إذا عُدنا للخطية واستهان الإنسان بكرامة البنوة؟

٢٣- المعمودية "ختمٌ لا ينحل"، ولذلك تُعطى مرةً واحدة؛ لأننا نولد مرة واحدة من الآب بابنه يسوع المسيح وبنعمة الروح القدس.

ونحن لا نعيد معمودية المرتدِّين، بل نقبل توبتهم. ولا نعيد المعمودية بالمرة للذين نالوا هذا السر في الكنيسة الجامعة. يقول الرسول: إن النعمة ليست مثل الخطية، ولا الهبة مثل السقوط، ولا يمكن مقارنة آدم الأول بآدم الأخير الرب يسوع المسيح. وقد لخَّص الرسول التعليم كله في عبارة واحدة وهي أن "عطية الله بلا ندامة" (رو ١١: ٢٩)؛ لأن الرب يسوع لا يندم على ما أعطاه لنا من عطايا مثل المغفرة، وميراث الملكوت، وسُكنى الروح القدس، والشركة في جسده الإلهي ودمه الكريم.

وإذا عاد الإنسان إلى سيرته الأولى وارتد، فإن خطاياه الأولى لا تُحسب عليه؛ لأننا عندما نسمع قول الرسول إننا سوف نعطي حساباً (رو ١٤: ١٢، ١بط ٤: ٥)، فإن تعليم الآباء الرسل مُلخَّصٌ في عبارةٍ واحدة: "كرحمتك يا رب وليس كخطايانا" (القداس الإلهي). وعندما يتوب المرتد، فإن خطاياه لا تُحسب عليه؛ لأن نعمة غفران الخطايا تمحو كل ما سبق، ولذلك يقول الرسول عن الأُمم - بشكل عام - إن الله لم يحسب لهم خطاياهم السابقة (رو ٣: ٢٥) كمانع يمنع عنهم نعمة (الإنجيل) وبشارة الخلاص. والذين يأتون إلى المعمودية، لا يأتون كأبرار وقدِّيسين، بل كخطاة وينالون غفران خطاياهم. والرب لا يحسب لنا خطايانا السابقة بالمرة، أي تلك التي غُفِرت، والحساب ليس على أعداد وكمية

الخطايا، بل على سلوك المحبة. ولذلك، الحساب على الأعمال موجز في كلمة واحدة: "حسب أعماله"، أي الغاية التي كنا نسعى إليها، والخدمة التي اخترناها لكي نقدمها للرب وللإخوة والبشر جميعاً؛ لأن أعمال المحبة لها هدف واحد، وهو «المحبة»، ولذلك قال الرب كنت جوعاناً، وعطشاناً ومريضاً ومسجوناً، وهو كل هؤلاء؛ لأن كل هؤلاء هم إخوته بسبب تجسُّده.

٢٤- أمَّا الاستهانة بكرامة البنوة، فهي أولاً مثل خطية عيسو الذي باع "البكورية" بأكلة عدس، والتي وصفها الرسول بأنها "استباحة" (عب ١٢: ١٦)؛ لأن إزالة الفوارق بين الخير والشر، والمقدَّس والنجس، والسمائي والأرضي تهدم الحياة الداخلية، وتقوِّض الفوارق بين ما هو كريم وصالح وما هو غير لائقٍ ويحط من كرامة وقدر الإنسان.

تأمَّل ماذا يحدث لو أن إنساناً عاش في قصرٍ ملوكي، أو مثل الابن الشاطر (الضال) الذي بعد كرامته في بيت أبيه، صار يأكل مع الخنازير، لكنه عندما عاد ردَّه أبوه إلى كرامته الأولى، أمَّا الذي لا يعود إلى سيرة محبته الأولى، فإن الإنذار والتهديد لا يخلِّصه، بل أحياناً يقود إلى النفاق وإلى التستر حتى لا تنكشف خطاياه.

٢٥- لا يعرف "المستبيح" ولا يحس بالأمور السمائية، ولا بالفرق بين الخالق والمخلوق؛ لأنه لا يدرك أن له قلباً مملوءاً بأشواقٍ طبيعية غير تلك التي يضعها الروح القدس في القلب؛ لأن الأولى هي عطش الطبيعة المخلوقة لخالقها، أمَّا الثانية فهي شوق الخالق للمخلوق، ذلك الشوق وتلك المحبة الجارفة التي تجعل الله يقبل أن يتجسَّد، وأن يصير كواحدٍ منا ويحيا بيننا.

الإيمان يلد المحبة، والمحبة تروي الإيمان. وبالإيمان - بالمحبة وباستنارة الروح القدس الذي ينير إدراك الإنسان - تنمو المعرفة وتثمر، لكن المعرفة تفتح إدراك الإنسان وتحرر الإرادة والقلب من سطوة الجهل، أمَّا هبة الحياة الجديدة، فهي تأتي من الله الذي يعطينا حياة ابنه، ومسحته لكي نرث معه وبه الملكوت الذي لا يفنى.

٢٦- يحتاج "المستبيح" إلى معلِّم كنسي مدَرَّب في طريق الرب لكي ينيره

بكلمة التعليم، ويفتح له باب الحياة الأبدية، ويقوده إلى ينبوع مياه الحياة، الروح القدس.

ما هو الاعتقاد المستقيم «الأرثوذكسي» عن نزول الرب إلى الجحيم؟

٢٧- حسناً نعترف أن الرب سبى الجحيمَ سبياً، وأباد قوتَها عندما مات على الصليب. إن إيماننا الأرثوذكسي ليس هو إيمان العامة من الناس الذين عندما يسمعون كلمات الوحي المقدّس عن السماء من فوق، والأرض من تحت، والهاوية تحت الأرض، يظنون أن الأرواح أو نفوس الناس تنزل في حفرة مظلمة تحت الأرض. ولكن لا يوجد في سفر الخليقة الأولى (سفر التكوين) أيةُ إشارةٍ إلى "الجحيم" كمكان خلقه الله لكي يسجن فيه أرواح البشر. ولذلك، فالقبر هو الهاوية، والهاوية هي الجحيم. وعندما اعتقد آباؤنا القدماء أن الهاوية هي العالم السفلي الغربي، حيث الظلمة، سكن الرهبان في غرب النيل إيماناً منهم بأن الكون كله هو إعلان عن صلاح الله ومحبته، وإن الشاطئ الغربي والصحراء هي الإسقيط أو شيهيت، وليست مكان سجن أرواح الناس.

و"تحت الأرض" هو تعبيرٌ دقيق يؤكد لنا أن الذين يغادرون هذه الحياة ويفارقون الجسد، إنما يذهبون - وتحت لعنة الموت - إلى ما هو خارج النظام الكوني الذي خلقه الله، أي مثل النفاية أو مكان تجميع الأشياء غير النافعة، وهو مكان لا وجود له في خليقة الله، تماماً كما لا يوجد في كل قرية أو مدينة مكانٌ تجمع فيه القمامة، خلقه الله، وإنما خلقه الإنسان عندما رتّب حياته ووجوده على هذا النظام الذي خلقه لكي يواجه احتياجاته ومطالب الحياة.

ولأنه لا يوجد نصٌّ واضحٌ في الأسفار المقدسة يصرّح بأن الله خلق الجحيم، استطعنا أن ندرك من تعليم الكنيسة الجامعة أن الرب نزل إلى الجحيم عندما صُلِبَ لكي يبدد ما جمّعه الإنسان لنفسه، ولكي يرد هؤلاء الذين كانوا أسرى لعنة الموت إلى الحياة ويدخلهم إلى الفردوس.

وحتى عندما نسمع عن الفردوس، فإن الفردوس ليس مكاناً خلقه الله؛ لأنه لا يوجد في النظام الكوني في الأيام الستة الأولى، مكاناً اسمه الفردوس، ولا يجب أن يختلط هذا بما دوَّنه سفر الخليقة الأولى عن "جنة عدن"؛ لأنها مكان خلق آدم الأول. أمَّا الفردوس، فقد سمعنا به لأول مرة من فم الرب يسوع عندما بشَّر اللص اليمين، وقال له: "اليوم تكون معي في الفردوس"، مؤكداً أن لعنة الموت سوف تباد بقوته، وإنه سوف يحمل معه اللص، أي نفسه الإنسانية إلى راحةٍ وعزاءٍ وسلام في الكون؛ لأنه سيرد له الحياة، وسوف يكون في انتظاره عندما يموت؛ لأن الرب يسوع مات قبل اللص، ولأنه مثل الملائكة والقوات السمائية سوف يجد نفسه مع ابن الله في تسبيح وتمجيد مع القوات السماوية، وهو ما يسمى عند العامة "السماء"، أي السماء من فوق. وهي ليست من فوق ولا في أي بُعد من أبعاد الحياة المادية المنظورة، بل "فوق" تعني ما يعلو على إدراك الحواس الجسدانية؛ لأننا عندما نسمع الرب يقول: "المولود من فوق ..." (يو ٣: ٣)، فهو لا يقصد مكاناً يعلو على الأرض، بل كما ذكر نفس الإنجيل "من الله".

ومع أننا نحتاج إلى أن نذكِّر عامة الناس بهذه الحقائق، إلَّا أنه يجب أن نترك السُّذج حسب تصوراتهم حتى لا يفقدوا سلامهم المبني على تصورات عقلية ليس لها وجود في التعليم المستقيم (الأرثوذكسي)، ولذلك يجب نقل هؤلاء تدريجياً من تصوُّر الأبعاد المنظورة إلى تصوُّرٍ بلا أبعاد، وهذا يمكن بواسطة التعليم الذي ينقل فكر الإنسان إلى ما هو فوق، أي ما يعلو على الحواس.

٢٨- أُكرر ما سبق وذكرته، إننا لا نؤمن بأن الله خلق مكاناً لتعذيب البشر؛ لأنه لا يوجد نصٌّ واحد في كل الأسفار يدعونا إلى هذا الاعتقاد الذي لا يتفق مع صلاح الله، ولا مع ما يتصوَّره العامة من الناس عن عدل الله الذي خلق مكاناً لراحة المؤمنين، وسجناً لعذاب الأشرار؛ لأن هذا تصوُّر مادي مبني على ما تعرفه المدن والحضارة التي لا تضع في اعتبارها أن القصر والسجن لا يعبِّر بالمرة عن عدل الله، وإن القاضي والقانون والسجَّان لا ينطبق على السماء، وإنما هو تصوُّر أرضي لا يخدم بشارة الإنجيل.

وحتى عندما نسمع في سفر الرؤيا عن بحيرة النار والكبريت (رؤ ١٩: ٢٠)، وغيرها من صور مادية، فلأننا نعرف أن الشيطان ذو طبيعة روحانية مظلمة لا تؤثر فيها النار المادية، أي تلك التي تشتعل في الأشياء وتحرق ما هو منظور، فلذلك السبب – أي أن للقوات الشريرة طبيعة غير مادية – فرضَ علينا الإيمان بطبيعة الشيطان أن نقول إنها استعارة وتشبيه يقرِّب لنا حقيقة حالة القوات الشريرة والأشرار عندما يبتعدون عن الله.

وعندما تذكر الأناجيل "جهنم"، فإنها تؤكد لنا أن ذلك هو تصوُّر قلب الإنسان الفاسد بشهوات وغرور الخطية؛ لأنه بسبب التعدِّي وبسبب الابتعاد عن الشركة، أظلم فيه الإدراك الروحي وصار يتصور الله كما يتصور القساة والعتاة من البشر، ولكن الله غير ذلك؛ لأن الإنسان الذي يُفسد حياته يضع نفسه بعيداً عن صلاح الله ولا يرى إلَّا الظلمة والشر الذي فيه، أمَّا نحن الذين استنارت قلوبنا بنور الإنجيل، فإننا "سنراه كما هو" (١ يو ٣: ٢). وعندما نراه، سوف نرى مجده، ونتغيَّر إلى ذات صورة الابن المجيدة.

مِن هذا نعرف أن رؤية الأبرار بنور المحبة، ليست مثل رؤية الأشرار بظلمة الخطية. أمَّا كيف يبقى الأشرار مثل "النفاية" بعيداً عن السماء الجديدة والأرض الجديدة، فهذا ما لا نعرفه؛ لأنه لم يحدث بعد، ولأنه محفوظ لنا في يسوع المسيح ربنا.

٢٩– لكننا يجب أن ندرك أنه يوجد يوم للدينونة، وإن الأبرار لهم ميراث الملكوت، والأشرار لهم "الظلمة الخارجية" كما قال الرب. ولكن يجب أن نفهم هذه الأمور على قدر ما تؤكده الأسفار المقدسة، وليس حسب إدراكنا البشري فقط.

أمَّا ما هو ضروري لنا في هذه الأيام، فهو أن نحفظ الإيمان ونسلك حسب القداسة حاملين صليب ربنا يسوع المسيح، وأن نسأل الروح القدس لكي ينير بصائرنا ونكشف ما في قلوبنا للآباء الذين لهم خبرة وعرفوا أسرار الإنجيل.

هل يوجد فرق بين تعليم الرب عن عدل الله، وتعليم الموحّدين؟

٣٠- نعم؛ لأننا لا نؤمن بإله واحد خالق السماء والأرض فقط، بل نؤمن أيضاً بأنه أرسل ابنه الوحيد لأجلنا لكي يخلصنا. فهو خالقٌ ومخلِّصٌ معاً، وهو نفسه الرب الواحد الثالوث القدوس، الواحد بالجوهر المثلث بالأقانيم. وقد يبدو لك أن جواب السؤال على هذا النحو هو محاولة للهروب منه، ولكن الحقيقة هي غير ذلك. هل تذكر أناسطاسيوس الفلاح الحكيم من قرية تاهو ⲧⲁϩⲟ الذي كان يحب الأب ديونيسيوس، ويحضر خصيصاً للدير لكي يبحث معه دعوى الموحّدين وضلالة الأخ زينون الذي ترك طريق الرب؟ لقد تكلم الأب ديونيسيوس في اجتماعنا معه بعد عيد القيامة المجيد وفي حضور زينون وبعض رؤساء الموحّدين عن عدل الله وقال لهم: إن الإيمان بالثالوث يكشف لنا عن عدل الله. أمّا الإيمان بإله واحد، فإنه يخلق لكم مشاكل كثيرة عن عدل الله ورحمته ومحبته. ولأن الكتاب الذي جمعه الأب حزقيال عن هذا الحوار لديَّ، فقد نقلت منه عدة فقرات، وأضفت إليه ما رأيته ضرورياً لك وللإخوة.

٣١- نحن لا نبحث في صفات الله، ومِن ثمَّ نطبِّق بعد ذلك ما نبحثه على أقانيم الثالوث. نحن لا نبدأ بمنطق وفكر الإنسان غير المستنير، ثم نتقدَّم بعد ذلك إلى قدس الأقداس، أي الثالوث القدوس؛ لأننا إذا فعلنا ذلك؛ وقعنا في أخطاءٍ لا علاج لها إلّا بالعودة إلى الإيمان. وحسب التسليم الرسولي الذي شرحه آباء الكنيسة الجامعة، والذي سبق أن شرحناه لكم في عدة فصول، نؤكد لكم الحقائق التالية:

أولاً: أقانيم الثالوث ليست أقانيماً تُضاف إلى جوهر الله، بل هي أقانيم الجوهر الواحد. والجوهر الواحد ليس صفاتٍ مجردة تندرج تحت مضمون واحد هو الجوهر، بل الجوهر الواحد هو الطبيعة الإلهية التي تعلو على كل تحديد بشري، وهي الحياة الإلهية الواحدة التي في أقنوم الآب، والتي وُلِدَ منها أقنوم الابن أزلياً ومنها أيضاً انبثق الروح القدس. وحسب هذا الإيمان، كل ما هو للآب، هو للابن وهو أيضاً للروح القدس. ولذلك كل الصفات الإلهية مثل المحبة والقداسة والقوة والعدل، هي صفات إلهية لكل أقانيم الثالوث.

ثانياً: كل ما في جوهر الله هو متأقنم، فليست صفات الله هي صفات غير أقنومية تضاف للآب والابن والروح القدس، بل المحبة هي محبة الآب، وهي ذات محبة الابن، وهي ذات محبة الروح القدس. وعندما نسمع أن «الله محبة»، فهذا يعني أنها محبة الثالوث. وعندما نسمع عن بر الله وعدله في الأسفار، فهو بر أقنوم الآب وبر أقنوم الابن وبر أقنوم الروح القدس، ثالوث واحد في الجوهر، وجوهر واحد للثالوث.

فما هو عدل الله حسب تعليم الكنيسة الجامعة عن الثالوث؟

٣٢- إنه ليس عدل الملوك والقضاة والقانون الأرضي. ولذلك، المجازاة حسب عدل الله إنما هي مجازاةٌ حسب المحبة، وحسب اغتراب الإنسان أولاً عن نفسه، وثانياً عن المحبة الإلهية، وهي أصعب بكثير وأدق من تعليم الموحّدين الذي يحدد عدل الله بما لديهم من شرائع هي في جملتها لا تختلف عن شرائع الأُمم السابقة أو شريعة الرومان (الإمبراطورية الرومانية)؛ لأن لكل خطيةٍ عقاب أرضي، ولكل الخطايا عقاب واحد هو نار جهنم.

هذه هي دائرة العدل حسب تعليم الموحّدين. أمّا نحن، فإن عدل الله هو سؤالٌ للإنسان عن صورة الله ومثاله الذي أُعطي له، والذي جُدّد في المسيح، وقُدّس بالروح القدس. فهو سؤال عن كينونة الإنسان، وماذا فعل الإنسان بكيانه، وكيف عاش كصورةٍ لله؟ هذا يضع عدل الإنجيل في مستوى يختلف تماماً عن عدل الموحّدين.

٣٣- لماذا نقول إن المجازة هي حسب المحبة؟

أولاً: لأن محبة الله للخطاة ظاهرةٌ في بشارة الحياة (إنجيل الحياة)؛ لأن الله أحب العالم بشكل يفوق كل إدراك، وضعه الرسول في عبارة موجزة: "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد" (يو ٣: ١٦). هذه المحبة تعلو على كل صور وأشكال ورموز المحبة في العالم المنظور وغير المنظور. فكيف يجازي الله بعد ذلك بحسب قوانين وشرائع أرضية لا تحوي إعلاناً عن محبة الله؟!

أنت تعرف أن زينون تعثَّر في هذا السؤال، وعجز عن أن يجيب عليه. ولكن حسب محبة الله المعلَنة في الابن الوحيد نقول إن العدل الإلهي هو عدل الثالوث الواحد، عدل المخلِّص الذي مات لأجلنا وأحيانا فيه وأعطانا ميراث الملكوت. هذا يجعل الدينونة حسب الشركة وليس حسب الشريعة، ويجعل المجازاة ليس حسب تقدُّم الإنسان وفضائله أو سقوطه وتوبته، بل حسب تمسُّكه بالإيمان، وحسب نموه الروحي في يسوع المسيح رب الخطاة وطبيب الساقطين.

ثانياً: إن اغتراب الإنسان عن الله يسبقه اغتراب الإنسان عن نفسه، عن كيانه الحقيقي، وهو ما تزرعه الخطايا فينا. وعلى سبيل المثال: مَن يقتل، يتعلم القدرة على تدمير الحياة، أي حياة أخيه، وعندما يقول الوحي: "إن من يبغض أخاه فهو قاتل نفس" (١ يو ٣: ١٥)، فهو لا يذكر القتل بالسيف، وإنما قتل الأخ بسلاح البغضة غير المنظور الذي لا يملك القانون أن يُحاسِب عليه، بل يكشف عنه تعليم الإنجيل الذي يرد كل خطايا الإنسان، لا إلى الأفعال الظاهرة، بل إلى القلب. وعندما يغترب الإنسان عن كيانه، فهو اغترابٌ لا يمكن فحصه حسب الشريعة، بل حسب شركة هذا الإنسان في الحياة الإلهية، وحسب نوع الفساد الذي تسرَّب إلى كيانه. هل تذكر صرخة زينون الذي ارتعب وقال بصوتٍ عالٍ: "هذه دينونةٌ أصعب". وظل صامتاً؛ لأنه لم يدرك — عندما ترك شريعة الإنجيل — أن الرب يسوع المسيح مات عن الخطاة، وأحيانا معه حسب عبارة الرسول في (كولوسي ٢: ١٣)، وإن الدينونة هي حسب الحياة وليست حسب حرف أو نصوص الشريعة.

٣٤- فإذا كان عدل الآب هو عدل الابن، وهو عدل الروح القدس، فهل هو عدل محبة الآب ومحبة الابن ومحبة الروح القدس، حسبما ذكرتم في رسالتكم؟

صعبٌ علينا أن نتصوَّر عدل المحبة، وسهلٌ علينا أن نتصوَّر العدل وحده، والمحبة وحدها. وتصوُّر العدل وحده والمحبة وحدها هو تصوُّرٌ ساذجٌ لا يخص الإيمان؛ لأنه لا يوجد أقنوم ينفرد بصفةٍ لا وجود لها في الأقنوم أو الأقنومين الآخرين من أقانيم الثالوث. وهكذا يجب علينا أن نسأل: ما هو عدل المحبة؟

أولاً: إن مكافأة الشر بشرٍ مثله ليس من وصايا الإنجيل؛ لأن الذي قال: «سمعتم أنه قيل للقدماء عينٌ بعينٍ ...»، قال عكس ما وضعه علماء الشريعة من اليهود. وضمَّن الصلاة نفسها غفران الإساءة: ''واغفر لنا ما علينا» (الصلاة الربانية)، وهذا يكفي تماماً لأن يجعل عدل الله ليس مثل عدل الشريعة، أو عدل قضاة الأرض.

ثانياً: لقد كان للقاتل الذي قتل بدون إصرار، حق اللجوء إلى «مدن الملجأ»؛ لأنه لم يقتل عن غضب أو عن كراهية، ولذلك - رغم أنه دمَّر حياةً - إلَّا أن الشريعة سمحت له بالحياة وأعطت له حق اللجوء. فإذا كانت الشريعة تعلو على قضاء الأمم، وتترك للقاتل فرصة الحياة، فماذا نقول عن شريعة ''الميل الثاني''، وهو شذرة من صلاح الله وطول أناته (رو ٢: ٤) الذي يقودنا إلى التوبة.

فما هو إذن عدل المحبة؟ ما هو عدل من أرسل ابنه الوحيد؟ وما هو عدل من مات على الصليب؟ ما هو عدل الروح القدس الذي يسكن فينا؟ هذه هي الأسئلة التي يجب أن نتكلم عنها حسبما ننال نعمةً من فوق؛ لأن عدل مَن أرسل ابنه، أي عدل الآب هو أن يردَّنا إليه نحن الذين كنّا في كورة الموت وظلاله، فقد ''أشرق علينا نور'' (متى ٤: ١٦). وعدل مَن مات عنا هو أن يعطي الفردوس للص اليمين وأن يغفر لصالبيه. وعدل الروح القدس هو عدل مَن يشفع فينا بأناتٍ لا ينطق بها (رو ٨: ٢٦)، وهو عدل مَن يعاني من سكناه فينا حسب تحذير الرسول: «لا تطفئوا الروح ....'' (١ تسا ٥: ١٩)؛ لأن الروح، نار المحبة، يعاني من برودة القلب. ألا ترى من كل ذلك أن عدل المحبة هو أعلى وأعظم من كل صور العدل التي نعرفها؟

٣٥- لا يجب أن نحدد أو نحسب صفات الله دون وضعها وحصرها في إطار تدبير الخلاص المعلَن في الأسفار، وحسب تعليم الآباء القديسين، بل لنتكلم باستقامةٍ عن الله.

وهكذا، إذا وضعنا عدل الله المثلث في إطار التدبير، استطعنا أن نرى بوضوحٍ أنه ليس فقط عدل محبة الثالوث، بل عدل قداسة الله وصلاحه ورحمته للبشر.

وهو عدلٌ يخضع لما يريده الله، وليس عدلُ يملي على الله أن يتصرف مثل القضاة. ولأننا ذكرنا قبلاً أن الثالوث ليس أقانيم تضاف إلى الجوهر، بل هم معاً جوهر واحد، وحياة واحدة، أُكرر - بكل استقامة أرثوذكسية - إن الله ليس له طبيعة تسود عليه، وتقرر له ما يجب وما لا يجب؛ لأن هذا خاصٌ بنا نحن البشر، بل الطبيعة والأقنوم هما معاً حقيقة واحدة. نحن نولد بطبيعة لا نملك أن نغيِّرها، بل نسمو بها في حدود، وهذا لا يخص الله بالمرة. لذلك من الخطأ أن نتصور أنه توجد طبيعة تعارض الأقنوم، أو تفرض عليه تصرفاً وسلوكاً معيناً.

العدل وإخلاء الابن لذاته (فيلبي ٢: ٦ وما بعده)

٣٦- مَن الذي فرض على الابن الوحيد رب المجد أن يخلي ذاته ويأخذ صورة العبد؟ هل هو العدل، أم الصلاح، أم المحبة؟ لقد فصلنا صفات الله بهذا السؤال، وبذلك وقعنا في بئر وتعليم الموحِّدين الناقص الذي لا ماء فيه.

لقد تطوع الابن بسبب محبته للآب أن يقبل صورة العبد، وأن يأخذ ما هو ضد طبيعته، أي الطبيعة الإنسانية المحدودة، فهل صار الابن محدوداً بالجسد؟ الجواب: لا. إذن كيف أخلى ذاته وخضع - كأقنوم - لطبيعةٍ ليست هي طبيعته؟ والجواب هو في كلمات الرب يسوع، فهو لم يفقد حرية اختياره، بل فعل ذلك حراً وجاز كل مراحل التدبير حسب اختياره. مات بحريته، وقبل ذلك أسلم جسده بسلطانه وحسب محبته وبإرادته وحده حسب كلمات التقوى (قداس مار مرقس).

هنا يجب أن يكف العقل عن بحث الأسئلة خارج حدود التدبير، بل عليه أن يدخل أعماق التدبير لكي يرى عدل إخلاء الذات في يسوع المسيح ربنا. وماذا نقول عن الابن وهو يجوز حياة العبد، والعبد في اتحاده وتأقنمه بالابن يجوز جبل طابور ويأتي بالموتى من نفاية الكون إلى الحياة، وبالابن وهو يرى جسده على الصليب ونفسه معلقة بمحبة نارية جعلت الكون كله يتزلزل. هذه أمورٌ لا تخضع للبحث الفلسفي، بل يجب أن تُترك لمبادئ التدبير، وهي حسبما نعرفها:

<u>أولاً</u>: إن كل ما فعله الرب كان لتقدُّمنا وخيرنا.

ثانياً: عندما أخلى ذاته، ظلّ الرب الواحد والإله المتجسّد؛ لأنه لم يكن مرةً إلهاً، وفي مناسباتٍ أخرى إنساناً، فهذا ضد الاتحاد الذي لا يقبل الانقسام.

ثالثاً: في موته المحيي، ذاق الموت بالجسد لكي يبيده في كيانه، أي سمح للموت أن يقترب منه لكي يلاشيه.

رابعاً: أباد الجحيم بقوة لاهوته، ولكن بواسطة نفسه الإنسانية التي أشرقت في ظلمات الجحيم مثل البرق، وهدمت كل قوات الظلمة.

ولم يفعل الرب بالعدل وحده أو بالمحبة وحدها، بل بعدل إخلاء الذات الذي يعلو على كل تصوُّرات العقل. إنني اعلم أنني لم أُجب على سؤالكم بكفايةٍ، ولكن في الوقت الحاضر، وضعت حدود التدبير في إيجازٍ شديد، تاركاً لكل واحد منكم فرصة التقدم بنفسه نحو أسرار الله حسب طاقته.

٣٧- ذكرت لنا أن الآباء معلمي الإيمان علّموا بأن الشر لا وجود له، أي بلا طبيعةٍ خلقها الله، فكيف قال الرسول: "حَمَلَ خطايانا في جسده على الخشبة"؟

جميع الطبائع المخلوقة نالت وجودها وحياتها وغايتها من الله خالق الكل بابنه يسوع المسيح، ولذلك السبب نعلم أن الشر لم يخلقه الله، أي لا توجد له طبيعة، وإنما يستمد وجوده من الإنسان خالقه، من فكره وإرادته وعلاقاته بالآخرين وبما يستعمله من الكون من عناصر وأشياء أُعطيت له وخضعت له وصارت تحت سلطانه. ولأن الله صالحٌ، فهو لم يخلق الشر، وإنما جاء الشر من سوء استخدام الإنسان لحريته، وسوء استخدام الكون.

٣٨- يحمل الشر صفات خالقه، أي الشيطان والإنسان. فهو مثل خالقه غير قادر على البقاء؛ لأن الطبيعة التي كوَّنته لم تكوِّنه من العدم، أي لم تخلق كما خلق الله من العدم، بل كوَّنت وأبدعت ما لا وجود له إلّا في عقل المخترع (حرفياً: الصانع Δημιουργος). لقد خلق الله الحديد، ولكنه لم يعلّم الإنسان صنع آلات الحرب من الحديد، ولذلك يقول النبي أشعياء إن آلات الحرب سوف تبيد؛ لأن الرماح سوف تصبح مناجل للحصاد (أش ٢ : ٤)، وبالتالي ما خُلِقَ سوف يصدأ، أو يفقد غاية وجوده بسبب صلاح الله، وهو ما يجعل بقاء الشر إلى الأبد مستحيل.

طبعاً نحن نرتعب من الشرور مثل القتل والتعذيب وسائر الشرور التي ترعب قلب الإنسان وتزعج نفسه، وتترك في النفس جراحاً تحتاج إلى وقتٍ طويل لكي تُشفى؛ لأن الأخ إبراهيم الذي عُذّب وضُرِبَ و لم ينكر الإيمان، وبعد أن أطلقوا سراحه كان يذكر بدموع ما حدث، وكان يتعزّى عندما كنا نناديه بالمعترف Ομολογιτηс وكان يصلّي دائماً — كلما تذكّر ما حدث له – من أجل معذّبيه.

٣٩- أمّا كيف حمل الرب خطايانا في جسده على الخشبة، حسب اعتراف الرسول المبارك بالإيمان المستقيم (الأرثوذكسي)، فإننا لا نجهل أن أعمالنا لا تدوم، وهي مثل الدخان أو عُشب الحقل، ولما جاء المخلص إلى "مخاض" الخلاص وإلى ميلاد الإنسانية الجديدة، حوّل الإنسانية القديمة فيه بالميلاد من البتول والدة الإله بالروح القدس – كما سبق وشرحنا من قبل — وبالمسحة في الأردن وتجارب البرية، ثم جاء إلى الجلجثة لكي يقدِّم نفسه ذبيحة خطية لأجلنا، والتقديم شمل الثالوث والإنسانية معاً، أي أنه قدّم الذبيحة بنفسه (ذاته) إلى الآب وإلى أُقنومه الإلهي وإلى الروح القدس، تقديم واحد، ذبيحة واحدة، كاهن واحد، مُقدِّم واحد للثالوث الواحد. فهو أي، الابن له ذات حياة الآب والروح القدس، وهو لذلك لا يقدّم ذبيحته دون أن يكون له قبول لنفس القربان؛ لأن له ذات الكرامة والمجد والقوة التي للآب والروح القدس، وهذا يعني أن كل ما فعله لأجلنا صادرٌ منه، وكائنٌ به، ومقدَّمٌ منه، وهو له كما للآب والروح القدس. وتجد هذا في الاعتراف الرسولي بالإيمان في كلمات التقوى: "هذه التي نقدّمها لك معه ومع الروح القدس" (قداس مار مرقس)؛ ولأن تقدمة ذاته قرباناً تخصّه هو أيضاً، أعطى الكنيسة أن تقدّم القربان لأن القربان مقدّم منه وله وللآب والروح القدس. ولولا ذلك – وعلى نحوٍ دقيقٍ ظاهر لكل من يعرف كلمات التقوى – لما استطعنا أن نقدّم القربان في القداسات.

٤٠- وعندما جاء ربنا يسوع المسيح له المجد إلى آلامه الطوعية، لم تكن خطايا البشر حِملٌ ظاهرٌ محسوس، ولا كانت جبلاً كان عليه أن ينقله، ولكن

كانت الخطايا السابق واللاحقة، أي تلك التي سبقت موته المحيي، وتلك التي سوف تحدث بعد موته وقيامته، هي أصلاً مودعة في الطبيعة الإنسانية؛ لأن الرب عاد إلى المصدر، أي إلى قلب الإنسان الذي لا يعرف خالقه – كما سبق وأشرنا في الكلام عن الموت الروحي – ولما عاد إلى المصدر، أي قلب الإنسان وجد كراهية وعداوة الإنسان لله ولأخيه الإنسان، بل ولكل الخليقة. ووجد أيضاً تسلُّط الشهوة والظلم وسائر الشرور التي مردُّها ومرجعها إلى الإلوهة المزيَّفة التي اخترعها الإنسان لنفسه حسب كلمات المزمور: ''أنا قلت أنكم آلهة، ولكن لأنكم بشر تسقطون'' (مز ٨٢: ٦ س). هذه الإلوهة الكاذبة هي التي صُلِبَت على الصليب؛ لأنه بتواضع وانسحاقٍ فائقٍ قال للآب: ''إلهي إلهي لماذا تركتني'' (مز ٢٢: ١)، أي أنه اعترف بأن الإلوهة الكاذبة تصطدم بالإلوهة المتجسدة والحقيقية، لأن الشيطان قال للإنسان: ''يوم تأكل منها تصير مثل الله'' (راجع تك ٣: ٥). ولما أكل لم يصبح مثل الله، بل أصبح مثل ذاته، عاد إلى ذاته التي خُلقَت من العدم، وصار فارغاً بلا غاية، أي بلا صورة حقيقية لكيانه أي صورة الله، وصار بذلك صورة نفسه. ولما سقط وجد الفراغ الآتي من الأصل، أي من الطبيعة المخلوقة من العدم، والتي لا أصل لحياتها أو وجودها غير الله، لذلك صرخ الربُ بوجع وألم، هذا كثير ويفوق الاحتمال؛ لأن الحق أي الإله الحق من الإله الحق والنورٍ من النور (راجع قانون الإيمان) وضع ذاته مكان كل العصاة والمارقين والجاحدين، ولم يكن هذا ''كمّاً''، بل ''كيفاً''، أي انحدار الإنسان إلى كبرياء وزيف الوجود، الوجود بلا إله؛ لأن الوجود الذي اخترعه الإنسان لنفسه حسب كلمات المزمور: ''قال الجاهل في قلبه ليس إله'' (مز ١٤: ١س). هذا الوجود بلا إله هو وجود الإنسان، الوجود الذي صُلِبَ على الصليب والذي صرخ: ''لماذا تركتني؟''؛ لأنني الآن أجد ظلمة الحياة، أي الموت. ولكن لما اصطدم الموت بالحياة داسته الحياة، وجعلت الإنسانية الجديدة ظافرةً فيه وبه له المجد دائماً إلى الأبد، ولقدرته ولصليبه وقيامته كل سجودٍ وإكرام، ولقيامته المجيدة كل تسبيح في السماء وعلى الأرض.

انتهي الفصل الأول من المئوية الثانية،
وهي ردٌ على أسئلة رهبان دير والدة الإله القديسة مريم.
نُقِلَت عن نسخة الأب الفاضل والقس الحكيم أرميا
كاهن كنيسة والدة الإله بقرية Ⲧⲁϩⲟ
سنة ٧٤٩ للشهداء الأطهار.

الأصول الرسولية للتعليم عن التوبة

Μετανοια

أو عودتنا إلى النفس وإلى الله

التعليم الرسولي عن التوبة[٦]

٤١- يقول ربنا له المجد عن الابن الشاطر (الضال) إنه "عاد إلى نفسه" (لو ١٥: ١٧). العودة إلى الذات هي بداية عودتنا إلى الله؛ لأن "الرجوع" أو "العودة" هي أول الغيث وبداية التحول في رحلة عودتنا إلى الله؛ لأن من لا يعود إلى نفسه التي هي كيانه هو غير قادر على العودة إلى الله الذي له طبيعة وكيان مختلف تماماً، بل ويعلو على كل طبيعة مخلوقة.

٤٢- قبل أن تؤمن بأي شيء، يجب أن تحب نفسك محبةً حقيقيةً، لكي تعلّمك محبة الذات الحقيقية غير الكاذبة أن تختار الإيمان لِما فيه من صلاحٍ وخير.

٤٣- يبدأ اختبار الإنسان بالعودة إلى نفسه عندما يكتشف الزيف والوهم والإلوهة الكاذبة التي فيه. وإذا سألنا عن الإلوهة الكاذبة يكون جوابنا من عبارةٍ واحدةٍ، وهي أن الإنسان صار شريعةً لنفسهِ واختار الخير وميّز الشر بدون الله، وبدون شركة فوقع في الموت.

٦- التوبة كلمة غير مسيحية دخلت الكتابات العربية المسيحية في العصر الوسيط، وقبل ذلك عند ترجمة العهد الجديد إلى اللغة العربية. وهي تعني الكف عن الخطية وترك الشرور، وهذا لا يعبر عن دقة وعمق علاقة الإنسان بالله في يسوع المسيح. ومع ذلك فقد تركنا الكلمة العربية، ووضعنا بجانبها شرح الأب صفرونيوس "الأصول الرسولية للتعليم عن عودتنا إلى نفوسنا وإلى الله"، وهو ما نجد صداه في العبارة الرسولية "الأمم الراجعين إلى الله" (Μετανοια). والكلمة اليونانية القبطية لا تعني فقط تغيير الفكر، بل أيضاً العودة إلى الأصل أي صورة الله، وهي عودتنا الحقيقية ϢⲀⲚⲔⲞⲦϤ.وهو رفع كل حاجز ومانع يمنع الإنسان من إدراك حقيقة كيانه كصورة لله.

٤٤- كيف جلب الشرُ الموتَ الروحي، ومن بعده الموت الطبيعي؟

الجواب هو إن تعدّي الإنسان الأول حوّله من كائن حسب الله، أي حسب صورة الله التي تأخذ كيانها وحريتها وحياتها كلها من الله، إلى كائن حسب الذات الإنسانية التي خُلِقَت من العدم، والتي لا يوجد فيها ينبوع حياة. ولما جفّت الحياة مات الإنسان روحياً، وحفظته نعمة الله وحدها من العودة إلى العدم.

٤٥- لماذا سمح الله للإنسان بالتعدّي؟

<u>أولاً</u>: لأن حرية الاختيار هي أساس المحبة، ولأن القهر والقسر (الإجبار) لا يخلق محبة ولا ينمي المحبة، بل يجلب العصيان، ولذلك عندما اختار الإنسان - حراً - كيانه وأحبه بدون الله عصى وسقط.

<u>ثانياً</u>: لا شركة بدون المحبة، ولا محبة بدون حرية اختيار، وهذا يعني أن تعدّي الإنسان جعله يرفض الشركة ويترك ينبوع الحياة، أي الله ويبحث عن ينبوع الحياة في داخله، ولما لم يجده دخل الموتُ فكره وقلبه، وغرس فيه الموت - أي الخوف من الموت - البحث الدائم عن مصدر للحياة خارج كيانه، فزاد بذلك التعدّي.

٤٦- كيف أنجب آدم وحواء بعد التعدّي؟

والجواب هو إن الله وَعَدَ بالبركة قبل السقوط: "أثمروا وأكثروا" (تك ١ :٢٨). ولما سقط الإنسان وتعدّى وصايا الله لم يكسر الله وعده بالبركة رغم سقوط الإنسان؛ لأن الله - كشريك للإنسان - قَبِلَ أن يسقط الإنسان - كشريك - برفض الشركة والحياة مع الله، ولكن أمانة الله لم تسمح للإنسان بالعودة إلى العدم، ومحبته للبشرية لم تتوقف عن العطاء؛ لأن الله كان يرتّب الخلاص حسب كلمات التقوى التي نرددها في صلواتنا الأرثوذكسية[٧].

٧- العودة إلى النفس هي اكتشاف "الرتبة الأولى"، أي صورة الله؛ لأن الخطية هي ترك هذه الصورة، وانغلاق الإنسان في كيانه الذي يخلقه لنفسه بدون الله، والذي له شكل الحياة، ولكنه - بالقدرات الإنسانية وحدها - هو غير قادر

٧- "أنت الذي خدمت لي الخلاص لما خالفت ناموسك" القداس الغريغوري.

على البقاء إلى الأبد. وحقاً قيل: ''إن الموتَ هو انفصال النفس عن الله''، انفصالٌ من جانبنا وسقوطٌ في بئر الذات الخالي من الحياة. وعن هذا قال رب الحياة مخلصنا الصالح: ''مَن وجد نفسه يضيعها''؛ لأنه وجد نفسه بدون الله، وحبس ذاته في ذاته، أمَّا من قدَّم ذاته، أي بذلها، فقد كسبها، ولأن البذل لا يتم بدون شركة، فلذلك أضاف قائلاً: ''لأجلي ولأجل بشارة الحياة'' (راجع مر ٨: ٣٥). وقال أيضاً عن الإنسان الذي يضل طريق الحياة: ''ماذا يكسب الإنسان إذا ربح العالم كله وخسر حياته أي نفسه'' (راجع مر ٨: ٣٦)؛ لأن ما يراه الإنسان ربحاً ومكسباً وفيراً، يكلِّفه كيانه، ويستعبده لِما يملك؛ لأن الموت جلب الإفراط في الحرص على ما نملك، وجلب ذلك الأنانية وحب الذات المزيَّف؛ لأن من يقتني لا يحيا وحده، وإذا شارك الآخرين يظن أنه صار يملك أقل، مع أن وصية رب المجد واضحة، إلَّا أنه عندما شرح غباوة الغني في مَثَل الغني الذي ترك كل شيء لأن حياته قد أُخِذَت، قال عن هذا: ''مَن هو ليس غنياً بالله'' (لو ١٢: ٢١).

٤٨- جلبَ الإنسان على نفسه حكم الموت الذي جاء مع الخطية حسب قول الرسول: ''بإنسانٍ واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت'' (رو ٥: ١٢). وقد سمح الله بالموت من أجل القضاء على الخطية؛ لأن الله لم يخلق الموت، ولا هو سبب التعدِّي، بل كان الموت هو ثمرة الخطية كما يقول الرسول: ''وإذ كنتم أمواتاً بالخطايا والتعديات أحياكم معه'' (كولوسي ٢: ١٣).

والآن صار الموت - بسبب الصليب والقيامة - القوة التي تهدم الخطية؛ لأننا نحسب أنفسنا ''أمواتاً عن الخطية'' بسبب صلبنا مع المسيح يسوع. نموت عن الخطية لكي نحيا للبر. هذه هي عودتنا إلى ''الرتبة الأولى''، أي أن نترك الطبيعة الفاسدة القديمة التي كوَّنتها الأهواء والشهوات.

والموت هو القوة التي تهدم العادات الفاسدة، ولكنه ليس الموت كما نعرفه، أي «موت الخطية»، بل هو «الموت مع يسوع»، وهو عودة مستمرة دائمة إلى الصليب، إلى الحياة التي لا تعرف مهادنة الميول الفاسدة والعواطف التي تبعدنا عن الله، والأفكار السمجة الشريرة التي تحوِّلنا إلى «آلات الإثم»؛ لأننا لم نعُد في المسيح

عبيداً لطبيعة، بل أبناء نالوا نعمة البنوة، أي حياة متأقنمة في يسوع المسيح.

٤٩- يحرر الموت الإرادة، ومرةً ثانية، هو موت الصليب الذي قال عنه الرب يسوع: "يحمل صليبه"، وهو موت دائم "من أجلك نُمات كل النهار"؛ لأننا نحتاج إلى أن نحمل الصليب، أي حياتنا الإنسانية في كل صورها حتى ما يبدو صالحاً لكي يُصلب؛ لأننا بالصليب نرى الخير كاملاً ونعرف الفرق بين الخير والشر؛ لأن الصليب هو شريعة البذل، وشريعة البذل تؤسّس الشركة، والشركة تكشف لنا الفساد المستتر عندما نريد أن نأخذ كل شيء ونرفض أن نُعطي.

٥٠- يحرر الموت عواطفنا التي تؤجج الأنانية فينا؛ لأن الموت يكشف لنا عن فساد الطمع الذي قال عنه الرسول: "عبادة الأوثان"؛ لأننا بالموت نرى أن كل ما نحمله من اهتمامات تعشش في القلب، تموت عندما نمتحن غايتها، ونرى أنها ليست أبدية.

٥١- يحرر الموت الفكر من الارتباط بالأمور الزائلة.

وذكرى الموت ضرورية؛ لأنها تخلع من الإنسان كل ما يريد أن يفكر فيه لكي يتحرر الفكر. وحتى ذكرى الموت الطبيعي (البيولوجي) نافعة، أمَّا ذكرى صلبنا مع يسوع فهي حرية الفكر الحقيقية.

٥٢- هل تريد أن أُدلّك على "وصفةٍ" طبيةٍ نافعة، ودواء ضروري يطهِّر العقل؟ اسمع كلام ديونيسيوس الحكيم عندما قال لنا في أسبوع آلام الرب: تذكّروا كلمات يسوع المصلوب، إنها طريق الصليب نفسه، طريق مَن يريد أن يصلب نفسه مع يسوع. صلّوا الصليب، أو صلّوا يسوع المصلوب عندما تصبح كلمات الرب وهو معلّق على الصليب هي ميراث صلواتكم.

آه يا يسوع ها أنا أدُق باب الحياة كي أسير معك درب الصليب لكي أُعلّق معك بقوة الغفران، ولكي أملك معك عندما أستودع روحي لك وللآب، عندما أتأمل عطش مَن يبحث عن الملكوت، وأعطي له ذات الرجاء الذي أعطيته للص. سوف أجوز معك درب الصليب حتى النهاية، وسوف أرى معك

الفردوس؛ لأنه بدونك، حتى الفردوس لا يطاق، فاسكُب محبتك المصلوبة في قلبي لكي أشتعل بقوة الصليب وأنال معك مجد القيامة.

٥٣- وماذا نقول عن المُخيِّلة؟ أي تلك القوة الفائقة التي هي مرآةٌ للنفس. ترى فيها حتى الأمور السماوية، وتدرك فيها - بقوة - الأشياء البعيدة عنا، وتحول حتى الأشياء القريبة منا إلى أشياء بعيدة.

عندما كان الأخ إبراهيم يُجلَد في الأشمونين بسبب الإيمان، كان قلبه مع يسوع حتى أنه قال: لقد كنت أرى الرب بعينيّ قلبي - أي بالمُخيِّلة - واقفاً معي يمسح الدم والدموع، ويحوِّل العذاب إلى شوق ناري داخلي هو شوق المحبة.

إن عينيّ القلب هي التي ترى القوات السمائية، وتحول الصور المادية إلى رؤية غير مادية.

٥٤- تنال المُخيِّلة "رؤية جديدة" من طقوس ورموز الحياة الجديدة المُعلنة في الليتورجية؛ لأن معلِّم الحق ربنا يسوع المسيح، أعطانا هذه الخدمة الجديدة لكي يفتح عينيّ القلب لكي نرى الحياة الجديدة. وقد فعل ذلك مع تلميذي عمواس، كان قلباهما قد التهب، واشتعل بنور الروح القدس عندما تكلم معهما الرب، وأعطاهما الموعظة، أي كلمات التعليم من الأسفار. وبعد أن أكمل التعليم جلس معهما، ولما كسر الخبز انفتحت أعينهما وعرفاه؛ لأن المُخيِّلة تطهَّرت بالكلمة وبالشركة في التعليم. ولكن لمَّا جاءت رتبة "كسر الخبز" انتقلا من الكلمة إلى "السر". وانفتاح العينين هو معاينة الرب الحي، وهي الرؤية التي تُولد في النفس بالكلمة وبنور الروح القدس، وبالتذوُّق السابق (الخبرة الأولى) على لقاء الرب على طريق عمواس.

٥٥- تنقلنا الليتورجية بواسطة الرموز، وقبل ذلك بالكلمة إلى "سر" لقاء الكنيسة مع الرب. "سر" توزيع قوة الرب على أعضاء جسده، ولاحظ - يا ثيؤدوروس - إن كلمات الرسول بولس عن الجسد والأعضاء تنتمي إلى العالم الحسي المنظور، أي الجسد. ولكن المعاني تنتمي إلى "رتبة السر"؛ لأن الجسد معروفٌ لنا جميعاً، ولكن أن تكون شركتنا معاً وفي الرب مثل أعضاء الجسد

الواحد، فهذا من رتبة الإعلان السماوي عن وحدة الرب بالمؤمنين به.

٥٦- إن ما يعمله الخادم في الليتورجية - رمزياً - هو أن يفتح عينيّ القلب لكي يرى القلب - بواسطة المُخيّلة - السر العظيم، سر اتحاد الرب بالجسد أي بنا، وأن يقبل القلب هذا السر، ليس بقدرة المُخيّلة، بل بنور الروح القدس؛ لأن الإعلان هو من الله، هو مثل النار، ولكن وضع الماء في إناء فوق النار هو مسئوليتنا وشركتنا في عمل الله وإعلانه في يسوع المسيح.

٥٧- هكذا تتحرر المُخيّلة:

أولاً: عندما ترى ما هو محسوس، وتنتقل إلى ما هو غير محسوس، فتدرك «بالحس» الروحي النقي عطية الله.

ثانياً: عندما تشترك كل الحواس معاً في الرؤية السماوية؛ لأننا عندما نأكل الخبز السمائي ونشرب كأس محبته، ندرك أننا - بالتناول - نعلو على ما هو محسوس ومنظور بواسطة كلمة البشارة التي نقبلها بالإيمان في الصلوات، والتي تفتح عيوننا لمعاينة مجد الابن الوحيد بقوةٍ واستنارةٍ يعطيها الروح القدس حسب احتمالنا.

٥٨- تنقلنا الصلوات - رمزياً - إلى السمائيات، فالاتجاه إلى الشرق يوقظ "الانتباه ⲛⲓ ⲡ̀ⲥⲩⲥ" في النفس. ورفع اليدين تسليم وقبول للشركة، ولذلك وُصِفَ بأنه ذبيحة المساء، التقدمة الحرة في خدمة إسرائيل (مز ١٤١: ٢). والسجود الذي يُوصَف بأنه "ميطانية Μετανοια"، أي عودة الإنسان إلى خدمة الله وإلى خضوع المحبة بالروح القدس. ووضع علامة الصليب قبل أي شيء بمجرد الاتجاه إلى الشرق، هو عودتنا إلى ختم التبني ومسحة الميرون التي وُضِعَت على أجسادنا بعلامة الصليب المحيي. وإنارة الكنائس بالشموع، ولا سيما أمام أيقونات القديسين، أي نضيء بنور الروح القدس. وتوزيع البخور على الشعب، هو رائحة المسيح الذكية. والوقت لا يسمح لنا بشرح طقوسنا الجميلة، ولكنني أكتفي هنا بالجوهر:

أولاً: تنقلنا الطقوس من الكسل والتراخي وتشتُت الفكر بواسطة تغيير وضع أعضاء الجسد مثل رفع اليدين أو السجود لكي توحّد كيان الإنسان الداخلي والمنظور، وتجعله واحداً في الخدمة السمائية.

ثانياً: تكشف الرموز عن حضور الرب يسوع وإعلانه عن شخصه الإلهي وشركته في حياتنا الإنسانية؛ لأن مَن يرشم ذاته بعلامة الصليب، إنما هو مَن اتحد بصليب رب المجد في المعمودية والميرون، فنال سر موت الرب المحيي وقيامته وصار واحداً معه، ولذلك نبدأ الصلوات بعلامة الشركة أي الصليب المكرَّم.

ثالثاً: تنقلنا الصلوات والطقوس إلى مجال عمل الروح القدس؛ لأننا بالكلمة والإدراك الروحي، ندرك أن قوة صلواتنا هي من الروح القدس. وحتى بعد صلوات المزامير نقرأ كلمات بشارة الإنجيل المقدس؛ لأن خدمتنا هي حسب الإنجيل، وحسب دعوة الروح القدس لنا؛ لأننا نسجد بالروح القدس، أي بإعلانات الروح القدس وبالحق، أي يسوع المسيح إلهنا.

٥٩- وعندما نتحرك أو نسجد أو نصلّي، فإن عينيّ القلب تدرك حقيقة السر المُعلن لنا من الله الآب في ابنه يسوع المسيح بواسطة الروح القدس.

العــودة إلى الله

٦٠- نحن صورة الله ومثاله حتى وإن كنا غارقين في أوحال الخطية؛ لأن نعمة الله المُعطاة لنا لا تهلك ولا تتبدد؛ لأن الله لا يعطي نعمةً ثم يندم عليها، بل - كما ذكرت الأسفار المقدسة - أنه يندم فقط على هلاك الإنسان. والدليل على بقاء صورة الله فينا، الأمثلة الحية الباهرة للسلوك المقدس في العهد القديم: إبراهيم ويوسف وإيليا ويوشيا الملك وغيرهم. وحتى في تاريخ الأُمم نفسه، نجد - رغم الوثنية - مَن قاوم الوثنية، ووعّى الناس إلى الأخلاق الفاضلة، أي التشبُّه بأخلاق الله: الصلاح والمحبة والخير. ولذلك يقول الرسول يعقوب إن جميع البشر خُلِقوا على صورة الله (يع ٣: ٩).

وحسب التدبير جاء الرب ابن الله الذي هو صورة الآب، وأعلن لنا في

الناسوت حقيقة هذه الصورة بعلاقته وشركته مع الآب، واتكاله المطلق عليه لكي يعلن لنا أن الشركة لا وجود لها إلّا بالعودة إلى المصدر أي الآب، ذات العودة التي أعلنها في أُقنومه الإلهي. ورغم أنه مساوي للآب في كل شيء، وله ذات الصفات الأُقنومية، إلّا أنه جعل كل شيء في حياته من الآب وللآب، حتى بعد أن قَبِلَ الروح القدس في إنسانيته لأجلنا، فقد جعل كل أعماله بما فيها إخراج الشياطين هي بقوة الروح القدس؛ لأنه "وحّد" عمله وقوته بالقوة، أي ذات القوة التي له، وهي ذات قوة الروح القدس مؤكداً بذلك الشركة الكاملة.

٦١- صورة الشركة هي صورة الحق الذي لا وجود له في أي صورة من صور الانفصال؛ لأن الانفصال هو أول درجات السقوط، والموت هو آخرها. والحق هنا ليس فقط التسليم المطلق ومشاركة تامة في كل شيء، بل هو أيضاً المحبة التي لا تُبقي ولا تحفظ شيئاً لنفسها حسب كلمات الرسول: "المحبة لا تطلب ما لنفسها" (١كور ١٣: ٥)، بل تعطي وتأخذ أيضاً في حركة حياة دائمة - كما سبق وذكرنا في رسائلنا عن الثالوث القدوس - لذلك أعود وأُكرر إن عودتنا إلى الله هي عودة شركة، عودة كل الأعضاء الحية في جسد المسيح الواحد الكنيسة إلى الله؛ لأننا عندما نفشل في ذلك، نعود كأفرادٍ ولا ننال قوة الشركة، لا سيما قوة الشهادة لغير المؤمنين.

٦٢- صلواتنا وأصوامنا وخدمات السرائر (الأسرار) وكل ما يتعلق بحياتنا من إيمان واعتراف بالإيمان، هي كلها شركة؛ لأنها صورة بشرية للصورة الإلهية الكاملة والحرة والصالحة، أي صورة شركة أقانيم الثالوث القدوس.

وعندما نفشل في حياة الشركة، فإن الفشل يضرب كل مناحي حياتنا بشكلٍ ظاهر أو مستتر، ويؤخّر شهادتنا ويحدّ من عمل روح الشركة أي الروح القدس. وهذا لا يقلل، ولا يضع السالكين حسب الروح في أي خطر، ولكن عندما تُحاط الكنيسةُ بالضعف، فإن بروز واحد، يؤكد نعمة الله لذلك الشخص، ولكنه يحكم على الباقين بالضعف لا بالموت.

هكذا يجب أن نقول بكل دقةٍ إن انعدام مواهب الروح القدس، ليس مسئولية

الروح القدس، ولا تأخُّر الروح القدس في العطاء، بل هو تفتت الوحدة الروحية؛ لأننا عندما لا نحيا معاً كجسدٍ واحدٍ، فإن الأعضاء الحية تأخذ ما يحفظها في نعمة الله، ولا ينال الجسد كله مجد المسيح.

٦٣- لا يوجد قانون يحدد لكل منّا واجبه تجاه الآخر؛ لأن القانون الوحيد الذي لدينا هو المسيح يسوع رب الكل. فهو فينا وهو في الآخرين، ولذلك – في يوم الدينونة – يخاطِب الكل معاً وليس فرداً واحداً. حقاً إن كل فردٍ منا سوف ينال مكانه في ملكوت ربنا يسوع المسيح، ولكن الفشل في حياة الشركة هو فشل ومسئولية الكل الذين زرعوا الانشقاق، والذين صمتوا عن الشهادة، والذين وقعوا في خطية تمزيق الجماعة الواحدة بجمع الأتباع، ومناصرة فريق ضد فريق، ولذلك جاء حكم الرب على الكل معاً: ”ما فعلتموه بأي من هؤلاء حتى الصغار منهم، فبي قد فعلتم“ (راجع متى ٢٥: ٤٠)؛ لأننا معاً كجسدٍ واحدٍ يُحكَمُ علينا. وعلى الرغم من أن مَن يسقط ينال جزاء سقوطه، إلّا أنّ الضعف العام الذي يصيب الجسد كله ظاهرٌ بشكلٍ واضح.

علينا – أيها الإخوة – أن نتوب ونعود إلى الله معاً، عودة للشركة، وعودة كاملة بقانون واحد وهو أن الآخر هو ميراث المسيح، بل هو المسيح نفسه.

٦٤- لا نستطيع أن نُفَصِّل ونشرح كيف يجب أن نعامل الآخرين كما نعامل الرب يسوع؛ لأن قاعدة الحياة الواحدة التي لا يوجد غيرها هي المحبة المطلقة التامة التي نراها في الثالوث القدوس، والتي نتشبّه بها حسب عمل نعمة الله فينا؛ لأننا لا نملك أن نكون مثالاً لشركة الثالوث بدون الثالوث. كما أننا لا نستطيع أن نكون مثل الثالوث، إذا لم يحل الثالوث فينا. وعندما يقول الرب يسوع إنه سيأتي بالآب وبالروح لكي تكون إقامته فينا أو عندنا، فإننا نلاحظ أن الكلمة الذي ”كان عند الآب“ (يو ١: ١-٣)، هو ذاته الذي جاء إلينا بالحياة الأبدية التي هي ”عند الآب“، والتي أُعطيت لنا ليس بكلامٍ فقط، أي ببشارة الكلمة، بل أيضاً بشركة حقيقية توهَب بالروح القدس لكي ننضم إلى الرب يسوع عابرين إليه بنعمة الله من الباب الضيق، أي الصليب.

وعندما نقول "الصليب"، فإننا لا نعني فقط العلامة، أي ختم الملك، بل الملك نفسه الذي لبِسَ الصليب، فصار صفةً شخصيةً له؛ لأنه حملُ الله الذي ذُبِحَ لأجل حياة العالم لكي نحيا به وفيه، وهو ما جعل الصليب ختم محبته وصفة شخصية له. ولأن الصليب هو "المفاصل" التي تحرِّك وتوحِّد كل أعضاء الجسد، وهو قوة الحياة التي تجمع الكل معاً، صار من الواضح أن الآخر مصلوبٌ معنا، وأننا جميعاً نحمل الصليب في قلوبنا قبل أن نرشمه على أجسادنا. وحتى الكلمات المقدسة: "باسم الآب والابن والروح القدس"، هي ذات بشارة الحياة في صميم الميلاد الجديد؛ لأننا باسم الآب والابن والروح القدس نعتمد، وندخل بالمعمودية ومسحة الميرون حياة الشركة كأعضاءٍ في جسدٍ واحدٍ.

في المعمودية يضع الرب بذرة صليبه. وفي مسحة الميرون يعطيها ماء الحياة، أي الروح القدس. وفي الإفخارستيا يعطي لنا ذاته كاملةً. هذا يُعطى للكل، وهو ما يجعل كل واحدٍ منا المسيح بالنسبة للآخر، والآخرُ المسيح بالنسبة لنا.
هذا لا يعني أن الشخص الواحد، الرب الواحد يسوع المسيح يتعدد ويتكاثر؛ لأن الأقنوم لا يتكاثر ولا يتعدد حتى أُقنوم كل إنسان، بل الحياة الواحدة التي تجمعنا بالرب الواحد يسوع المسيح هي الحياة التي كانت عند الآب وأعطيت لنا، والتي بها وحدها نستطيع أن نحيا الحياة الجديدة بالعودة إلى الله أصل حياتنا.

٦٥- نحن لا نستطيع بقدراتنا أن نجعل الكنيسةَ واحدة؛ لأن الوحدة نازلة من فوق، وهي قدرة الذي أعطانا أن نكون واحداً فيه، فهو الرأس الذي منه تنمو كل الأعضاء معاً (كولوسي ٢: ١٩).

جهادنا هو إلّا نسقط من الوحدة، أي من النعمة، لا أن نؤسِّس الوحدة. وجهادنا أيها الأحباء هو أن نحوِّل اللحم والدم إلى روحٍ، وهذا ليس بقدراتنا، بل بقوة المصلوب. من السهل أن نحول الروح إلى جسدٍ، وأن نصبح جسدانيين، ولكن من الضروري أن يصبح الجسد روحانياً حتى لا نسقط في ذات خطية آدم الأول. وعندما نتحد بالرب نعرف من نعمته أن يصبح الطعام والشراب والملابس والمسكن والمال، وكل ما في الدنيا وسيلة لبلوغ مقام أعظم، وهو مقام الأبناء.

الحياة الجسدانية، أي تحوُّل الروح إلى جسد، تبدأ عندما تصبح الوسائل غايات، وعندما تصبح الاحتياجات هي كل ما نعرف وكل ما نريد وكل ما نطلب، ولذلك حذّرنا الرب يسوع من هذا عندما أشار إلى الاحتياجات الضرورية، وقال لنا: "اطلبوا أولاً ملكوت الله وعدله، وهذه كلها تزاد لكم" (مت ٦: ٣٣)، وما هو عدل الله هنا؟ ليس توزيع الأمور المادية، بل خضوع الماديات كلها - كوسائل - لغايةٍ واحدةٍ هي ملكوت الله.

٦٦- وقد تسأل - يا ثيؤدوروس - كيف نتوب معاً (أو كيف نعود معاً إلى الله)؟ وأُكرر إن عودتنا إلى الله ليست هي الكَف عن الخطية، كما يدّعي الموحّدون بالله، ولكن هي عودتنا إلى صورة الله فينا، تلك التي جُدِّدت في المسيح يسوع؛ لأننا في المسيح نستطيع أن نرى آدم الأول، وأن نراه في صورته الجديدة، وندرك منها كيف كان قبل السقوط. لكن ذلك لا يجعلنا أنقياء ولا يفيد إلّا الراغبين في البحث العقلي والفلسفي، أمّا الذين يشتاقون إلى مجد المسيح، فهؤلاء يدركون أن صورة الله فينا هي صورة الحرية النابعة من المحبة، والقداسة التي تُولد من الشركة، أي شركتنا في طبيعة الله، وشركتنا معاً كمسيحيين، وهذه نراها مُعلنَةً في المسيح الذي هو حرٌّ من عبودية الطبيعة؛ لأنه عندما أخلى ذاته بحريته، برهن لنا على حرية أقنومه، وعندما بذل ذاته لأجلنا أعلن شكل المحبة، وعندما صار رئيس كهنةٍ "مدعواً من الله لا من الناس على رتبة ملكي صادق" (عب ٥: ٦)، فقد أعلن قداسته؛ لأنه خصص ذاته وجعلها ذبيحةً وقرباناً قدّمه للآب لأجلنا. ولمّا قدَّم لأجلنا قدَّم لنا؛ لأنه عندما قدَّم لأجلنا أباد الموت، فصار تقدمةً لنا نحن الذين نتحد به "في شبه موته" (رو ٦: ٥)، لكي نقوم قيامةً مجيدةً هي قيامته التي صارت باكورة، وقد سبقنا وصار هو البداءة؛ لأننا بدونه لا نملك شيئاً. وعندما قال الرسول: "أنتم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح" (غلا ٣: ٢٧)، فقد أعلن لنا طريق عودتنا إلى الله، إنه عودتنا إلى صورة الله، أي صورة المسيح فينا.

٦٧- لنُصلِّ معاً، ولنصُم معاً، ولنشجِّع بعضنا بعضاً، ولنترك كل وشايةٍ

ونميمةٍ، ولنحفظ دائماً كلمات الرسول "المحبة تستر كثرة من الخطايا" (١بط ٤ : ٨)؛ لأن محبتنا للإخوة هي برهان السلوك القويم (الأرثوذكسي) الذي يجعلنا نطلب كل ما هو نافع وصالح لأنفسنا وللآخرين.

المحبةُ شريعةُ الكاملين

٦٨- عندما قال الإنجيلي إن ”الله محبة“، أغلق الباب في هدوءٍ أمام كل فكرٍ فلسفي يناقش طبيعة الله وصفاته؛ لأن مَن هو قادرٌ على الغوص في أعماق كل الموجودات، وليست له محبة، هو بعيد تماماً عن الله ولا يعرفه.

٦٩- عندما قال الرب يسوع: ”أحبّوا أعدائكم“، أغلق الباب بحزم إلهي أمام كل أشكال العبادات مهما كانت؛ لأن محبة العدو هي محبة الله لكل الخليقة التي تعرفه أو التي لا تعرفه. هي محبةٌ مبسوطةٌ للكل، ومَن لا يحب عدوه، لا يعرف الله الذي جاء وخلّصنا رغم أننا لم نطلب الخلاص، وفدانا دون أن نقدّم شيئاً، ويعطي الملكوت بدون مقابل. ومَن ليس له هذه المحبة، ليس له ميراثٌ مع المسيح مهما كانت أعماله.

٧٠- لنبدأ بالمحبة. وإذا كانت محبتنا ضعيفة، فلنطلب روح المحبة (رو ٥: ٥) لكي ننال قوة الحياة الجديدة.

ولأن المحبة تطرح الخوف، فهي تطرح أيضاً الأنانية ثمرة الخوف.

ولأن المحبة تعطي ذاتها، فهي تنال التواضع دون عناء، فهي لا تفتخر.

ولأن المحبة تغفر، فهي تغرس السلام بدون مشقة.

ولأن المحبة تُصالح، فهي لا تخلق الأعداء، وإن كانوا كثرةً، تمد لهم يد المصالحة حتى يقل عددهم رويداً رويداً.

ولأن المحبة تقود الإيمان - رغم أن الإيمان هو بدايتها - فهي تعالج الشكوك بمرهم الرجاء.

ولأن المحبة تلد معرفة خاضعة للإيمان، لذا ترتاح معها المعرفة.

ولأن المحبة صالحة دائماً، لذا لا يملك الناموس أن يمسك بدفة سفينتها، لأن دفة سفينة المحبة هي الصليب.

ولأن المحبة هي جوهر الشركة، فهي لا تقف عند حدود، بل تلد الشركة وتقويها الشركة.

هكذا أيها المحبوب جداً، تصبح المحبة هي شريعة الكاملين[٨].

٧١- لا تكتفي المحبة بمقاومة الخطية؛ لأن طريق المحبة هو العطاء، ولذلك فإن توبة (عودة) المحبّين عرقٌ ودم، وليس فقط دموع وتوسل؛ لأنهم عندما يتركون المحبوب يعرفون رعب الجحيم نفسه، ويعودون بسرعة البرق إلى الله ينبوع محبتهم.

٧٢- لا تبحث المحبة عن قانون للصلاة، بل تصبح هي صلاة؛ لأن جوهر المحبة، شركة. قال أحد الإخوة للأب أرسانيوس: كيف أشرك الرب يسوع في كل ما أعمله وأُفكّر فيه؟ قال له الأب أرسانيوس: "أحِب الرب من كل قلبك وفكرك وإرادتك، وأنت تعرف كيف تجيب عن هذا السؤال".

٧٣- تغرس المحبة معرفةً خاصةً، فهي تعطي للقلب طلب ما هو صالح، وتدقق في طلب ما ينفع الشركة. وتبتعد عن الشك؛ لأن الشك يترع منها قوتها الحقيقية، ويحيِّد طاقتها. وترمي الشك بكل قوة الرجاء الذي تطلبه؛ لأن برهان المحبة الأول هو عطية الله، وبرهان المحبة الأخير هو ميراث الملكوت.

٧٤- لأن الله محبة، ولأن المحبة هي شريعة الله، ولأن كل ما أُعلن في الأسفار المقدسة يجب أن يوضع على أساس إعلان المحبة أي يسوع المسيح، لا تجادل المحبة في معاني الكلمات، بل تدري غايتها. ولا تسعى إلى جدلٍ حول كلمة أو أكثر، بل تسأل عن الحكمة. ولا تحدد شيئاً يزرع الخصام.

تحفظ سر الله في المسيح دون عناء؛ لأنها مقيدةٌ بناموسٍ واحدٍ هو الصليب.

تُجيب على أسئلة الشيطان نفسه دون عناء، لا لكي تكسبه أو تحوله عن طريقه، بل لكي تقدّم له درع التواضع الذي يجعله يهرب.

إذا ظهر الشيطان في شبه ملاك نور ترى فيه الكبرياء والافتخار، وبذلك تهزأ به.

٨- لعل القارئ قد لاحظ أن هذه الفقرة بالذات من أبسط وأروع ما كُتِبَ في الأدب المسيحي.

إذا طلب هرطوقي جواباً عن تجسُّد الرب أو الثالوث أو الصليب، أجابت بكلمات الإيمان، واستطاعت أن ترى الذي يطلب المعرفة من الذي يريد العراك.

٧٥- لماذا نقول إن الصليب هو شريعة المحبة؟

لأن الصليب أعلن البذل الحقيقي لمن لا يستحق، ولمن لم يطلب أو يسأل. وأعطى الغفران لمن لم يتوسل. وفتح باب الفردوس لمن لم يكن له رجاء، ولكنه نال أعظم مما كان "يظن أو يفتكر". وحوّل الموت ثمرة الخطية؛ لكي يبيد الخطية، ورفع لعنة الموت، فصارت كلمات المصلوب "باركوا ولا تلعنوا"، طريق الصلاح، وهدمت قوة الجحيم وأبادته، وبذلك أدانت الدينونة، وجعلت الرحمة تفتخر على الحكم (يع ٢: ١٣). وعلى الصليب سال الدم والماء من جنب الرب معلناً الاغتسال والخلاص في سري المعمودية والعشاء السري لكل مَن يريد. ومزّق الصليب صك الدينونة، وسمّر كل أحكام الناموس، وجعل كل الوصايا الخاصة بسلوك الإنسان ثمرة المحبة، فغلب شريعة موسى عندما كتب على قلب الإنسان بدم يسوع المسيح، الشريعة الجديدة والناموس الأبدي أي ناموس المحبة.

المحبةُ والإفراز

٧٦- عندما قال الطوباوي والمكرّم جداً أبونا البار أنطونيوس إن الإفراز هو أساس كل الفضائل، وإن المحبة تحتاج إلى الإفراز، فهو لم يقدّم أو يؤخّر الإفراز على المحبة، بل وضع أساس التعليم القويم حتى لا يضل من يطلب يسوع من كل قلبه.

ولأن الإفراز هو أساس كل صلاح، فهو كامنٌ في جوهر المحبة، كما أن المحبة لا تستطيع أن تتقدم بدونه.

ولذلك سوف أكتفي هنا بما أخذناه عن شيوخ الدير الذين علّمونا الحياة الأرثوذكسية، فقد سلّمونا هذه الأقوال الحية.

٧٧- يفرز الإيمان التعليم الصحيح من التعليم الكاذب بمحبة الله للإنسان. لأن كل تعليم ينكر هذه المحبة أو يقلل من شأنها هو من الشيطان، ولذلك حذّرنا الرسول يوحنا من الأنبياء الكذبة الذين ينكرون أن يسوع المسيح جاء في الجسد.

ليكن تجسُّد ابن الله هو سكين المحبة في يد الإفراز لكي تقطع به كل حبال التعليم الكاذب الذي يهدم محبة الله للإنسانية.

٧٨- تفرز المحبة تعليم قيامة الأجساد، ليس فقط بسبب قيامة يسوع المسيح رب المجد، بل لأن القيامة هي برهان الله نفسه على محبة الإنسان جسداً وروحاً.

٧٩- تفرز المحبة الشرح القويم للأسفار المقدسة على قاعدة الإيمان التي سلّمها لنا الآباء، والتي نعترف بها في كل صلواتنا؛ لأن كل شرح يؤيد ما جاء في قانون الإيمان ويتفق معه هو شرحٌ قويم، حتى وإن لم يتفق في اللفظ؛ لأن تنوع الألفاظ هو حرية أولاد الله التي تؤكد غاية كل شرح، وهي الخلاص.

٨٠- تنوع الشرح لنصٍ واحدٍ لا يهدم الخلاص. أمّا الشرح الذي ينفي كرامة

البنوة، ويقيّد الإنسان بسلاسل الشك في صلاح الله، فهو مرفوض؛ لأنه يصطدم بمحبتنا لله ومحبة الله لنا، وهي محبة واحدة.

٨١- الطقوس وسائل لا غايات، ترتيبٌ ينزع الفوضى ويخضع للإيمان وللمحبة، ولا يقيد نعمة الله، بل يبحث عن إعلانها. ولأن الرب قال إن السبت جُعِلَ لأجل الإنسان، فقد وضَعَ الإنسانَ فوق الوصية، ومَن ذاق محبة الله يعرف ذلك. أمّا المقيّد بسلاسل الناموس والطقوس، فهو يجعل الوصية أعظم من الإنسان؛ لأنه لم يدرك أن "رب السبت" يسوع المسيح هو الذي جعل الإنسان فوق الوصية؛ لأنه تجسد لأجلنا؛ ولأنه "مملوء نعمةً وحقاً" شُهِدَ له بأنه الإله الابن الوحيد رب السبت.

٨٢- يقول الرسول: "يوجد وسيط واحد بين الله والإنسان، يسوع المسيح الذي بذل نفسه كفارةً (فديةً) لأجلنا" (١ تيم ٢: ٥).

فهو لم يكن كواحد من الأنبياء جاء لكي يعلن لنا إرادة الآب، بل هو ابن الآب الوحيد، وهو وحده الذي يعرف الآب كوسيطٍ بينه وبين البشر، لذلك يميّز الإيمان كل الوسطاء ويرفضهم.

وتميّز المحبةُ كلَ فداءٍ غريبٍ، أو ينكر الصليب، وتجحده عن معرفةٍ؛ لأن الإنسان لا يفدي نفسه، ولا يملك أن يقدّس كيانه، ولا يستطيع أن يشترك في طبيعة الله، ولا يملك بقدراته أن يحب عدوّه، وهنا - بالذات - مَن ينكر أن بشارة الصليب هي "قوة الله للخلاص"، هو بلا تمييز؛ لأنه بلا إيمان، وبلا محبة؛ لأنه لا يعرف الصلاح، وبلا رجاء في الحياة الأبدية؛ لأنه لم يعرف العطاء.

٨٣- التسلط والقهر والخوف هم من الشيطان. لأن التسلط إنكارٌ للتجسّد، والقهر جحدٌ لمن صُلِبَ، والخوف هو رفضٌ للمحبة.

لذلك مَن يميّز هؤلاء الثلاثة الذين يسيرون معاً في إلفةٍ ظاهرة، قد اقتنى الإيمان والإفراز؛ لأن مَن يعلّم لكي يجمع الأتباع هو محبٌّ للرئاسة مثل أبيه الشيطان، ومن يزجر لكي يخيف هو محبٌّ للقوة مثل سيده الشيطان ومُستعبدٌ للقوة يحمِّل

الناس أحمالاً عسرة مثل سادة اليهود، ولا يشترك معهم في حمل أثقالها لأنه مريضٌ بداء الكبرياء.

٨٤- يوجد خوف واحد مقدس نعرفه جميعاً هو خوف الإيمان. وعلامة خوف الإيمان هي التمسُّك بالوصية، أمَّا أنواع الخوف الأخرى، فهي ليس لها مكان في حياتنا.

ونحن نميِّز خوف الإيمان بالبحث عن غايته؛ لأنه مكتوبٌ إن بداية الحكمة (رأس الحكمة) هي مخافة الله.

٨٥- توجد ثلاثة أنواعٍ من الشكوك: شكٌّ بسبب نقص المعرفة، وشكٌّ مصدره ضعف المحبة، وشكٌّ سببه عدم استقامة الإيمان.

الأول له دواء، وهو مطالعة الأسفار وطلب حكمة الشيوخ. والثاني له علاج وهو طلب معونة الروح القدس. أمَّا الثالث فهو يحتاج إلى بتر؛ لأن عدم استقامة الإيمان تُعالج برفض الأمور الوقتية والأمور الزمنية، وهي قد تجعلنا نشُك في صلاح الوصايا ورحمة ومحبة الله.

٨٦- قبل أن نناقش الشكوك، علينا أن نميِّز هدف كل منها؛ لأن الشك في محبة الرب ليس مثل الشك في حكمة وجدوى وصايا الإنجيل. ومَن ميَّز هدف شكِّه عَبَرَ بحر العالم بهدوء وبمشقة أقل من مشقة الذي يجادل شكوكه.

٨٧- الشك الذي يقلل من ضرورة عودتنا (توبتنا) إلى الله، هو بداية قساوة القلب وموت المحبة، وهو مرض الموت الذي يجب أن نطلب له دواء المعرفة وصلوات الجماعة؛ لأن عدم العودة (التوبة) إلى الله تعني الموت.

٨٨- مَن طلب المحبة من الثالوث عاش في شركة مع الثالوث وبالثالوث. ومن طلب الإفراز من الثالوث أتقن فن الشركة، وعرف مكانته عند الآب السماوي؛ لأننا بالمحبة ندخل أعماق الثالوث الذي هو شركة المحبة. وبالإفراز ندرك أن شركتنا هي بالنعمة، وضمانها هو رئيس الكهنة ربنا يسوع المسيح.

الخدمة، وعودتنا إلى الله

٨٩- الخدمةُ دواءٌ لكل نفس تسعى نحو الملكوت بقوة ونعمة الثالوث. خدمة المحتاجين هي تشبُّهٌ بالرب نفسه. وخدمة الموائد هي شركتنا في خدمة الله للكون؛ لأنه هو الذي يزرع الزروع، ويروي الأرض، ويعطي الغلَّات والحصاد (مز ١٤٧).

٩٠- الخدمة مثلها مثل الصوم والصلاة وشركة الأسرار الكنسية، تنقي القلب من الإفراط في الاهتمام بالذات؛ لأن زيارة المرضى ورعاية المسنين، تجعلنا نرى خاتمة حياتنا وتقلل من اعتمادنا على القوة الجسدية.

٩١- على كل نفسٍ أن تختار نوع الخدمة التي تناسبها، ولكن أحياناً يجب أن نقبل خدمة لا تناسبنا حتى نكتشف مدى عمق محبتنا وسلامنا؛ لأن الابتعاد عن الخدمة قد يكون له دوافع واهتمامات ضد وصايا الرب نفسه.

٩٢- لا يجب أن نطلب خدمة معينة لأننا نرغب فيها، بل أن نصلِّي ونطلب مشورة الرب يسوع الذي يخدمنا دائماً؛ لأننا إذا دخلنا الخدمة بالصلاة وباتحادنا مع الرب يسوع تعلّمنا الكثير عن نفوسنا وزادت نقاوتنا.

٩٣- قراءة الكتب ودراسة الأسفار المقدسة لازمة للكل، والذين أخذوا موهبة التعليم لا يجب أن يستعفوا من خدمة الآخرين، لا سيما المرضى؛ الرب يسوع علّم وعمل، أمَّا من يعلّم ولا يعمل، فعليه أن يفحص ذاته حتى لا تكون حية الكبرياء نائمة في قلبه وهو لا يدري.

٩٤- أيقونة المسيح الحية هي في البشر الذين نخدمهم، وهي أفضل بكثير من الأيقونات؛ لأن لها موعد الحياة الأبدية، ونجد الرب نفسه ليس في الرسم والخشب

والألوان، بل في الإنسان صورة الله ومثاله.

٩٥- مَن يشتاق لخدمة المذبح، يشتاق للأمور السمائية، ولكن مذبح الرب يسوع الحي هو في البشر الذين يحتاجون للخدمة والرحمة، وأعمال المحبة لها مجد القيامة أكثر، بل لا يمكن مقارنتها بملابس الخدمة التي سوف يأكلها التراب.

٩٦- يستدعي الكاهن في الصلوات الروح القدس بكلمات التقوى المقدسة، أمّا أعمال الرحمة، فهي من الروح القدس الذي يعطيها لنا لكي يحل فينا وفي الآخرين.

٩٧- هل تريد أن تضيف فصلاً حياً لأسفار الله؟

اخدم الآخرين لكي ترى شيئاً مثل سفر أعمال الرسل، أو لكي ترى الرب حياً ممجداً عندما يصنع معك وبك عجائب الإيمان.

٩٨- يقول الرب يسوع: كنت مريضاً وعرياناً ومسجوناً وكنت محتاجاً، وأنتم أتيتم وخدمتم احتياجاتي، فإن كنت تريد أن تكون حقاً متألِّهاً بالروح القدس، فها هو باب الشركة في الطبيعة الإلهية مفتوحٌ أمامك وتستطيع أن تدخله متى شئت.

٩٩- لماذا قال الرب إنه هو المريض والعريان والمسجون؛ لأنه صار واحداً منا وجَمَعَنا في شخصه القدوس، ولأنه كما يقول الرسول: "لا يستحي أن يدعونا إخوته" (عب ٢: ١١)، فإن كنت تؤمن بذلك وتمتنع عن خدمة المحتاجين، فإيمانك يصبح باطلاً وأقوالاً لا أساس لها في قلبك.

١٠٠- عودتنا إلى الله بالصلاة والصوم وشركة الأسرار المقدسة والخدمة هي دعامات الحياة الأبدية، أمّا الحياة الأبدية نفسها، فهي عطية الله الآب الذي أعطانا أن نعرفه في يسوع المسيح وبمعونة الروح القدس.

أقوالنا وأعمالنا ليست هي مصدر النعمة، ولكن النعمة هي يسوع المسيح نفسه الذي جاء إلينا في آخر الدهور لكي يعطي لنا حياته التي لا نستحقها، وبذلك خلع جذور شجرة الكبرياء.

تمت أقوال الأب صفرونيوس بسلام من الرب

المئوية الثالثة

قيامة الإنسان والكون في المسيح يسوع

رسالة الأب صفرونيوس
إلى تلميذه ثيؤدوروس (تادرس)

قيامة الإنسان والكون
في المسيح يسوع

١- خلاصة البشارة وجوهر الإنجيل هي أن: «الرب قام بالحقيقة قام». وبقيامة الرب، قام الإنجيل نفسه، أي صار هو البشارة بالحياة؛ لأن الحياةَ لم تعد خاضعةً لقبضة الموت.

قبل القيامة كانت كل مظاهر الحياة وأنواعها تنتهي بالموت. حتى الكلمات التي تُقال أو تُكتب، كانت تموت مع قائلها، أو تموت بمرور الزمان، أو تسقط معانيها بما يحدث في الحياة من تغيير.

تموت القوة بموت الأقوياء، وتفقد قدرتها على التغيير؛ لأن الأقوياء في التراب. وتصبح الكلمة نفسها، أي كلمة "القوة" بلا فاعلية، فقد ضاعت؛ لأن الأقوياء صاروا هزؤ الضعف والفساد. ويموت "الغنى" بموت الأغنياء، ويبدد الورثة ما جمعوه، ويأكل الزمان ثروتهم وَصِيتهم، ويصبح الغنى مثل الفقر.

يضع الموتُ نهايةً لكل معاني الكلمات. قد يبقى معنى أية كلمة مدوّناً في المصاحف أو في فكر الإنسان، ولكن الزمان يزعزع معاني الكلمات. كم وُلدت، وكم ماتت لغات وكلمات!

٢- لما قام الربُ من القبر، انفتح لنا باب الحياة العقلية، وتغيَّرت معاني كلمات كثيرة، وصار التغيير للحياة وبقي معنا في لغتنا. **صار الموتُ انتقالاً، وصار الغنى شركةً في الطبيعة الإلهية. صار العبدُ ملِكاً، وصار الفقيرُ غنياً بالروح القدس وعطاياه.** صارت القوة تحت لواء المحبة والصفح. تحول الخبز الذي يسند قلب الأجير والفلاح والتعابى، إلى خبز الحياة الواهب الحياة للعالم، الخبز النازل من فوق من عند الآب.

٣- قبل قيامة الرب كان رَحِمُ النساء يلد أبناءَ وبنات الموت. أمَّا بعد القيامة صار رَحِمُ النساء يلد زرعَ الملكوت. تحولت الحياة إلى حياةٍ أبدية. وهكذا بالحياة التي لا تموت ولا تفنى، تغيَّرت معاني كلمات كثيرة؛ لأن القيامة أبطلت شوكة الموت. **بقيامة الرب صار النورُ هو نور المحبة الذي يكشف لنا عن الباقي والفاني، ويعلن لنا المعاني الحقيقية لكل الأشياء.**

٤- قبل قيامة الرب كان الحق يقاس بدقة مقاييس المنطق والفلسفة والطب والشريعة وسائر فروع العلوم. وكان الحق يحتاج إلى قوة السلاح وقوة القمع. وأحياناً كان الحق يسقط عندما يسقط الذين يطالبون به. تسقط النظريات كما تسقط البنايات القديمة. تموت الحقوق إذ يعفو عليها الزمان. أين حدود بلاد الرومان؟ وماذا فعل الزمان بفتوحات الإسكندر؟ أين عروش الملوك ومدارس الفلاسفة؟ ومن الذي يقرأ ويدرس كلماهم؟ لقد هزم الزمان والموت كل هذه الأشياء.

٥- لماذا أقول إن الحق يموت بموت المطالبين به؟ لأن الذين يطالبون به والذين يفرضونه على الغير ينامون في التراب، والشرائع التي تعطي الحقوق تتغيَّر. وتولد الأفكار وتموت مثل البشر، ولما كان سلاح الحق هو الفكر، والفكر يتغير، يتغير معه الحق وما يتغير لا يبقى إلى الأبد.

٦- كيف غيَّرت القيامة كل هذه الأمور؟ زرعت القيامةُ الحياةَ التي لا تموت. صارت كلمات البشارة وعاءَ حياةٍ عدم الموت. صارت كل الحقائق تلمع بقوة البقاء؛ لأنها صارت تحت عرش آدم الأخير. ولم يكن الرسول يجهل ما بدده آدم الأول، وما أحياه آدم الجديد. وُهِبَ آدم الأول صورة الله بالشركة في الكلمة وفي الروح القدس، ومعها صورة الموت إذا ترك الشركة. وفي آدم الأول افترقت الصورتان، كان يستطيع أن يغلب صورة الموت؛ لأنها لم تكن قد خُلِقَت له ولا كانت في كيانه، بل كانت صورة الموت الانتقال من الأرض إلى السماء. ولما تألَّه بالمعرفة وحدها، صارت إلوهيته بلا شركة وجفَّت بالزمان؛ لأنها لم تأكل من شجرة الحياة، فصارت الإلوهية بالمعرفة فخَّ الموت؛ لأن المعرفة بلا حياة، جوفاء

مثل ''صنج يرن''. وصارت معرفةَ موتٍ، لا معرفةَ حياة. ودخلت صورة الموت، أي العدم، فكر الإنسان لمّا تأمّل ذاته بدون خالقه.

أمّا آدم الحقيقي والأخير – لأن الأخير هو الجديد، وهو بداية حق الحياة – فقد جمع صورة الله وصورة الإنسان. وحّد الحياةَ بموت الإنسان، فداست فيه الحياةُ الموتَ وأعلنت القيامة. تألّهت طبيعتنا فيه بالحق، أي حق الحياة، وتألّهت المعرفة بنور محبة وحق روح الحق، ومنذ أن فَتَحَ باب القبر للحياة، صارت لغة الإنجيل هي لغة الحياة التي تغلب الموت، ولغة المحبة التي تبيد العداوة والبغضة التي هي لغة الموت. وافترق الإنجيل عن الشريعة، رغم أن الشريعةَ من الله؛ لأن الشريعة تحكم على كل الخطاة بالموت، وبالشريعة – كما قال الرسول – معرفة الخطية، أمّا الإنجيل فهو يُحيي الموتى ويقيم الخطاة، وبالإنجيل معرفة الحياة، والحياة بالقيامة.

٧– ما هي لغة الحياة الجديدة في المسيح؟

أولاً: هي إلهام روح الحياة الذي يجذب الموت لكي يبيده. وهو روح الحق، روح يسوع المسيح الذي يحل تناقض الحياة والموت بالصليب إلى أن تغلب الحياة تماماً في الدهر الآتي، دهر الحياة التي لا تغربُ لها شمسٌ؛ لأن المسيح هو «**شمس البر**» **الحي**.

ثانياً: تأمّل أناشيد العروس (الكنيسة) إنها أناشيد الرجاء والانتظار الحي، وأناشيد الحرية، حرية الحياة التي تفتّش بمحبة ولهفة الروح عن الحق الآتي؛ لأن الحق الأول أي "الألف – A" قد أعلِنَ، أمّا الآتي "الياء – Ω " فسوف يُعلَن. وهذا انعكس على لغة الإنجيل؛ لأن البشائر الأربعة لم تُكتب بلغة الناموس وحسب دقة الحروف، ولكن حسب حق الحياة. فالناموس (قانون) لا يتغير وحروفه ثابتة، أما الإنجيل فهو بشارة حياة والحياة تنمو نحو "الياء – Ω ". وحسب حرف الشريعة نجد النواهي، وحسب حرية الحياة نجد هبة وعطية الله التي لا تحصرها الكلمات.

أخبِرني يا مَن تفتش بلهفةٍ عن تناقضات في كلمات الرب. هل أنت تفتش بقدرة الشريعة أم تفتش بروح العطية؟. لقد صرنا في المسيح شركاء الطبيعة الإلهية، فكيف يعبّر من تألّه بالنعمة ونال استنارة الروح عن عطية الحياة بدون تناقضات

الحياة. ألا تفهم أن العطية ليست شريعة مثل شريعة موسى، بل شريعة حياة تزيد فيها العطية بمرور الزمان وحسب قوة الشركة. لم نتألّه في المسيح يسوع نفسه الذي حملنا في أقنومه المتجسد لكي نحيا حسب الشريعة، بل حسب الروح. **ولذلك لم يقتل الرب تناقض الحرف والروح، وتناقض الحياة والموت، بل صلب الاثنين معاً لكي يصالح الأضداد.**

تأمل إنجيل المسيح، إنه لا يعبِّر عن الحياة بحروفٍ، بل بالعطية. ولم يقدم الحق في كلماتٍ، بل في روح الحق. ولم يعلن البشارة بالحروف، بل بهبة الحياة. ولم تكن عطيةُ التبني كلمة، بل موت الرب وقيامته وانسكاب روح التبني. هذه أسماء لعطايا تعبِّر عنها الحروف، ولكنها تترك لكل إنسان حق استعمال الحروف حسب نموه في الشركة.

٨- لقد غيَّرت القيامةُ الصومَ. فجعلت الصومَ انقطاعاً عن الطعام الأرضي طلباً للطعام السماوي، أي جسد ودم عمانوئيل إلهنا المْنُ العقلي. **نصوم قبل التناول لكي نذوق طعام الدهر الآتي، أي المسيح كلمة الله قبل أن نذوق خيرات الخليقة الأولى.** نمتنع بإرادتنا عن الطعام الأرضي لكي ننال الطعام السمائي الحقيقي الذي قال عنه الرب: "جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق". وعندما نأكل المن السماوي نتعلم كيف نأكل الطعام الأرضي.

٩- كما غيَّرت القيامةُ الصلاةَ. صارت الصلاة طلباً للثبات في الحياة الجديدة وقبولاً للموت مع المسيح؛ لكي نعبر بحر الأهواء وعواصف اللذات الأرضية بدون مضرة.

١٠- جعلت القيامةُ الصلاة في الوجود الدائم الحي في المسيح. نأتي **إليه** بكل ما تحمله الطبيعة القديمة من أهواء وفساد، **وبه وفيه** نقترب من الآب لكي نحيا كأبناء لله. أقام الرب الصلاة وجعل قوتها ليست في اللفظ ولا في فصاحة الكلمات، بل في قوة المواعيد وفي شفاعة الروح القدس.

١١- بقيامة الرب من الأموات صار نطقُ الكلمات في الصلاة، ليس حسب قوة وعواطف ودموع المصلي، بل حسب قوة وعمل شفاعة الروح القدس الذي

"يأخذ من الابن"، ويعطي لنا حياةً غالبةً بالصليب، حرةً من سيادة الخطية، تتجلى بقوة الروح القدس، حيث ينقل الصليب قوة آلام الرب، لأننا لا نتألم فيه عبثاً، بل نتألم لكي يحول الطبيعة العارية من الخلود إلى طبيعة الرب نفسه.

١٢- تحوِّلُنا القيامة إلى عمق انتصار الصليب على الموت بالبذل والعطاء وعدم الخوف من الموت الداء الخفي القديم الذي لا يقلعه النسك وحده، بل عطية الحياة في المسيح.

١٣- حوَّلت القيامةُ أسفار العهد القديم إلى رموزٍ للحياة الآتية، هنا على الأرض والتي تكمُل في الدهر الآتي، الحياة التي جذرها في المسيح. صارت الكلمات والنصوص رموزاً تُعلِن لنا في عتمة الموت رموز الحياة المستنيرة التي أشرقت بالابن الوحيد ربنا يسوع المسيح.

لقد صارت الكلماتُ رموزاً

أولاً: لأن التاريخ القديم مغلقٌ عليه في الزمان، وبعادات وطقوس لا تحمل سمات الحياة الأبدية. هي طقوس وعادات العبادة القديمة التي لا تملك قوة الحياة؛ لأنها كلمات عن عادات عبرت وانتهت. وبمجيء الكلمة بالجسد، نقل الربُ حقائق الحياة القديمة إلى رموز الحياة المسيحية. فتحوَّل الاغتسال بالماء للطهارة إلى رمزٍ لغسلٍ يقوم به الروح القدس، واغتسال الروح أقوى ودائم لأنه يطهِّرنا للحياة الآتية. هوَ اغتسال عقلي ينعكس على الجسد. وصارت الذبائح رموزاً للذبيحة الأعظم، تلك التي رفعت الموت وأبطلت حكم الناموس القاضي بموت الخطاة.

ثانياً: تمت النبوات الإلهية بتجسد وموت وقيامة الرب. هذه النبوات صارت مثل نورٍ يشرق في أسفار العهد القديم، تشرح لنا بشكل رمزي، ليس كمال سر الله في يسوع المسيح، بل بعتامة الرمز ما سوف يكمِّله الرب بتجسده وموته وقيامته، وهو ما يفوق رموز العهد القديم. وكما سِيق الحمل للذبح حسب نبوة أشعياء، سِيق الربُ للصليب، وصارت كلمات النبوة ليست شرحاً، بل إشارةً ورمزاً تُشرح في نور الصليب والقيامة.

ثالثاً: ما جاء في الأناجيل الأربعة من أقوال ابن الله ومعجزاته وأمثاله،

وهي التعليم الحي الذي يشرح لنا تدبير الخلاص. هذه نفهمها حسب قواعد التدبير وهي:

أ- إن المعنى الأبدي يفوق المعنى المؤقت للكلمة.

ب- إن تكرار الألفاظ واختلافها هو أمر ضروري لكي يفهم كل تلميذ حياة المعلم حسب قدرته، لأن الفهم ليس هو قاعدة الإيمان بالمسيح، بل المحبة التي تقود الفهم.

ج - تُشرح الألفاظ في الأسفار المقدسة بروح الحياة وليس بروح الموت. وروح الموت تنبع من اعتبار أن المعرفة الذاتية هي شريعة الخير والشر. وهكذا يشرح الهراطقة الأسفار حسب الموت، أي بوضع العراقيل والصعوبات أمام الذين يطلبون الحياة الأبدية والإتحاد بالله في المسيح، بينما يشرح الآباءُ الأسفارَ حسب روح الحياة بطلب الالتصاق بالمسيح في معاني كلمات الأسفار المقدسة.

د- يظل تناقض الحياة مع الموت ظاهراً في الضعف اللفظي؛ لأن اللفظ ينقل ضعف الإدراك وأيضاً قوة الحق وكلاهما يظل لاصقاً بالآخر.

١٤- غيّر موتُ الرب على الصليب الموتَ نفسه؛ لأن مَن يموت مع المسيح ليس كمن يموت حسب قانون الموت الطبيعي. والموت مع المسيح هو قبول الصليب، أي قبول الموت لكي يصبح قوة حياة في المسيح المصلوب. أمّا موت الطبيعة البشرية بدون المسيح وبدون الصليب، فهو انحلال طبيعي لا يؤدي إلى الخلاص.

١٥- حوّل المسيح - بالموت وبقيامته - انحلال الجسد إلى ضعف يؤدي إلى قوة وقيامة ومجد. أمّا موت الطبيعة الإنسانية بدون المسيح وبدون شركة فيه، فهو موت الخطية الذي لا يتحول فيه الانحلال إلى مجد، بل يظل ضعفاً. **وهكذا تكون قيامة الأشرار بلا مجد؛ إذ يظل الضعف محيطاً بها مثل بقاء صدأ الحديد عالقاً بالحديد.** أمّا قيامة الأبرار، فهي مثل لمعان الذهب بعد نار الصهر، ولذلك قال الرب: "حينئذ يشرق الأبرار مثل الشمس في ملكوت أبيهم"، وطوبى لمن

يدرك قيامة الأبرار.

١٦- لنسمع ونشرح الأسفار حسب موت الرب المحيي، فلا نقتل كلمة الله بعدم السماع، بل لنسمع الكلمة لكي نسمع صوت الحق ينطق، ليس حسب الحرف، بل حسب قوة الوعد بالحياة. وهكذا يجب أن نفهم كيف جدد الرب كل شيء. لقد جدد الرب قوة العداوة، وحوَّلها إلى عداوة للخطية. ومع أن الخطية هي التي زرعت العداوة إلّا أن الصليب حوّل العداوة إلى الخطية وجعلنا نكره الخطية، وبذلك صارت كقول الرسول: "خاطئة جداً". وحوّل الربُ الخوف من الدفاع عن الذات إلى خوفٍ من الدينونة. وحوّل الرب الإدانة من إدانة الآخرين إلى إدانة دوافع القلب ونياته والحكم على النفس قبل الحكم على الآخرين. هكذا حوَّل الزنى من الجسد إلى القلب لكي يجعل حكم القلب بقوة روح الحياة وبقوة الصليب والقيامة، فننال الحياة.

تأمّلوا أيها الأحباء كيف حوّل الصليب عداوة الإنسان لله إلى مصالحة مع الله. كان الإنسان يكره الله بسبب ألم الخطية وعذاب الحياة، **فجاء الديان العادل وذاق بالجسد عذاب الموت لكي يعلن شركته في ألم الإنسان ويحوّل عداوة الإنسان إلى مصالحة؛ لأنه قَبِلَ ذات الألم الذي كان يحرك عداوة الإنسان.**

١٧- وفتح الرب ينابيع المغفرة دون مقابل. و لم يجعل أعمال الخير وسيلةً لنوال المغفرة، بل جعل هذه الأعمال ثمرة المحبة، تحكم عليها المحبة وحدها، وبذلك نقل قوة العداوة إلى البغضة، أي صارت العداوة التي فينا موجَّهة نحو العداوة نفسها، وحوَّل البغضة التي فينا إلى بغضةٍ للبغضة؛ لأن هبة الحياة التي أعطاها لنا صارت قادرةً بالمحبة التي يسكبها الروحُ القدس فينا، أن تميز الدمار الذي تخلقه فينا البغضة، وصارت الحياة التي فينا من المسيح تأخذ حيوية العداوة نفسها وتحوّلها إلى عداوة للخطية. بهذا صار الرب هو قوة الحياة نفسها التي فينا. زرع بالصليب المصالحة وحوَّل قوة النفس بالقيامة، وهي هبة الروح القدس للمؤمنين، إلى صراع ضد كل ما هو غريب عن المحبة والمصالحة.

١٨- هكذا حوّلت القيامةُ الصليبَ إلى ظَفَرٍ وخلاص. **لم تكن القيامة ثمرة**

الموت على الصليب، بل ثمرة انتصار الحياة على الموت. فالقيامة هي قوة الحياة التي في أقنوم الابن والتي أعلنت في الصليب عندما قابل الرب موت البشر في شخصه بعد أن قابله في موت آخرين مثل لعازر وابن الأرملة وفي معجزات الشفاء التي رَدَّت الحياة لكثيرين.

١٩- سبقت الحياةُ الموت؛ لأن الخلق من العدم أعطى للخليقة الوجود والحياة. وعندما سقط الإنسان الأول، صارت حياته أسيرةً للموت، أمَّا في الإنسان الثاني يسوع المسيح، فقد صار الموت أسيراً للحياة وخادماً للخلاص؛ لأن الرب قبل الموت على الصليب "بإرادته وسلطانه وحده". وأقام الرب ناسوته بقوة الحياة التي فيه، أي قوة أُقنومه الإلهي، وهي قوة إرادته الإنسانية أيضاً التي هي واحد مع إرادته الإلهية، وبقوة المسحة، أي شركة الروح القدس في تدبير الخلاص، وبقوة الآب ومسرته، وعلى هذه القوة شيَّد الربُ الحياة الجديدة المُعلَنة في الكنيسة جسده الواحد الحي الذي يبقى شاهداً في العالم بقيامته إلى أن يجيء.

٢٠- جسد الرب الواحد هو الكنيسة، أي جسده المحيي الذي كُوِّنَ أولاً في أحشاء البتول بالروح القدس لكي يكون لكل مؤمن بداية جديدة من فوق من روح الآب، **ولكي - عند كمال التدبير - يجدد الرب الجنس البشري وينقل الطبيعة الإنسانية من الوجود حسب نعمة الصورة الإلهية، إلى الوجود حسب نعمة التبني، وحسب الشركة في الطبيعة الإلهية بالروح القدس الذي يعطي بدايةً جديدةً للجنس البشري مثل تلك البداية التي أعطاها للرب عندما تجسَّد.**

٢١- أخذ الرب الناسوت من والدة الإله وجعله "واحداً معه"، وقدَّسه واتحد به وسكب عليه الروح القدس، ثم قدَّمه قرباناً عنَّا للآب لكي يبيد به الموت، ويفتح الأحضان الأبوية لنا، وبعد ذلك مجَّده بالصعود ودخل به إلى "قدس الأقداس" لكي يكون لنا فيه وبه ذات الدخول.

٢٢- وبموت الرب على الصليب وقيامته صار جسده الحي هو ينبوع الحياة الآدمية الجديدة، وصار العطية التي تُعطى لنا في سر الشكر لكي نتحول به وفيه، **لأننا بالاتحاد بالرب في المعمودية المقدسة ومسحة الميرون وسر الشكر لا نبقى**

خارج المسيح بالمرة، بل نصبح معه واحداً كما تقول الكنيسة بصوت الروح القدس: "لكي لا يقوى علينا نحن عبيدك موت الخطية ولا على كل شعبك". فقد أباد الرب الموت وأبطله. أمّا خارج المسيح، فالدينونة والغربة الأبدية عن محبة الله التي افتدت جنسنا العاصي. **وهكذا نحن واحدٌ معه حسب الحياة التي في المسيح، وحسب النعمة التي وُهِبَت لنا، وحسب اتحاد أقنومه الإلهي بطبعنا البشري.** ونحن نصبح مثل الابن الوحيد المتجسد، أي مثل آدم الثاني. ولم يعلِن لنا الرب ماذا سنكون بعد ذلك حسب قول الإنجيلي، **ولكننا سنصير مثله في محبته للآب**؛ لأن محبة الله واحدة لا تنقسم. **ونصير مثله في المجد الذي أشرق من ناسوته**؛ لأننا جسد واحد معه وفيه. **ونصير مثله أبناء الآب**، هو متقدم بالأزلية، ونحن نتساوى به في محبة الآب لنا؛ لأن الآب يحب أعضاء جسد ابنه كما يحب ابنه ولا يفصل بين الاثنين؛ لأن المحبة تميِّز ولا تفصل، بل تجمع وتوحِّد وتحفظ الفروق التي غرسها الرب، أمّا الفروق التي جاءت بها الخطية، فهي تختفي وتذوب بفعل النعمة الإلهية؛ لأن الرسول يقول: "مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية". وهكذا بقوله هذا ثبّت وجود الفروق؛ لأن الرسل غير الأنبياء في المواهب والقامة الروحية، ولكن يبقى الأساس الواحد الذي يجمع المختلفين لأن الرسول يقول: "لأن المقدس والمقدسين هم من واحد"، وهذا هو وعد الرب لأنه جاء لكي يجمع أبناء الله المتفرقين بتنوع العطايا إلى واحد، أي ذاته الإلهية.

٢٣- وقيامة النفس التي تسبق قيامة الجسد هي ضرورية جداً لفهم تدبير الخلاص. أمّا قيامة النفس فهي تحدث في المعمودية، وعلامات هذه القيامة حسب تعليم الآباء القديسين هي:

أولاً: اشتهاء الاتحاد الدائم بيسوع المسيح ربنا الذي أعطانا الحياة الجديدة.

ثانياً: الرغبة في عمل الوصايا الإلهية مهما كانت التكاليف والمتاعب.

ثالثاً: الثبات في مغفرة ذنوب وخطايا الآخرين.

رابعاً: محبة الأعداء؛ لأن مغفرة خطاياهم تحرر القلب من الأهواء وتعطي

السلام لمن يغفر. أمّا المحبة فهي ترفع الصلاة الدائمة لكي ينال هؤلاء عطية الحياة الأبدية.

خامساً: العزم على الالتصاق بالرب في الأسرار الإلهية.

سادساً: تمييز الأفكار والنيات التي تبعدنا عن محبة الله وعن السلوك بقداسة.

هذه هي علامات قيامة النفس، وهي العلامات التي تؤكد فقدان الموت لسلطانه على النفس أي على الفكر والإرادة الإنسانية.

٢٤- قيامة الجسد - في اليوم الأخير - بعد قيامة النفس هي تدبير الخلاص، لأن الروح أولاً وبعد ذلك الجسد، والروح هي أصل الجسد، وهي أصل كل الأمور الإنسانية، وتدبير الروح هو الذي يضبط تدبير الجسد.

٢٥- وتعبِّر الكنيسة عن قيامة النفس في صلواتها بطريقتين: الطريقة الأولى: عندما تدعونا إلى قبول نعمة الله الوافرة، أي سُكنى الروح القدس والاتحاد بالرب في الصلاة وفي الأسرار. الطريقة الثانية: عندما تطالبنا بالنهوض من نوم الكسل والتغافل والتواني والسعي إلى التوبة عن "الأعمال الميتة"، أي تلك التي بلا ثمر.

٢٦- وإذا كنا قد ذكرنا قيامة النفس وهي القيامة الكبرى، فلأنها قيامة روح الإنسان من موت الخطية. **وقيامة النفس لا تعني بالمرة أن يخلو العقل من الفكر الرديء، أو أن يحيا القلب في سكون وسلام الملكوت بلا عواصف وقلق الشر؛ لأن هذا هو ما سوف يحدث لنا في ملكوت السموات عندما ندخل إلى «راحة المسيح»، أمّا الآن فإن قيامتنا تتم دفعةً واحدةً لكي تمزِّق أكفان الخطية والشر التي نسجها العدو حولنا والتي تحيط بنا**، وبعض هذه القيود نابع من القلب ومن الذاكرة.

٢٧- وحسب تدبير هذه القيامة الحقيقية، تحصل النفس على معونة كاملة من فوق لكي تسعى وراء العريس السماوي رغم المعوقات التي يضعها العدو في الطريق. وهكذا علينا أن نكون على حذر من الأمور التالية:

أولاً: نوم النفس، وهو طلب الراحة الكاملة. ونوم النفس هو أيضاً أن تسكن النفس في غير موضعها. وموضع النفس الحقيقي هو الله، ومسكنها هو

الرب يسوع المسيح الذي «سكن فينا»، أي في إنسانيتنا لكي نسكن نحن فيه وبه في الثالوث القدوس.

ثانياً: وطلب الراحة يجب أن نميِّزه في صورته الحقيقية؛ لأن تعب الجسد نحس به في أعضائنا وهو يُلزمنا بالراحة. **أمّا تعب القلب، فهو شقاءٌ وتعبٌ خفي مصدره الحقيقي فقدان الرجاء والخزي وصغر القلب.** هذه هي قتالات النفس التي تحاول النفس أن تتخلص منها، ولا تجد لها معيناً في ذلك سوى ربنا يسوع المسيح نفسه الذي إذا طلبت النفسُ الالتصاقَ به وصار هو قصد الحياة وغاية الوجود، لوجدت النفس الراحة الحقيقية.

لنراقب حياتنا حتى لا يتحول تعب النفس إلى مصيدة كبيرة تمسك بها الرذائل حياتنا وتخذل نعمة الله.

ثالثاً: عدم وضوح الهدف، فلكل شيء في الحياة غاية. وغايتنا هي الله، ووسيلتنا هي الله. هذا فرحٌ حقيقي أن يكون الله هو الغاية والوسيلة معاً. وهذا نفسه يملي علينا أن نميِّز بين ما نظن أنه هدف وهو غير الله، وما نظن أنه وسيلة وهو أيضاً غير الله. الوقوع في هذه المصيدة هو داء المبتدئين الذي يلازمهم حتى تشفي – التجارب واليأس من الوسائل البشرية – نفوس هؤلاء.

٢٨– القيامة هي الوسيلة الوحيدة للاقتراب من عرش النعمة؛ لأننا بالاقتراب من عرش النعمة بالمسيح الحي، ننال هبة الحياة التي تؤهِّلنا لأنْ نتقدم به وفيه للآب سائلين نعمة البقاء فيه كما بقيت فيه الطبيعة الإنسانية التي أخذها من والدة الإله، واتحد بها على ذات المثال بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير.

٢٩– وبقيامة الرب صار له كهنوتاً حياً وشفاعةً دائمة، فهو الرأس الحي الذي منه تنحدر الحياة إلى باقي الأعضاء. والانحدار هو انحدار التواضع من حياة ممجدة غالبة الموت والخطية إلى حياة تغلب الموت والخطية فينا، فقد غلب هو أولاً، لكي نغلب به، ولكي ننال قيامةً في حضرة الآب، أحياء في المسيح، وبه نبقى إلى الأبد.

٣٠– **ويشفع فينا الرب، لأننا نؤمن أن يسوع المسيح يصلي فينا**، فهو الرأس الذي منه تأتي الكلمات ومنه قوة التوسل، وهو الذي يحدد غاية كل صلاة. **ويصلي**

يسوع معنا؛ لأنه يقدم صلواتنا للآب كرئيس كهنة حي كائن في السماء وعلى الأرض. **وهو يصلي لأجلنا**؛ لأننا نحن أعضاء جسده. وبموت المسيح على الصليب لم يعد التوسل تذلل الخطاة كما كان في العهد القديم، بل صار التوسل هو إدراك عجزنا عن أن نحيا بدون عطية الحياة. وبقيامة الرب لم تعد الشفاعة، أي شفاعة المسيح هي توسل الأقل إلى الأعظم بكلمات تناسب مقام الأقل ومقام الأعظم، **بل صارت شفاعة المسيح هي الوساطة بين الحياة والموت، أي بين الحياة التي لا تموت والحياة التي تتحول من الموت إلى الحياة**، أي حياته هو التي تصبح حياتنا، حياةً واحدةً، وجسداً واحداً بروحٍ واحدٍ.

٣١- غيَّرت القيامةُ التوسُّل؛ لأننا نحن لسنا مثل غير المؤمنين، أي غير الأحياء بالمسيح، بسبب الخطية نتوسل في ذُل العبيد، بل نحن نتوسل لكي نتزع الكسل من حياتنا الخاضعة للأهواء والموت الجسداني.

وبالتوسل الدائم ننال يقظةً روحيةً. كما يخلق التوسُّل الوعي الحي والانتباه إلى أصل حياتنا الجديد – أي يسوع المسيح – الذي لا نطيق الانفصال عنه. هذا الوعي الجديد يجعل فينا شوق الالتصاق بالمسيح دائماً، ولكن شوق الالتصاق ليس هو الالتصاق نفسه؛ لأن الالتصاق بالرب يُعطى لنا بقوة حقيقية لا انفصال فيها، أي قوة الروح القدس الذي هو واحد مع الآب والابن في جوهر واحد.

وعندما نقول إن للثالوث جوهر واحد غير منقسم، فنحن نشير بكل استقامة أرثوذكسية إلى وحدانية الحياة الإلهية، وإلى ثالوثية الأقانيم غير المنفصلة التي تجعل عمل كل أُقنوم فينا معلِناً الوحدة والتمايز ومؤسِّساً بذلك الوحدة الكاملة بيننا وبين الثالوث. وهكذا يعمل كل أقنوم عملاً متمايزاً فينا، ولكنه محفوظ بالوحدة وبعدم الانفصال وعدم الانقسام الذي لا يليق بالله.

٣٢- تدعونا القيامة إلى تأمل حقيقة التضرع والبقاء في الصلاة الدائمة. فالتضرع الحقيقي حسب روح المسيح هو هربٌ دائم من الخطية، وشوقٌ للقداسة؛ لأن الهرب وحده لا يكفي، بل يعطل قوة النفس. والتضرع هو إصرارٌ على عدم الخضوع للموت، وحياةٌ حسب المحبة التي يسكبها روح المحبة، أي

الروح القدس.

وهكذا أنارت قيامة الرب صلاة المزامير، وصارت رغبتنا في الابتعاد عن الأعداء الروحيين هي رغبة حقيقية في طلب الخلاص، أي طلب الحياة بلا خطية، وأول مظاهرها هو مسامحة الأعداء الأرضيين. أما سائر الكلمات الأخرى التي تتحدث عن نهاية الأشرار وهلاك الشر، فإن القيامة أفرزت معانيها عندما أكّدت **أن هلاك الأشرار بالشر هو نهاية الخطية، وأن البقاء في الموت هو العطب الحقيقي الذي يصيب الإنسان.** أمّا الكلمات التي تقال عن الأعداء المنظورين، فهي تقال بروح القيامة، إذ ترفض أن تكون لنا نهاية مثل نهايتهم؛ لأن الذين يسلكون حسب شريعة الحياة في المسيح يطلبون الحياة.

وهكذا تحذّرنا المزامير من النهاية القاسية التي يسقط فيها الأشرار، ومن هاوية الابتعاد عن الله. **لقد سبى الربُ الهاويةَ بموته، ونزل إلى الجحيم مصلوباً أي حاملاً سمات المغفرة، فغلب قوة الهاوية بمسامير الصليب،** أي تلك التي جعلته يقول: "اغفر لهم"، رغم أنه توجّع من خيانة وقسوة البشر أكثر مما توجّع من المسامير. غَلَبَ الربُ الهاويةَ بموته الذي لم يكن خضوعاً للموت مثل سائر البشر، بل هزيمةً للموت لأنه هو رب الحياة. **ولم تعد الهاوية قادرة على أن تبلع الخطاة؛ لأن موت الرب على الصليب أباد الدينونة، أي سلطان الهاوية.** وهكذا صار مصير الأشرار كما تذكره صلوات المزامير هو ما نتذكره نحن بشكر؛ **لأننا** خلُصنا من حكم الموت؛ إذ أباد الرب الموت بموته، وأضاءت القيامة ظلام الدينونة وجعلتنا نفرح بالملك الحقيقي يسوع المسيح رب الحياة والموت.

٣٣- تضرُّع الموت فينا هو فرح ضعيف وهو صوت العجز. أمّا تضرُّع القيامة فينا فهو تضرُّع رجاء الحياة الذي لا يخزى. **والتوسل الكاذب هو توسل الذين يظنون أن الرب مثل البشر، وأنهم بكثرة الكلام ينالون ما يطلبون، فتصبح قاعدة الصلاة عندهم هي الإرادة التي لا تعرف الصليب.** أمّا التوسل الحقيقي فهو طلب الحياة الناهضة من الموت في يسوع المسيح الذي تطهّر من الموت بذبيحة الصليب، فصار سببَ خلاصٍ لكل الذين يطلبون وجهه.

٣٤- لا تقوم **الشفاعة الحقيقية** بتوسل كاذب، بل **هي وحدة أعضاء جسد المسيح الواحد الحي**، أي الكنيسة. نحن أحياءٌ فيه وبه، ولذلك نحن جسده الذي لا يموت، جسده القائم من الأموات. والشفاعة الحقيقية هي تضامن والتئام أعضاء الجسد الواحد الحي في الوحدة حسب الحياة. هذه الوحدة تجعلنا نترك كل الأشياء التي تخلق الموت، وأول هذه الأشياء هي خطية العداوة، لأن العداوة هي علامة ظاهرة على الانفصال عن الحياة وهدم للوحدة. أمَّا القيامة فهي وحدة الأعضاء الحية معاً في وحدة الحياة أي المسيح الحي.

٣٥- تربطنا القيامة بالمفاصل والرُّبُط، أي بقوة الحياة المتنوعة التي في الرب. وهي قوة الحياة التي تسري في الجسد الواحد وتجعله حياً، والجسد هو أعضاء الرب أي المؤمنين. ونرى هذه الوحدة في تضامن الأعضاء من أجل الخير الحقيقي أي الله، وفي التئام الأعضاء ورغبتهم القوية في البقاء معاً في شركة الأعضاء وليس في عزلة الأفراد، لأن الفرد مستقلٌ له حياة خاصة، أما الأعضاء فهم في وحدةٍ لهم حياتهم المشتركة.

٣٦- نحن لا نتحد بالجسد الواحد الكنيسة حسب مقاييس حياة الجسد البشري، بل حسب مقاييس جسد المسيح الحي. وهذه هي مقاييس جسد المسيح الحي:

أولاً: تعدد الأعضاء وتنوعها الذي يحفظ وجود كل عضو، وغنى المواهب، مما يقوي الوحدة ويجعل الوحدة تخدم الوجود الخاص لكل عضو.

ثانياً: لا تخضع حياة الجسد الواحد لمقاييس الاتحاد حسب الطبع المخلوق، بل حسب مقياس المسيح نفسه، وهو مقياسٌ تحدده كلمات الرب له المجد: "يجمع المتفرقين إلى واحد" فهو:

* رأسٌ واحد منه كل الأعضاء.
* جسدٌ واحدٌ، أي حياة واحدة.
* مواهب متنوعة ومختلفة تعطى بحسب تنوُّع الأعضاء، وهي مواهب نالها الرب نفسه ومنه تُعطى للمؤمنين.

* حياةٌ واحدةٌ إلهية متجسدة تعطى في وسط الخطية والموت؛ لكي تجدد وتقدس الميت وتجعله حياً.

٣٧- ومقياس القيامة هو مقياس الحياة الغالبة الموت، أي الغالبة الانفصال والفساد. وجوهر هذا المقياس تحرُّر الأعضاء من "البُطل"؛ لأن غنى مواهب الروح القدس يجعل للأعضاء غايةً جديدةً في الله رغم الموت والخطية، لأن "البُطل" هو قيد الطبيعة وانحصارها في انحلال العبودية مما يمنعها عن الوصول إلى غاية خلقها، وهي الله. **أمَّا الآن، فقد قام المسيح من الموت وقهر الفساد، وجعل الحياة الإلهية هي غاية الوجود الإنساني، وكشف بذلك عن سر خلق الإنسان على صورة الله.**

٣٨- وخضوع الخليقة للبُطل هو خضوع غاية الخليقة إلى الموت؛ لأن عدم الشركة في الله هو سبب انحلال الخليقة وسيادة الموت عليها.

٣٩- أمَّا الآن، فقد قام المسيح وصارت الحياة التي لا تموت هي كمال الوجود، وكمال الحياة؛ لأن الخليقة في المسيح يسوع قد وصلت بالمسيح إلى حياة عدم الموت.

٤٠- وكمال الحياة بالقيامة هو كمال الوجود. وإذ قال الرسول إن الابن له المجد "قد كُمِّل بالطاعة"، فقد أطاع حتى الموت موت الصليب لكي يكمل الخلق الجديد فيه بالانتقال من الموت إلى الحياة الغالبة لكي تتحرر الخليقة من الفساد والموت.

٤١- قام الرب ومعه قامت الطاعة، ولم تعد طاعة العبيد، بل طاعة المحبة. **فقد قبل الابن ما هو ضد طبعه، أي الموت لكي يعطي الخليقة ما لا وجود له في طبعها، أي الحياة التي لا تموت.**

٤٢- أكمل الربُّ التدبير بالموت، ونقل الطاعة من عبوديةٍ للناموس إلى محبةٍ للآب. ولبس صورة العبد لكي نلبس نحن صورة الابن أي صورة من هو حُر بالطبيعة وغير مستعبد حتى للموت، **لأن عبودية الشخص (الأقنوم) للطبيعة هي حالة الخطية، أمَّا تأقنم الطبيعة في الشخص وتحوُّلها إلى حياةٍ شخصية، فهي حالة**

الحرية لآدم الجديد التي كان عليها الرب المتجسد الذي جعل حياته الحرة تؤقنم الطبيعة الإنسانية، وبذلك «جسّد» الحرية الحقيقية؛ إذ جعلها بالمحبة تصبح حرية البذل أي حرية الطاعة.

٤٣- والطاعة الحقيقية هي حرية البذل، أي طاعة الآخر من أجل المحبة، وطاعة الآخر بسبب الشركة، وطاعة الآخر بسبب الوحدة.

٤٤- وعلاقة الطاعة بالمحبة وبالحرية تظهر لنا جلياً إذا جرّدنا الطاعة من الخوف، فطاعة الخوف مصدرها هو طاعة بلا تدخل حقيقي من إرادة الطائع؛ لأن الخائف - بالخوف - يجرد ذاته من حرية الاختيار، أي من الإرادة. وطاعة العبد هي طاعة بلا شركة بين السيد والعبد. وطاعة الخوف للسيد هي طاعة بلا بذل، بل قد تكون عن إكراه. هذا كله غائب عن حياة الرب؛ لأنه غائب من الثالوث، وبالتالي فلا وجود له في حياة الابن المتجسد.

٤٥- أمّا طاعة المحبة، فهي طاعةٌ عن حرية. وهي طاعة لا تجرّد من الإرادة، بل تقوم فيها الإرادة بالبذل بسبب وحدة الجوهر. وهنا، مَن يطيع لا تختلف إرادته عن إرادة مَن يطلب الطاعة؛ لأن في طاعة المحبة تحرّك الشركةُ الإرادة، وهنا في الثالوث الشركة هي شركة إرادة واحدة.

٤٦- قيل إن الرب "وضع نفسه وأطاع حتى الموت"، وعبارة الرسول تؤكد أنه وضع نفسه كمساوٍ للآب لكي يعلن اتضاعه، عن المساواة؛ لأن المساواة هي جوهر الشركة وهي قوة المحبة الإلهية.

٤٧- بطاعة الرب قامت الطاعة من قبر الخضوع المزيّف، أي خضوع الخوف، ونهضت حيةً من ذُل العبودية، وصارت طاعةً قائمةً (من القيامة) من أسر الشخص للطبيعة، إلى أسر المحبة، أي إرادة الشخص للطبيعة، وخضعت بذلك الطبيعة للشركة والبذل، أي للشخص.

٤٨- أمّا أسر المحبة، فهو بلا أغلال وبلا قيود؛ لأن المحبة لا تقبل القيود.

٤٩- أمّا أسر البذل، فهو أسر الشخص أي الأقنوم للطبيعة حيث تأسر حرية

المحبة الطبيعة، وتصبح الطبيعةُ خاضعةً للإرادة، فلا تخضع الإرادة للطبيعة كما في الكائنات غير العاقلة المقيدة بالطبيعة.

٥٠- خضوعُ شخصٍ للآخر هو خضوع شركة وليس خضوع طبيعة لطبيعة؛ لأن الشركة تبقى بالعطاء وبالحرية، أي حرية الإرادة، وليس في الشركة عطاءٌ أعمى تجود به الطبيعة حسب القوانين الخاصة بالطبيعة.

٥١- القيامةُ هي البقاء الأبدي، وهذا ليس قانوناً تفرضه طبيعةٌ ما، بل هبة الله في المسيح، وهو البقاء الحُر بالشركة في الله أي في أقانيم الثالوث. وتبقى القيامة هبة أبدية لأنها:

أولاً: عطاءُ شخصٍ، أي أقنوم المسيح لعطية الحياة، أي عطاءٌ حرٌ نابعٌ من المحبة.

ثانياً: بالقيامة ساد الأقنوم على الطبيعة، أي سادت الحياة على الموت. وبذلك ساد المسيح على الطبيعة المستعبَدة للموت والانحلال. وبسيادة الأقنوم على الطبيعة، صارت صورة الخلود الحقيقي هي الشركة في أقنوم الابن، أمّا صورة خلود الأشرار فهي سيادة الطبيعة، أي عدم الموت على الشخص، حيث تتحقق كلمات الإنجيل: "الدود الذي لا يموت والنار التي لا تطفأ"، أي سيادةُ خلودٍ على طبيعةٍ فاسدةٍ حيث يخضع الأشرار للطبيعة ليس عن اختيار، ولا تقوى فيه إرادة الأشرار على تغيير الطبيعة بسبب عدم اشتراكها في أقانيم اللاهوت.

٥٢- القيامة هي قانون الشركة في الطبيعة الإلهية كعطية. والقيامة هي عطية الحياة التي لا تموت. وصارت قانوناً لا يحكم الطبيعة، بل قانون هبة وقانون عطية؛ لأن العهد والقانون هما واحد؛ لأن العهد هو الرب يسوع المسيح، والقانون هو الوعد والضمان الذي أسّسه الرب بقيامة طبيعة البشر فيه، وهي القيامة التي ساد فيها الرب على الطبيعة الميِّتة وحوّلها فيه إلى حياة، فصارت القيامة «**في المسيح**» و«**بالمسيح**» ولاحظ أن هذه الكلمات تؤكد المصدر والهبة في الأقنوم الواحد.

٥٣- فالقيامةُ هي «**في المسيح**»، أي حيث صار هو ينبوع الحياة التي لا

تموت. والقيامة هي «**بالمسيح**»، لأنه وسيط الحياة، وهو وسيط نصرة المحبة على الانفصال، ووسيط نصرة الشركة على "البُطل"، ووسيط نصرة الحرية على عبودية الطبيعة.

٥٤- كيف ولماذا صار المسيح هو الوسيط الواحد؟

أولاً: لأنه هو وحده الذي جمع اللاهوت بالناسوت في شخصٍ واحدٍ هو أقنومه الإلهي المتجسد. وبهذا صار اللاهوت والناسوت لأول مرة في وحدة لا انفصال فيها، ولا توجد فيها فرصة تراجُع عن تبادل الصفات.

ثانياً: لأنه هو الصورة الإلهية الكاملة أي صورة الآب، وهو الصورة الإلهية الكاملة التي أعطاها هو في البدء للإنسان؛ لأننا خُلقنا «حسب صورته ومثاله». وهو الذي وحده جمع الصورتين معاً في وحدةٍ واحدة. أخذ كيانه الإلهي من الآب وكيانه الإنساني من العذراء، فردَّ بذلك شركة الصورة الإلهية، أي كيانه الإلهي في نعمة صورة الله للإنسان، وهي الصورة التي فقدناها بالسقوط، أي النعمة التي فقدناها بسبب تعدي آدم الأول. **وهكذا نقل نعمة الصورة الإلهية التي لنا إلى الأساس الأزلي، أي صورته الإلهية كابنٍ وحيدٍ للآب**، ولأننا لم نعُد أبناء الآب بعد السقوط، بل صرنا مستعبدين للطبيعة الساقطة، جاء الابن ونقلنا إلى صورته لكي ننال فيه الحرية.

ثالثاً: بالسقوط لم نفقد الصورة تماماً، بل ظلت فينا مثل جذرٍ حي، ولكنه لا ينمو حسب صورة الله غير الفاسدة، بل ينمو حسب صورة عبد الخطية، أي الاستعباد للطبيعة، وبذلك تشوَّهت معرفتنا بالصورة الإلهية.

٥٥- عندما تجسَّد ربنا يسوع المسيح أخذ صورة العبد، أي الطبيعة الإنسانية الخاضعة للموت؛ **لأن الخضوع للموت هو معنى صورة العبد.**

٥٦- حوَّل الربُ هذه الصورة (أي الطبيعة المستعبَدة) إلى صورة الابن، أي الشخص الحر بالإتحاد بها الذي رفعها إلى صورة الابن أولاً: بالحياة التي عاشها. ثانياً: بطاعته للآب. ثالثاً: بقبوله الموت، الداء الخفي الذي علَّم الإنسانيةَ الخوف

وزرع فيها شهوة التسلط ورغبات التملك والقهر، وهي محاولات فاشلة للهرب من الموت.

٥٧- أمَّا الرب الصالح محب البشر، فقد أحب الطبيعة الإنسانية وأقنم هذه الطبيعة وفصلها عن الخطية؛ **لأنه لم يحب الطبيعة الإنسانية المجردة، بل أحبها في شخصه**، ولكي يجعلها في بهاء أقنومه. و لم تكن محبته من أجل قصدٍ آخر غير محبة الآب، و لم يطلب أن يعمل شيئاً بدون الآب؛ لأنه قطع "هوى" القلب بالطاعة، وحصر محبته لذاته في محبة الآب، وأحب ذاته أزلياً بمحبة الآب، ورأى ذاته في الآب و لم يَرَها مستقلةً عن الآب كآدم الأول. وعندما تجسَّد وجد في محبته للآب ومحبته لذاته محبةً واحدة غير منقسمة، ولذلك قال: "لأجلهم أقدِّس ذاتي ليكونوا مقدسين في الحق"، أي حق المحبة الواحدة غير المنقسمة؛ لأن المحبة المنقسمة هي باب الخطية.

٥٨- **لم يكن للطبع الإنساني الذي أخذه الابن من العذراء وجودٌ مستقل، أو كيانٌ خارج أقنوم الابن المتجسد. وهو ما حوَّل الطبيعة الإنسانية فيه - بسبب الإتحاد - إلى طبيعة متأقنمة. هذا التحول، جعل ناسوت الابن ينتقل من الوجود الأول، أي آدم الأول الذي جاء من العدم إلى الوجود الجديد، أي آدم الأخير الذي تكوَّن بالاتحاد بأقنوم الابن، فصار كل مَن يولد من آدم الأخير يولد بالإتحاد بإقنوم الابن. وهكذا نقل الابن كياننا من حياةٍ تموت إلى مصدر الحياة التي لا تموت بالاتحاد الأقنومي لكي به وفيه ننتقل إلى الوجود الحقيقي، أي الوجود كأبناء في يسوع المسيح ربنا.**

٥٩- وبسبب الإتحاد الأقنومي تحوَّل الكيان الإنساني في الرب إلى كيانٍ سماوي لا يموت موت الخطاة، بل يموت بإرادة الابن الحرة، لكي تدفع حرية الابن الموتَ بحرية، ولكي بحرية إرادته يقهر الموت. وعندما أسلم على الصليب جسده المقدس بإرادته وسلطانه (يوحنا ١٠: ١٤)، هزم الموت بإرادته، وحوَّل الناسوت إلى عدم موت وعدم ألم حسب قدرته الإلهية. وهكذا صارت القيامة بقوة إرادة الرب وليس باستسلامٍ لقوة طبيعةٍ، وتحوّل الطبع الإنساني الذي أخذه إلى صفة

أقنومية هي صفة عدم الموت الخاصة بلاهوت الثالوث.

٦٠- لم تكن القيامة هي مجرد قيامة الناسوت، بل قيامة الحياة الإنسانية المتأقنمة بقوة الإتحاد، أي الحياة الإنسانية التي لا وجود لها خارج لاهوت الابن أو بدون لاهوت الابن كلمة الآب. هذا يعني أن القيامة هي عودتنا للشركة في الثالوث، أي شركة الابن الحي قبل تجسده في الآب والروح؛ لكي نعود بالقيامة إلى أصل التدبير (الإيكونوميا) أي إلى ما كان حسب إرادة الثالوث قبل الخلق، أي قبل تكوين العالم. بهذه العودة نستطيع أن نعرف معنى عبارة الرسول: ''دم يسوع المسيح المعروف سابقاً قبل خلق العالم'' وقيامته المعروفة سابقاً قبل خلق العالم كقوة حياة لا يغلبها الموت.

٦١- لنطلب طقس (ترتيب) موت الرب المحيي؛ لكي ندرك به طقس (ترتيب) قيامته المجيدة.

وطقس موت الرب خاصٌ بنا؛ لأننا نحتاج إلى صَلْبه وموته لكي نتحرر بقوة الصليب من الأهواء. وما هي قوة الصليب المكرم إلّا قوة غلبة الموت. وما هي قوة القيامة إلّا قوة حياة الأبد، أي قوة الرب نفسه التي تحرر من الفساد.

٦٢- وطقسُ موت الرب الذي نشترك فيه هو طقس تجرُّدنا من كل صور الحياة القديمة لكي ننال الحياة الجديدة أولاً: بذبح النية. وثانياً: بمعونة الروح القدس. وثالثاً: بقوة الصليب المحيي.

هذه الثلاثة لا تنفصل؛ لأن الصليب هو ختم الروح القدس الذي به تُختم أجسادنا في مسحة الميرون. كما أن الروح القدس هو عطية الحياة التي من الآب ووُهِبَ لنا بالصليب. وذبح النية غير الملتزمة بالمسيح أي تلك التي تتجه إلى أي شيء آخر، هو ذبح الإرادة التي تتكون فينا لأجل غاية أخرى غير الله.

٦٣- ندخل طقس موت الرب ''بالنية'' التي لا تطلب صورة العبد الأول أي آدم بعد السقوط، بل صورة آدم الثاني الرب من السماء الذي ليس عبداً حسب الطبيعة، بل حسب الأقنوم، الابن الذي لبس صورة العبد من أجل خلاصنا،

ولذلك السبب قال الرسول: "ألبسوا الرب يسوع ولا تصنعوا تدبيراً حسب الجسد".

٦٤- وعندما حوّل الابن صورة العبد إلى صورة الابن بالصليب وبالقيامة، جعل هذا التحوّل هو ينبوع الأسرار في الكنيسة، بل أساس الحياة المسيحية وجوهر الكنيسة جسده المقدس الذي هو دائم الولادة والتحوّل من آدم الأول إلى آدم الأخير.

٦٥- بقبول الموت إرادياً يتم "تطقيس" النفس، وبالممارسات النسكية يتم "تطقيس الجسد"، طقسٌ واحدٌ للنفس والجسد.

٦٦- طقس موت الرب هو الموت الإرادي الذي تطلبه النفس بشوق من أجل الأمور الأبدية. يُزرع الموت الإرادي بكلمة الله، وهو يؤسّس ميزان تمييز صحيح "صنجتُه" آلام الرب نفسه التي "تزنُ» أمور الدهر الآتي وتجعلها أثقل من أمور الدهر الحاضر، وتعلن "ثقل" المجد الأبدي كمقابلٍ لتفاهة أمور العالم الحاضر. وكفة الميزان هي القصد. والميزان هو ميزان التمييز نفسه الذي يجعل الكفة الراجحة هي كفة الصليب وآلام الرب.

٦٧- وعندما تنمو الإرادة المتجهة نحو الأبديات في يسوع المسيح، تموت فيها لذة الاستمتاع بالأمور الزائلة، وتجد النفس ذاتها متجهةً نحو الموت بوعي وتسليم، فلا تتراجع عن الأمور الأبدية من أجل الذي مات عنها وقام أي العريس السمائي ربنا يسوع المسيح. عند ذلك ترتب النفسُ طقسها الداخلي مثل عروسٍ، وتتزوج المسيح. ويصبح زواج المسيح بالنفس هو عُرس السماء بأسرها. ومتى تم ضبط طقس الموت الإرادي تتجه النفس نحو الطقس الخارجي، أي الممارسات النسكية التي تمارسها مع الجماعة حسب طقس الرهبنة لأبينا الأنبا أنطونيوس.

٦٨- انقطاع الإنسان عن الطعام يبدأ أولاً بانقطاع العقل عن الكلام، وانقطاع الرغبة في الحياة بعيداً عن المسيح وعن شركة موته وقيامته. فإذا ثُبتت النفس في ذلك، استهانت بالصوم، وفرحت بالإمساك عن كل الأمور الزائلة الدنيا.

٦٩- وطقس الممارسات النسكية الذي هو قانون الجماعة يكون حسب الطقس الداخلي للنية والموت الإرادي مع الرب، ويصبح واحداً معها كمثال اتحاد اللاهوت بالناسوت، بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير.

٧٠- طقس قيامة النفس مع المسيح وبالمسيح هو عيد النفس الذي يسبق عيد الجسد؛ لأن عيد الجسد هو عيد يوم المجازاة ويوم فرح القديسين بالدينونة. أمَّا عيد النفس، فهو عيد الفرح الأبدي الذي يغمر النفسَ من آنٍ لآخر.

يبدأ العيد بصلاة العشية، أي غروب الاهتمامات الباطلة والفرح بعبور بحر العالم وغروب كل ما في الحياة، حتى ما هو صالح منها، لكي يشرق شمس الحياة ربنا يسوع المسيح. ويكمل عيد الفرح بالتجرد الكامل واقتناء ربنا يسوع المسيح نفسه كعريس واحد ووحيد تأخذه النفسُ كميراثٍ سمائي لا يموت، فتفرح به فرحاً لا ينتهي وتشارك الخليقة كلها به مثل تسبيح المزمورً المائة والخمسون.

٧١- ونهاية القداس تشير إلى نهاية زمان الغربة، أي عندما تجد النفس سعادتها في المسيح وتسكن فيه وتترك كل شيء آخر - مهما كان - لأجله. وترى النفس أنها كائنةٌ به وله وفيه. فهي به أي بإرادته، وله لأنها عروسه، وفيه لأنه ينبوع الحياة التي لا تموت.

٧٢- هذه رؤية المسيح الحي التي توهَب للنفس بالروح القدس؛ لأن النفس تسكن وتثبت في المسيح ولا تسكن ولا تثبت في مائتٍ، بل في الحي إلى أبد الآبدين.

٧٣- تستهين النفسُ بالآلام بسبب ثباتها في الحي إلى الأبد، وتفرح بالضيقات لأن "روح الحياة" ليسوع المسيح تجعل حياة يسوع أفضل عند النفس من كل شيء، فلا تنكر قوتها. وعندما نفرح بالمسيح وحده، ندرك أننا أخذنا عربون القيامة؛ **لأن القيامة هي ترك كل الأشياء والتمسك بالمسيح.**

٧٤- يقول الرسول: "صابرين في الضيق". يوجد صبر المصلوب، وصبر القائم من بين الأموات. صبر المصلوب يرى المجازاة ويتعزّى. وصبر القائم من

الأموات يرى الرب وحده ويتعزّى بالاتحاد به.

٧٥- يقول الرسول: "لا نحب بالكلام ولا باللسان ولكن بالعمل والحق». أيُ عملٍ سوى عملُ ذاك الذي مات لكي يغفر الخطايا؟

لنمُت نحن معه، فنغفر كل الخطايا؛ لكي نحيا معه في سلام المغفرة. لنحيا الصليب؛ لكي بالمسيح ننال حياةً جديدةً في الدهر الآتي.

٧٦- قال الرب: "أحبوا أعدائكم". وبمحبة الأعداء نتحرر من شعور البُغضة، ومن سيطرة البُغضة علينا. وعندما نحب الأعداء ندرك احتياج بشريتنا إلى قيامة الرب؛ لأن البُغضةَ موتٌ، فهي تحجّر كل ما فينا، وهي جمود الفكر، وشلل الإرادة أي عجزنا عن أن نتحرر من الخوف وتسلط الفكر الذي يرغمنا على أن نبقى في بئر اليأس.

٧٧- هل تريد أن تعرف مقدار إيمانك بالقيامة؟

تأمَّل قسوة وشدة دفاعك عن نفسك. إذا كنت بريئاً، فلماذا تغضب؟ وإذا كنت مذنباً، فلماذا تحرك الكبرياء أوجاع الداء الخفي، أي رأس أوجاعك؟

٧٨- عندما نغفر للأعداء نتعلم كيف نغفر، وبذلك - من الممارسة نفسها - ندرك رحمة الرب ومحبته.

٧٩- هل تريد أن تعرف إذا كنت قد مُتَّ مع الرب حقاً على الصليب؟

تأمَّل كيف تواجه الموت. ولماذا تحزن لضعف جسدك؟ وكيف تفتقد شهوات قلبك السابقة؟ .. كل هذه علامات تؤكد لنا أن الصليب لا زال فكرةً راسخةً في الفكر، ولم يصل إلى أعماق القلب لكي يحرر القلب من الداء الخفي (الخوف من الموت).

٨٠- على قدر الكبرياء تكون أوجاع الجسد؛ لأن الجسد إذا جُرِحَ لا يتألم إلّا بقدر شعور النفس وتقدير الفكر للجِراح. وهذا من ثمار الكبرياء، لأن الكبرياء تُعظّم جراح النفس والجسد.

٨١- مَن كان جسده عزيزاً عليه أكثر من الحياة الأبدية، لن يقتنِ التواضع، بل يظل في سجن الكبرياء، يخاف أن يمسه سوء، وينسى أنه تراب.

٨٢- تسحق القيامةُ كبرياءَ النفس؛ لأنها تعلن أن مصدر الحياة هو المسيح، وأنه هو حياتنا. ويسحق الصليب عجرفة الفكر وشموخ العقل الذي يرفض العطاء ويظن أن العطاء هو نهاية ما يُعطى ... هكذا مزج الموت بين العطاء والخوف وجعل العطاء بمقدار تحرُّر الإنسان من الخوف.

هذه علاماتُ حياةٍ لم تدرك القيامة من الموت؛ لأنها لم تُصلب بعد. وهي وإن كانت لا تزال في الإيمان، ولكنها مقيدة بالخوف.

٨٣- إذا كان الرب هو فعلاً حياتك، فمَن يمكنه أن يأخذها منك؟ ولماذا تخاف من الغد ومن المرض ومن عدم القنية؟

يا مَن تظن أنك حكيم، ماذا أخذ الوالدون والأصدقاء من مقتنيات معهم إلى الحياة الباقية؟ حارِب الخوف بالصليب، واقتنِ الحياةَ من الذي قال: "أنا هو الحياة"؛ لئلا تقتلك أوجاع الخطية.

٨٤- أقام الربُ المحبةَ نفسها عندما طهَّرها من الأنانية، وغرس فيها الصليب، فأثمرت المحبةُ الذبحَ. وطعَّمها بالقيامة، فأثمرت حياة عدم الموت. هكذا قامت المحبة من موت الخطية الذي تحصَّن في المحبة حتى قتلها.

٨٥- لا تموت المحبة، بل تضعف بالأنانية وبالشهوات. ولا تقوى عليها المخاوف، بل تسجنها مثل عملاقٍ مقيدٍ بأغلال، حتى العداوة لا تقوى على قتل المحبة، بل تقيِّدها. وعندما نحب الأعداء ننتقل من الموت، من الاهتمام بالذات، أي بالبذل إلى الحياة أي الشركة، لأن الذي يغفر هو مَن أدرك موعد الحياة الأبدية في يسوع المسيح ربنا.

٨٦- داس ربنا يسوع الموتَ بالموت بقوة لاهوته الذي لا يموت. ولكنه داس الموت بطاعته للآب، أي بقوة ناسوته الواحد مع لاهوته. وهكذا نحن إذ نصير واحداً مع الرب ندوس الموت بقوة لاهوته التي زُرِعَت فينا بالمعمودية، وبقوة

نعمة طاعته أي طاعة المسيح التي نأخذها من الروح القدس، ومن الشركة في سر الإفخارستيا السمائي، فندوس الموت بقوة طاعة الرب.

٨٧- نحن نرشم الصليب باسم الثالوث القدوس؛ لأن الصليب هو عطية الثالوث للبشرية. هو قوة الخلاص لكل مَن يؤمن. وبرشم الصليب باسم الثالوث نعلن القيامة؛ لأن آخر كلمات الرشم هي "الروح القدس"، أي الاسم العزيز للأقنوم الثالث روح الحياة، روح الرب. وحيث روح الرب لا موت، بل حياة حسب كلمات الرسول: "وروح المسيح الساكن فيكم سوف يحيي أجسادكم الميتة".

لنفرح بالقيامة كلما رشمنا الصليب؛ لكي نأخذ قوة الرب الذي داس الموت، وأعطانا عربون القيامة، أي رشم الصليب.

٨٨- فرحَت الخليقة بمجيء آدم الجديد؛ لأنه جاء بالحياة بعد أن جاء آدم الأول بالموت. وهكذا نحن نرى فرح الخليقة عندما نُسبِّح ونمجِّد الثالوث، ونمجِّد القيامة.

إذا هجمت علينا أحزان هذا الدهر، فلنرشم الصليب بقوة حياة ربنا يسوع المسيح، وننتقل من الدهر المائت الزائل إلى الدهر الجديد الذي هو الآن وكل آن وإلى دهر الدهور، أي نهار الحياة الذي لا يغيب، وعُرسُ النفس الذي لا ينتهي.

٨٩- انتقلنا بالقيامة من ظلال الناموس، أي شريعة موسى إلى نور شريعة المسيح.

علينا أن نلازم الإفراز حتى لا نجعل شريعة الموت التي نُقِشَت على الحجر هي مفتاح فهم وممارسة شريعة الحياة أي شريعة الروح القدس.

وأول ما يجب أن نميِّزه هو أن نفرز الحياة حسب الإنجيل، أي حياة القيامة، وحياة الدهر الآتي، فهذه وحدها هي التي تُظهر لنا ضعف وعجز الشريعة الأولى وكمال ونقاء الشريعة الجديدة، شريعة الحياة.

٩٠- هذه هي شريعة الحياة الجديدة:

أ- كل ما هو حسب الحياة الأبدية هو من الله.

ب- كل ما هو قابل للفناء هو من نصيب التراب.

جـ- كل ما يوحّدنا بالله هو من المحبة، ومتجسد في يسوع. وكل ما يفرقنا هو من الشيطان.

د- كل ما هو من الروح القدس، مقدّسٌ بالطبيعة، وكل ما هو من الشيطان مصدر انزعاج وانقسام وسجس.

هـ- كل ما هو من القيامة يأخذ بدايته من الصليب، فإذا لم يكن له بداية في الصليب، علينا أن نكون على حذرٍ منه.

٩١- هذه هي شريعة الحياة القديمة حسب ظلال الناموس:

أ- تحكم حسب الظاهر، إذ تدين زنى الجسد وتترك زنى النية والقلب.

ب- تغسل الجسد وتعجز عن أن تطهر الروح.

جـ- تحكم حسب الحرف ولا تقبل غاية الوصية.

د- تدين وتحكم ولا تجدد ولا تُعلّم المغفرة.

وهكذا علينا أن نختار تلك التي تقودنا من الصليب إلى القيامة، وتلك التي تقودنا نحو الابتعاد عن الله والاهتمام بالجسد والبقاء في أسر الشريعة؛ لأن الاهتمام بالذات وبالبر الذاتي هو أصل النفاق والشر في قلب الإنسان وضميره.

٩٢- خبز الحياة، أي جسد الرب ودمه، دُعيَ "قوت" وطعام الحياة الأبدية، بسبب قوة القيامة التي في جسد الرب، والتي جعلته طعاماً يهب الحياة. وما هي قوة القيامة الكائنة في طعام الحياة؟ كل ما نأكل يتبدد، أي الطعام البائد الذي قال عنه الرب يترل إلى الجوف ويندفع إلى المخرج. أمّا الطعام الباقي الذي للحياة الأبدية، فهو الذي ختمه الآب حسب قول المخلص بختم الحياة التي لا يقوى عليها الموت، أي الحياة التي أقامها الرب من القبر؛ لأن القبر هو علامة نهاية كل الأشياء. أمّا الرب يسوع المسيح فلم يقوى الموتُ على أن يترع حياته، بل داسه الربُ بقوة لاهوته المحيي وناسوته الذي أخذه من روح الحياة أي الروح القدس، ومن العذراء القديسة مريم.

٩٣- عندما نأكل خبز الحياة، فإننا نبقى في الحياة الأبدية وعدم الموت.

ولماذا نأكل دائماً وفي كل يوم إن أمكن؟ هل لأن الحياة التي أخذناها تقوى عليها الخطية حسب تصوُّر بعض البسطاء؟

الجواب الصادق هو أننا نأكل لكي نحيا، ولكي يستقر في قلوبنا الإيمان الطاهر بأن الحياة التي فينا ليست منّا، بل من الرب يسوع؛ لأن أصل الشر الكامن في قلب الإنسان هو اعتقاده الراسخ بعدم الموت، وبأنه هو مصدر حياته، وأنه حيٌّ بذاته، وهي صورة الإلوهة الكاذبة التي اخترعها آدم، وعنه استقرت في الكيان الإنساني، فصار اعتقاد الإنسان بأنه يستقل عن الله، وأنه حيٌّ بذاته فصارت له شريعة حياةٍ غير شريعة الله، وصار التمييز بين الخير والشر هو تمييزٌ يقوم على تصوُّر مصلحة ومنفعة الإنسان، وهو تصوُّرٌ يلغي الشركة.

من أجل هذا السبب عينه، نحن نتناول كل يوم لكي ندرك أن مصدر حياتنا هو المسيح، ولكي تقلع الإفخارستيا ذلك الاعتقاد الراسخ الكاذب في قلب الإنسان. ونحن لا نعتقد بأن الخطية قادرةٌ على أن تقلع حياة المسيح، وهبة الحياة الأبدية التي أخذناها من الرب، فهي الرب نفسه، حياة دائمة غُرِسَت في سر المعمودية، وتنمو بالطعام السمائي طعام الحياة الباقية، أي جسد الرب ودمه.

٩٤- جاء الربُ وبموته أباد الموت، ودمَّر عرش الخطية المكين وهو الموت، فصارت الخطية بلا قوة، وفقدت قدرتها عندما سبى الربُ الجحيمَ وأبطل حكم الموت، ورفع من حفرة الموت القديسينَ الذين رقدوا على رجاءٍ. هذا الرجاء الثابت في يسوع المسيح ملكنا ومخلصنا، لا يجعلنا نعود إلى حالة آدم الأول، بل نبقى في شركة آدم الحي الرب من السماء.

٩٥- جدد الربُ حواس النفس، وجعل هذه الحواس قادرة على الرؤية، وعلى التعرف على الحياة الآتية التي جذرها في المسيح وأُعلِنت لنا في خدمته ومعموديته وقيامته.

هذه هي حواس النفس الجديدة كما نراها في المسيح:

هي الحواس التي تكوَّنت من إخلاء الذات (فيلبي ٢: ٦) ورؤية الجسد كذبيحة،

وهي قناعة الروح بالتسليم المطلق للآب، مما يجعل رؤية النفس رؤيةً حيةً لا ترى ذاتها قبل رؤية الآب، بل ترى الاثنين معاً. اثنان، لكنهما واحدٌ - على حسب عبارة التقوى الأرثوذكسية - "بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير"، وهو عطاء التدبير. واحدٌ حسب التدبير ومتمايزٌ حسب الطبيعة.

هكذا ترى العينان الشرّ ونفاق الفريسيين وخبث اليهود وطمع يهوذا وخوف بطرس وارتداده وشك التلاميذ، تراقب كل هذه الشرور وغيرها دون أن تتأثر النقاوة الداخلية للقلب؛ لأن الرب كان بلا طمع في القوة، ولم يكن يناقش أحداً ولا طلب مجده، ولذلك لم تحرك هذه الشرور عواطفَ الخوف والريبة والحذر.

ومع أن الإنجيلي المقدّس قال عن الرب إنه لم يكن يأتمن اليهود على نفسه، إلّا أنه لم يفعل ذلك بالشك والريبة والكبرياء التي تحرك أنواع الخوف، ولكنه كان يرى الشرور التي حوله بروح التسليم المطلق للآب السماوي، ولم تخلق فيه هذه الشرور العداوة والريبة وحب التسلط الذي هو نقيض إخلاء الذات، لأن قوة حياة التي لأقنوم الابن الكلمة قدّست الناسوت، ولم تجعله يحيا حسب رؤية آدم الأول، أي الحياة المستقلة عن الله الآب التي خلقها السقوط.

٩٦- كانت حواس الرب وهو في الجسد مقدسةً، ليس فقط بسبب اتحاد اللاهوت بالناسوت، بل لأن الناسوت لم ينشأ ولم ينمُ في عزلةٍ وانفصالٍ عن الآب، بل تكوّن في أحشاء العذراء القديسة مريم بالروح القدس.

كوّن الروح القدس الطبيعةَ الإنسانية، وجعلها إناء حياةٍ للابن الكلمة، فنالت التبني بالإتحاد، وصارت واحداً مع ابن الله حسب تعليم الآباء القديسين؛ **لأن لقب الابن الوحيد هو خاص بالناسوت أيضاً كما هو خاصٌ باللاهوت**؛ لأن ابن الله وحيدٌ بلا شركاء في ميلاده البتولي من القديسة مريم، ولم يُولد من زرع بشر.

٩٧- فَتَحَتْ القيامة - كما فَتَحَ الصليب - حواس الرب الإنسانية لكي يقبل الألم والموت وسائر التجارب. وبسبب اتحاد اللاهوت بالناسوت حدث أمرين كل منهما فائق:

أولاً: قَبِلَ الربُ أن يسلّم إرادته الإنسانية لإرادته الإلهية.

ثانياً: قَبِلَ الربُ أن يسلِّم إرادته الإلهية لإرادته الإنسانية؛ لكي يكون له إرادة واحدة إلهية وإنسانية، حتى لا تكون فيه ثنائية الانفصال التي كانت سبب سقوط آدم.

وحّد ربنا صورة العبد التي أخذها، وجعلها واحداً مع صورة الابن، فرفع بذلك صورة العبد إلى صورة الابن. وتواضُع صورة الابن نراه في قبول الحياة كعبدٍ وخادمٍ غَسَل أرجل تلاميذه بإرادته الواحدة الإلهية الإنسانية. **وتأقنمت صورةُ العبدً فصارت فيه وبه صورة الابن المتجسد، أي صورة العبد الممجد في صورة الابن،** ونالت هذه الصورة فيه أساس وجودها، ولذلك قال وهو يرى مجده الإلهي: "مجِّدني أيها الآب بالمجد الذي كان لي عندك قبل كوّن العالم".

وفتح اتحاد الصورتين في الرب الواحد حواس الرب الإنسانية لترى المجد الحقيقي، أي مجد العطاء والبذل، فصارت له بالإتحاد رؤيةٌ واحدةٌ، وفكرٌ واحدٌ، وقلبٌ واحدٌ ينمو إنسانياً حسب نمو الطبيعة الإنسانية، ولكن بإتحادٍ مع الابن الكلمة.

وماذا حدث لحواس الرب الإنسانية؟ كان الرب يسمع ويرى ويحس ويفكر مثلنا، ولكن بطريقة أخرى سوف تصير طريقتنا، لأنه لم يكن له عقل الإنسان الذي وُلِدَ خارج الفردوس، ولا حتى عقل الإنسان الذي عاش في الفردوس، بل عقل آدم الأخير الذي وُلِدَ والذي ينمو متّحداً بالقوة الإلهية العاقلة.

ولما قال إنه لا يعرف اليوم ولا الساعة (مرقس ١٣: ٣١)، فقد كان يقصد فعلاً أنه لا يعرف اليوم ولا الساعة كإنسان مثلنا، ومعرفته الإلهية التي كانت له قبل خلق العالم، صارت محصورةً في الجسد وقدرات العقل الإنساني دون أن تتحول أو تتغير، بل صارت بحرية تامة تجهل اليوم والساعة مثل باقي البشر؛ لأن الرب أراد أن يأخذ جهل الإنسان لكي يعطي لحواس وقدرات العقل أن تعلو فوق هذا الجهل بالاتحاد بلاهوته وتكسب ما كان الإنسان عاجزاً عنه حتى قبل سقوط آدم الأول.

وهذا أمرٌ عجيبٌ حقاً؛ لأنه – كإله – يعرف كل شيء، ولكنه في تجسده

دخل تحت حدود الزمان، وقَبِلَ أن يقيِّد معرفته بقدرات الإنسانية التي أحبها، و لم يتضايق من هذا القيد ولا اعتبره عائقاً يجب أن يدمره لكي يعلو على أبعاد الزمان ويسمو فوق حدود الإدراك الإنساني بالقوة، بل تذوَّق جهل الإنسان بحريته، ورفع هذا الجهل إلى فوق إلى حيث يمكن للعقل الإنساني أن يرى اليوم الأخير عندما يعلو فوق أبعاد الزمان وقدرات الإدراك.

ومع أنه أخبر التلاميذ عن علامات هذا اليوم ونهاية الأيام ومجيئه للدينونة، إلَّا أنه كان يتكلم كنبي، أي كان يتكلم بالروح القدس وكرأسٍ للأنبياء؛ لأن الأنبياء أخذوا عين الروح القدس التي ترى ما لا يراه البشر. وهكذا قال إنه لا يعرف اليوم ولا الساعة؛ لأنه يقف معنا على قدم المساواة. وهذه هي لذة اللاهوت ولذة محبته للبشر التي تجعله يختبر حدود معرفة الإنسان لكي يحب صنعة يديه ويذوق حقاً ما خلقه. وتأمل كيف يطرح البطل الكبير المفتول العضلات نفسه على الأرض وهو يلعب مع ابنه في فرحٍ وسعادةٍ أمام هجمات طفله الصغير؛ لأنه في هذه الساعة ينسى عن عمدٍ قوته وقدرته ويجعل قدرته محدودة حسب حريته. وهكذا أخذ الرب صفة النسيان من الطبيعة الإنسانية وجعلها واحداً مع لاهوته؛ لكي ينسى اللاهوت حسب التدبير، ولكي يقف عند حدود القدرات العقلية للإنسان، لكي يمهد لنا تجلي هذه القدرات بقوة ومعرفة اللاهوت. وهكذا قيل عن الرب إنه تعِب ونام وجاع وتألم، فذاق بالجسد كل ما لا يمكن للاهوت أن يتذوقه أو يختبره بدون الناسوت. وحقاً إن خالق المعرفة لا يتغير بالمعرفة، أي لا يتغير باتخاذ النسيان الإنساني صفةً له، لأن التغيير بواسطة المعرفة قاصرٌ على الطبيعة الإنسانية التي تنمو، أمَّا الطبيعة الإلهية التي لا تنمو بالمعرفة، بل هي مصدر كل معرفة، تترك ما تعرف عندما تشترك معنا في أحوالنا وفي طبعنا بحرية[٩].

٩٨- ولما قام الرب ونقض "أوجاع الموت" وهدم قوته عندما سمح لقوة الموت أن تجوز فيه، وأن تفصل نفسه عن جسده وتقوده نحو الجحيم، حدث أمرٌ فائقٌ عجيب، إذ استسلم الرب للموت جسدياً ووصلت حياته إلى حافة الهاوية،

٩- يعتبر هذا أهم ما وصلنا عن المسيح له المجد، وهو خريستولوجي متطور جداً له سمات تعليم أثناسيوس وكيرلس، ولكنه أكثر تفصيلاً ويكشف عن جرأة الأب صفرونيوس.

بل نزلت فيها. وحافة الهاوية هي ظلام الموت ونهاية الحياة الإنسانية من الحياة في النور الإلهي التي يشرق فيها النور الإلهي إلى حياةٍ كائنةٍ بدون النور الإلهي. هكذا تخلى الرب عن حياته للظلام والموت رغم اتحاد نفسه وجسده بالنور الإلهي.

هكذا دخل الموت إلى أعماق الاتحاد الأقنومي، وفصل حياة الرب الإنسانية بإرادة الابن ومسرته؛ لكي يبيد الانفصال الإنساني عن نور الحياة الإلهية، ولكي لا يبقى أحدٌ من الذين اتحدوا به غريبٌ عن الاتحاد به وبالآب وبالروح القدس. هكذا قال الرسول إنه نقض أوجاع الموت أي نقض وجع الانفصال عن الله. حدث هذا الانفصال فيه فصار مثل نارٍ اشتعلت في حقل قمح محاطٍ بالمياه من كل جانب، واحترق القمح الذي فيه ولكن المياه المحيطة بالحق أطفأت النار عندما وصلت النار إلى حدود المياه. هكذا أخذ الناسوت من اللاهوت قوة الحياة، وصَب هذه الحياة في الجسد فقام الجسدُ حياً بقوة اللاهوت الذي لا يأخذ حياته من الطعام ولا يستريح بالنوم، بل هو حي بذاته وراحته في المحبة الأزلية. عند ذلك تمجّد الناسوت بحياة عدم الموت، ولذلك قال الرسول في سفر الأعمال إن "جسده لم يرَ فساداً"، ولم يتحلل الجسد رغم خضوعه للموت لكي يعلن بشكلٍ أوفر قوة السر المجيد أي سر الشكر الإلهي الذي فيه وبه ننال الإتحاد بعدم الفساد، ونأخذ شكل القيامة المجيدة التي تُعطى لنا مثل بذرةٍ تظهر كاملةً في يوم الدينونة.

٩٩- وبقبول الرب تواضُع العبد تدرّبت حواسه على سلوك آدم الجديد؛ لكي ينقل هذا السلوك لنا نحن الذين دخلنا معه وفيه فردوس الخليقة الجديدة أو الثانية.

كان الصليبُ مغروساً في ذاكرة الرب، وكانت رؤيته لحقول الحنطة تجعله يرى حياته مثل حبة حنطة تنتظر الحصاد، حصاد حياةٍ لا تموت، وبذلك كان يرى خبز الإفخارستيا الذي كان في تدبيره الإلهي قبل خلق العالم. وهكذا ظل الصليب هو شريعة السلوك اليومي له؛ لكي ينزع من الطبع الإنساني الحياة المستقلة عن الآب، ولكي يغرس فيها الحياة المتأقنمة بالاتحاد لكي تصبح هذه الحياة مثالاً لنا، ولكي توهَب لنا بالشركة فيه.

نحن نشترك في حياته، أي نصير مثله.

١٠٠- ولما كنّا الآن بصدد التعليم عن القيامة، كان من الضروري لنا أن نقول إن حواس الرب الإنسانية تألّهت بالإتحاد وكَمُلَ تألُّه هذه الحواس بعد القيامة؛ لأن الموتَ رُفِعَ، والزمان خضع للتدبير، فصارت حواسه في النور الأزلي للابن الكلمة، فصار يرى كل الأشياء بذات الرؤية الواحدة التي كانت له قبل خلق العالم، وصار يحس بنا إنسانياً حسب عبارة الرسول "يرثي لضعفاتنا" (عب ٤ : ١٥)، ولكن ليس بحسٍ إنساني مثل ذلك الحس الأول "مجرَّب مثلنا في كل شيء"، بل بحس واحدٍ إلهي وإنسانٍي، يجعله واحداً مع كل الذين يأكلون جسده ويشربون كأس محبته أيٍ دمه، ويتّحدون به إتحاد المحبة التي لا انفصال فيها حسب قول الرسول بولس: "لا شيء يفصلنا عن محبة المسيح".

+ + +

المئوية الرابعة

القيامة والإفخارستيا جسدُ المسيح

رسالة الأب صفرونيوس
إلى تلميذه ثيؤدوروس (تادرس)

القيامة، والإفخارستيا جسد المسيح

تحذيرٌ للقارئ:

ما سبق وذكرناه في الفصل الأول (المئوية الأولى عن قيامة الإنسان والكون في المسيح يسوع) هو تعليم لا ينفع المبتدئين، وإنما هو تعليمٌ للشيوخ الذين لهم مواهب عالية روحية تساعدهم على فهم أعمال الرب والإيمان به إلهاً متجسداً من والدة الإله، شاركنا كل ما لنا لكي نشاركه نحن كل الذي له من أمجاد وغنى اللاهوت.

لذلك أتوسل أنا صفرونيوس عبد المسيح أن لا ينسخ أحدٌ كلمات الفصل الأول إلّا للشيوخ، ويكتفي بكلمات الفصل الثاني، فهي أسهل وأقل خطورة على الذين يسلكون مع الرب ويسيرون معه على دربه.

علينا أن نتأمل دقة التعليم الرسولي عن محبة ربنا يسوع المسيح الذي «افتقر وهو الغني». وكيف افتقر؟ وُلِدَ فقيراً في "بيت الخبز"، أي بيت لحم. ونال ذات الحياة الإنسانية المحدودة التي لنا. هذا هو الفقر الحقيقي لأنه أخضع ذاته لكل حدود وقوانين الطبيعة الإنسانية، وصار مثلنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها.

١- كان من المستحيل تماماً على الرب أن يخطئ لسببٍ واحد، وهو أنه - كآدم الجديد - لم يحيا حياةً مستقلةً عن الله الآب[١٠]. فهو الابن الأزلي الكائن دائماً في "حضن الآب"، ولذلك السبب عينه، كانت كينونة الرب الدائمة مع الآب لا تسمح لحياته وكيانه الإنساني أن يوجد بعيداً عن الآب - ليس حسب مسافات الزمان - لأنه لا توجد مسافة تستطيع أن تفصل الإنسان عن الله؛ لأن الله كائن في كل زمان ومكان، وهو خالق الكل، وإنما الانفصال يبدأ روحياً بانتقال الإدراك من الله إلى الذات، وتأمُّل هذه الذات وحُبها بصورة منفردة بلا شركة، كذات فريدة متمايزةٍ لا ترى كيانها المستَمدُ من الله، بل تظن أن كيانها إنما هو مستمدٌّ من الكَون، أوَ من القدرات المودَعة فيها.

٢- هكذا لم يحمل جسد الرب وحياته بذرة الانفصال، أو شكل الاستقلال عن الآب، أو عن أُقنوم الكلمة؛ لأنه بذلك صار غذاءً وقُوتاً لنا في السر المجيد، أي سر الشركة. ولنفس السبب نحن نقول إن أصغر جوهرة في السر المجيد هي جسد الرب؛ لأن الانقسام والانفصال الذي جاء مع الخطية هو الذي يفصل الأجزاء ويُباعد بين الصغير والكبير، ويجعل القسم أو الجزء الأصغر أقل من الجزء الأكبر. فالخطية ترى في المسافة انفصالاً، ولكن المحبة لا ترى المسافة؛ لأنها تعبُر كل المسافات والفواصل. وبالإتحاد بين أقنوم الابن والناسوت الذي أخذه من والدة الإله، اختفت قدرة المسافات والزمان على تعميق الانفصال.

ونحن لا نتناول ولا نوزِّع جسد الرب حسب قوانين الطبيعة المنظورة، بل حسب قانون المحبة الجديدة، وهو قدرة المحبة على أن تجمع دون أن يقوى عليها الزمان أو المسافة؛ لأننا نحن الذين نأكل جسد الرب ونشرب دمه، نحيا فيه دائماً بدون انقطاع، حتى وإن كنا لا نحس بذلك.

هو يرانا ويعرفنا ويتّحد بنا منذ المعمودية المقدسة التي فيها نشترك في بنوته دون انفصال بالمرة عنه، فالمعمودية المقدسة هي التي أدخلتنا في المستوى الأزلي (البُعد الأزلي) الذي يعلو على حدود الزمان والمسافات، والذي فيه انتقلنا من

١٠- راجع: كيف كان الرب يضبط فكره كإنسان؟ حياة الصلاة الأرثوذكسية للمبتدئين، ص ٢٥، فقرة ٩ وما بعدها.

الانفصال الآدمي الأول إلى شركة آدم الجديد الابن الوحيد الذي نحيا فيه وبه ويحيا هو فينا؛ لأنه جمع الأزل وغير المحدود في أقنومه المبارك الإلهي مع الزماني والمحدود في طبعه الآدمي الجديد، ونقل الخليقة الأولى من حدودها القديمة الفانية إلى حدودٍ جديدةٍ يتّحد فيها الأزل مع الزمان إلى أن يُبتَلعُ الزمان في يوم الدينونة، ويتّحد فيها الحي مع المائت إلى أن تُلاشي القيامة العامة كل ما يفصل الحياة عن الموت؛ لأن الموت أبيد في الرب ويُباد فينا كل يوم.

وعندما نتقدّم إلى المائدة السماوية والمذبح الفائق، فإننا لا ندخل كغرباء ولا نتقدم كمفصولين، بل نتقدم كأعضاءٍ حيَّةٍ في جسده الواحد الذي - بقوة سر المعمودية - صار لنا فيه الاجتماع السري الفائق الذي يعلو على حواس الإنسان.

وحقيقة المعمودية تجعلنا جسداً واحداً مع الرب الواحد، ومع كل الذين نالوا هذا الختم السمائي، وتنقلنا من الحياة الأرضية الترابية إلى الحياة حسب الروح القدس. وهذا يعني أننا - منذ المعمودية - صرنا متّحدين بالمسيح، لا بقوة الإرادة الإنسانية وحدها أي إرادتنا، بل بعمل ذلك القادر أن يجمع كل الأشياء ويوحِّدها تحت رأسٍ واحدٍ (أف ١ : ١٠)؛ لأن إرادتنا الإنسانية فيه منذ تجسده، وهو جمَعَنا معاً ومع كل القديسين عندما أخذ إنسانيتنا، **بل مع كل القوات السماوية التي تشترك معنا حسب طقسها في تناول الطعام الروحي حسب عطاء وهبة المحبة الذي لا يعطى بخبزٍ وخمرٍ للقوات السماوية، بل يعطى في التسبيح معلِناً محبة الله الفائقة؛ لأنهم عند تلاوة الصلوات المقدسة، يتناولون معنا ما تعلنه الكلمة بقوة الروح القدس، ويشتركون معنا في السر حسب طقس السمائيين في التسبيح ويعاينون السر الفائق، وبذلك يشتركون معنا دون أن يأخذوا من ذات ذبيحة الكنيسة، أي جسد الرب ودمه، بل يأخذوا من ذات مصدر الذبيحة الأزلية، أي عطاء المحبة.**

وهي ذبيحةٌ واحدةٌ مُعلَنةٌ في الزمان حسب تسليم الرب وطقسه في عليّة صهيون، ولكنها آتيةٌ من الأزل ومن التدبير المعروف سابقاً قبل كون العالم، وهو ما نشاهد قبساً منه في صلواتنا وفي ترتيب التسليم الذي سلّمه الرب نفسه.

فقد جلس مع تلاميذه، وحمل جسده على يديه، وأعطاه بقوة لاهوته، وكَسَرَه بالإرادة دون أن يفصل جزءً منه عن الآخر؛ لأن الإرادة لا تُفصَل؛ فهي قوة واحدة، وقوة الحياة في الجسد الواحد تجعل كل عضو في الجسد حيًّاً بذات الحياة. والإرادة هي التي توزِّع الحياة على كل الخليقة وتعطي الوجود لما هو آتٍ وتحفظ الخليقة من العدم. بهذه الإرادة الحية الواهبة الحياة، حمل الربُ جسده وأعطاه لتلاميذه الأطهار وكسره دون أن ينكسر، بل لكي يوزِّعه ميراثاً للجميع وعطيةً حرةً غير مقيَّدةٍ بمكر وخبث اليهود، وخوف بيلاطس، وخيانة يهوذا؛ لأن المحبة تُعطي دون إكراه. **وكَسَرَ جسده ليوزِّعه؛ لأن طقس الكسر لا يعلن الانفصال، بل التوزيع، فلا انفصال في المحبة، بل توزيع هبة الحياة.**

٣- لقد وزَّع الربُ جسده مؤكِّداً أنه هو الرأس الذي تأخذ منه كل الأعضاء الحياة الواحدة. وكما خَلَقَ من العدم وأعطى الوجود لكل الكائنات، كذلك أعطى لكل الذين اشتركوا في وليمة علية صهيون، الوجود في وليمة الحياة الأبدية. وأعطى أيضاً عطية الشركة في الوليمة، فرسم بذلك – من جديد – الخليقة الأولى التي نالت الوجود والشركة، وصارت تنال الوجود بالدعوة: "خذوا"، والشركة: «بتوزيع هبة الجسد والدم»، فتم رسم الخليقة الجديدة على أساس الأولى القديمة، وجدَّد بذلك الخَلق الأول عندما جلس معنا عند المذبح لكي يوزِّع علينا جسده، ولذلك قال الإنجيلي: "ولما كان المساء اتكئ يسوع مع تلاميذه"، فرسم بذلك نهاية الرمز، أي فصح اليهود، وجلس كملكٍ يوزِّع هبات الملكوت ويعطي أعزَّ هبةٍ، وهي حياته الإلهية بعد أن وزَّعها بالتعليم ومعجزات الشفاء.

٤- لقد رَسَمَ الربُ أن تكون حياته طعاماً لكي يبيد كل أنواع الانفصال الذي جاء مع الخطية، ولكي يحرر الإنسان من الداء الخفي القديم الذي لا يمكن أن يُقلع إلَّا بالعطية.

رَسَمَ الربُ أن يعطي جسده لكي نحيا به حياةً أبديةً لكي نأخذ، ليس فقط رسم ورتبة القيامة كتعليم، بل رسم ورتبة القيامة نفسها التي نذوقها عربوناً حيث يُظهر لنا أن عطية الحياة، إنما هي هبةٌ من المسيح تأتي منه كرأس الجسد.

٥- حسب الظاهر، الربُ الآن في السماء، رأساً للخليقة الجديدة. وحسب الحقيقة، أي السر، هو أيضاً على الأرض يرسل حياته مثل نور الشمس لكل الذين يريدون أن يأتوا إليه بإيمان ومحبة. وكما أنه من الصعب أن نفصل الرأس عن الأعضاء، ولا توجد مسافة أو زمن بين رأس الجسد والجسد، بل رأسٌ واحدٌ لجسدٍ واحدٍ، هكذا لا يمكن أن نفصل الرب عن الكنيسة.

٦- لا تخضع وحدة المحبة لترتيب اتصالات واجتماعات الماديات، بل للمحبة الإلهية طقس الوحدة حسب عمل الروح القدس الذي أسَّس الكنيسة المقدسة أولاً بتجسد الكلمة كآدم الجديد، الذي يجمع نسل آدم الجديد المولود من الماء والروح كمثال ميلاده من العذراء، **والذي جعل آدم الجديد هو الجذر الجديد للإنسانية والأصل الذي ينقل منه الروح القدس إلى كل الأغصان الحياة الغالبة الموت، أي حياة الرب**، وهي حياة غالبة لكل أنواع الانفصال، انفصالات الخطية، انفصال الروح عن الجسد، والجسد عن الله، والإنسان عن الله مصدر الحياة.

٧- أعطى الروح القدس - روح الحياة - لكل المؤمنين حياة عدم الموت في المسيح. هكذا تم التآلف بين روح الحياة والقيامة التي لا موت فيها، فصارت قيامة الرب هي الالتقاء بين روح الحياة أي روح يسوع أي الروح القدس، والمؤمنين بالمسيح في حياة واحدة إلهية متجسدة في الرب، وإنسانية متألّهة فينا.

٨- حسب الظاهر، تجمع الصلواتُ الربَّ بالمؤمنين أعضاء جسده. وحسب الحقيقة - أي تلك التي يعلنها "روح الحق" - نرى هذه الأعضاء كائنة في فكر المسيح وفي محبته، فهو يعرف خرافه ويدعوها بأسماء، ويخرج أمامها ويسير قدامها لكي يرتب لها طريق الخلاص. هكذا الروح القدس يعرف ما هو الكائن في فكر الرب وقلبه ومحبته، ويعطي كل الذين يحبهم الرب، ويجمع الكل بالكلمة وبالسر المجيد معلِناً الأساس الأزلي لهذه الوحدة التي تمت حسب التدبير في الزمان.

٩- حسب تسليم الرب، نرى أنه هو الذي قال: "خذوا كلوا هذا هو جسدي"، وبدون هذه الكلمات يتعذَّر علينا أن نقدِّم القربان؛ لأننا بقوة الدعوة نأتي إلى هذه العطية السماوية. وتأمَّل، إن هذه الكلمات قيلت مرة واحدة في

العلية، وقوة استمرار العطاء ليس في عدد المرات التي تقال فيها، ولكن قوة العطاء في بقاء المحبة التي غلبت قوة الانفصال. وقوة الكلمة في دعوة الرب، وهي دعوة جذرها الإرادة الحية التي لا تتراجع ولا تتردد، لأنها إرادة الحي الواجب الوجود الذي لا يعرف الخوف والشك ولم يقع تحت أسر الموت.

١٠- الروح القدس كائنٌ مع الابن ومع الآب منذ الأزل، وهو الذي كوَّن ناسوته في بطن البتول، وهو الذي مسحه في الأردن، وهو الذي يعطي لنا جسد الرب لأنه هو الذي كوَّنه، لذلك نستدعي الروح لكي ننال قوة الوعد والدعوة: "الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة". وعندما يحل الروح القدس، ينقل قربان الكنيسة إلى جسد الرب ودمه، أي يدخل إلى دائرة الأزل، حيث يملك الروح القدس رب الكنيسة ومؤسِّس جسد الرب لكي يعطي لنا شركةً في جسد الرب.

١١- عندما جلس الرب مع تلاميذه، أعطاهم جسده ممزوجاً بقوة الصليب، أي قوة البذل؛ لأن الصليب لم يفارقه، بل أعلنه لنا طريقاً وشريعةَ تلمذةٍ، وسلَّمه إلينا ترتيباً إلهياً في الكنيسة. ولما كان الصليب في فكر الرب وقلبه عندما أعطى جسده ودمه في علية صهيون، أعطاه لنا الجسد والدم والصليب ممزوجاً في هذا السر بمحبته للبشر غالبة الانفصال.

١٢- وكانت قوة القيامة أيضاً في علية صهيون؛ لأنه بصوته المحيي أعاد لعازر من الأموات، والذين لمسوه نالوا الشفاء. وهكذا كانت قوة الحياة التي في الرب تُعلَن لنا حسب التدبير. وهكذا بصوته أُعطى القيامة ومزجها بالسر الإلهي؛ لأنه بقوله: "هذا هو جسدي الذي يكسر عنكم وعن كثيرين يُعطى لمغفرة الخطايا هذا اصنعوه لذكري"؛ أعلن القيامة، لأنه قال أيضاً: "مَن يأكلني يحيا بي"، وأيضاً: "وأنا أقيمه في اليوم الأخير". ولأنه هو القيامة والحياة، صارت عطية الجسد والدم في علية صهيون هي عطية حياة وقيامة منذ أن نطق بكلمة: "هذا هو جسدي .. وخذوا كلوا".

١٣- وبكلمات الحياة أعطانا قوة الاشتراك في جسده المصلوب بالإرادة والنية، وقوة الاشتراك في قيامته في جسده المحيي الذي لم يرَ فساداً، والذي شفى

كل من لمسه قبل أن يُصلب.

١٤- لم يكن الصليب عملاً خارجياً تم خارج حياة الرب، بل كان إعلاناً له أصلٌ في جوهره وفي حياته الإلهية المتأنّسة. **بدأ الصليبُ بإخلاء الذات عندما صار الربُ بشراً مثلنا**. بدأ عند بيت لحم، وأُعلِن بشكلٍ ظاهرٍ في معمودية الرب؛ لأنه أخلى ذاته لكي ينال قوة ومسحة الروح القدس لكّي يعمل معه الروح القدس حسب شركة الحياة الإلهية الواحدة للثالوث. وبإخلاء ذاته لقبول مسحة الروح القدس، نقل هذه المسحة إلينا، وقَبِل الروح القدس لأجلنا لكي نقبل نحن غنى الروح كما قَبِله هو. وبقوة الروح - كما يقول الإنجيلي لوقا - رجع يسوع من البرية (لو ٤ :١) لكي يبدأ الكرازة بعصرٍ جديدٍ للروح القدس. هكذا كان إخلاء الذات مُعلَناً بقبول الرب قوة الروح القدس، والتخلي عن قوته الذاتية لكي يُمسح، وننال نحن بهذا الإخلاء شركةً في مسحته الإلهية.

١٥- جاء الرب - حسب التدبير - لكي يصنع المعجزات والشفاء، ولكي ننال نحن فيه التحرر من الفساد ومن الموت. وقال إنه بروح الله يخرج الشياطين، مؤكّداً بذلك عمل الروح القدس فينا بعد صعوده إلى السماء؛ لأنه قَبِل هذا الروح منذ ولادته، بل منذ الحَبَل به.

قَبِله مكوّناً لجسده ونفسه الإنسانية لكي تعود الإنسانية إلى أصلها الإلهي بالروح القدس، أي الصورة التي وُهِبَت. وقَبِله في مسحته لكي تنال الإنسانية فيه - أي في يسوع - المسحة، وهي شركتنا في الروح القدس.

ولما جاء الرب إلى الجلجثة، أعلن هناك على الصليب إخلاء الذات بكلمات المزمور: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟»، وحقاً كان يخاطب الآب؛ لأنه عندما أخلى ذاته - حسب تدبير تجسُّده - كان قد وصل إلى عمق الإخلاء الذي يختبره القديسون الذين صرخوا ذات الصرخة المدونة في مزمور (٢٢: ١)، وهي كلماتُ حقٍ وليست مجرد نبؤة، بل كانت صرخات القديسين الذين عرفوا تخلي الله عنهم في ساعات الألم والموت. وفي هذه الساعة بالذات كان انفصال الموت قد اقترب، ودخلت نفس الرب الإنسانية «وادي ظلال الموت" دون أن تخاف، وبهذه

الكلمات أعلن الرب أنه يسير نحو الهاوية، ولما وصل إلى نهاية الطريق قال: "قد أُكمل" وأسلم الروح في يدي الآب الذي قال له من قبل: "في يديك استودع روحي". وهكذا وصل الصليب إلى كمال إخلاء الذات ببذل النفس والجسد روحياً في العلية، وعلانيةً على الجلجثة.

وهكذا، سبق الرب ورأى موته وقيامته بالروح عندما سلّم لنا جسده ودمه بكلمات إرادته ونيته: "خذوا كلوا .. خذوا اشربوا ..»، فأكّد بذلك الإخلاء التام؛ لأنه لم يعد يقبل أن يحفظ حياته لنفسه، أو أن يكون رأساً بلا جسد، أو ينبوعاً لا يفيض بالصلاح، أو بحرَ محبةٍ يحفظ خيراته لنفسه، فأعطانا جسده ودمه وفيهما سر الصليب وقوة القيامة.

١٦- ولما مزج الربُ في عليّة صهيون صليبه وقيامته معاً في سر الشكر الإلهي، وحمل جسده على يديه مستودِعاً إياه قلوب التلاميذ، أعلن اتحاده بهم قبل صلبه على الجلجثة، لأنهم معه في صليب محبته منذ بيت لحم، بل قبل كل الدهور، ومعه عندما دعاهم وعرفهم وأعلن لهم سر محبته، واشتاق أن يعطي لهم حياته.

كانوا فيه، أي في قلبه. وكان هو فيهم بالكلمة وبالروح القدس وبالمحبة وبالسلطان الإلهي الذي قبلوه. وكان من الضروري أن يُعلَن كل هذا لنا وللعالم كله. فأعلن الرب سر محبته ونقل الإتحاد من السر إلى العلانية، ومن رتبة العلاقة الخاصة بالتلاميذ إلى رتبة العلاقة الكونية بالكنيسة؛ لأنه كان يرانا نحن الآتين إلى حظيرة الخراف بواسطة تعليم الرسل القديسين.

١٧- هكذا نقل الرب إعلان صليبه من عليّة صهيون إلى الجلجثة لكي نرى الإعلان الواحد لمحبته في جسده ودمه اللذين سُلِّما لنا بكلمات المحبة في العلية، وسُلِّما لنا - بسر الألم والموت على الجلجثة - جسدٌ واحدٌ ودمٌ واحدٌ لربٍ واحدٍ. سرٌ محبةٍ واحدةٍ أعطاه لنا نحن الذين ندخل إلى ذات الشركة مغتسلين بآلامه وموته لكي نحيا بقوة قيامته.

١٨- لا ثنائية في طبيعة المحبة، فهي لا تقبل التقسيم. ولذلك، عطاءُ المحبة هو عطاءٌ واحد. وما حدث في العلّية لا يختلف جوهره عما حدث على الجلجثة

عندما عُلِّق الربُ على عود الحياة، أي الصليب المكرم.

يختلف الطقس باختلاف الشركة، وباختلاف الإعلان.

الإعلان الأول والطقس الأول كان مع الأحباء، مع الرسل، ومع الكنيسة.

الإعلان الثاني والطقس الثاني كان مع الأعداء .. وكانت المحبة واحدة.

الطقس الأول هو طقس حرية الاختيار، والطقس الثاني كانت فيه الحرية مستترة عن عيون الأعداء. عطاءُ العلِّية هو ذاته عطاء الجلجثة، ولكن الخدمة الإلهية في العلِّية تختلف عن الخدمة الإلهية في الجلجثة؛ لأن الثانية لم تكن مع الذين ساروا معه مسيرة التعليم وعاشوا معه.

١٩- اختار الرب ترتيب العلِّية لعطاء الحرية، واختار اليهود ترتيب الجلجثة للقضاء عليه. وحقاً حدث أمرٌ عجيب، إذ اتفق اليهود مع الرومان على صلب الرب، فصاروا بذلك واحداً دون أن يعرفوا. ودون أن يعلموا، تصالحوا في الصليب وأسَّسوا شريعة المصالحة بخبث ونية القتل، ولكن الرب حوَّل هذا إلى تدبير مصالحة الشعب مع الأمم، وغَرَس سلامَ الحياة الجديدة.

٢٠- مدَّ الربُ يديه، وسلَّم بيديه جسده المقدس ودمه الكريم. ومدَّ يديه على الصليب وسلَّم جسده المقدس ودمه الكريم، فأذنَ لنا أن نكسر الخبز جسده المقدس، وأن نشرب الدم الكريم. هذا سهلٌ؛ لأن المحبةَ تستطيع أن تدرك هذه الحقيقة. أمَّا الدم - وهو قوة الحياة - فيعطى دون سفكٍ ظاهرٍ؛ لأن الحياةَ تُعطى بالكلمة وبالشركة وبالخدمة، وقبل كل هذا وذاك بالمحبة.

٢١- يقول الرسول: مقارنين الروحيات بالروحيات، ولذلك علينا أن ندرك - بمقارنة سُكنى الروح القدس فينا - التناول المقدس. فالروح يسكن فينا دون أن ينفصل عن الآب والابن، ودون أن ينقسم. هكذا - بالمقارنة - ننال الجسد والدم؛ لأن جسده ودمه لا يمكن أن ينفصلا عن لاهوته، بل يحمل كلاهما - كذبيحة واحدة - حياة ربنا يسوع الإلهية المتجسدة.

٢٢- سفَكَ الربُ دمه دون ذبحٍ خارجي؛ لأن الذبح الداخلي تم حسب إرادته قبل خلق العالم.

ذبحٌ واحدٌ أُعلن في العلّية، وعلى الجلجثة.

الأول للأحباء من أجل الشركة، والثاني للغرباء لكي يفهموا سر الألم والمعاناة. وفي الإعلان الثاني تم لقاء المحبة مع العداوة، الرحمة مع البغضة، النقاوة مع الخبث، الحق مع الكذب، الحياة مع الموت؛ لكي ينال الذين يأتون إليه العزاء من الإعلان الثاني، وبه يدخلون الإعلان الأول بفرحٍ سمائي.

٢٣- الإعلان الثاني هو طقس الخارجين عن شركة الابن الوحيد، وكثيراً ما يقودهم إلى الإعلان الأول.

٢٤- يقبل الربُ كل الآتين إليه بتوبةٍ وإيمان. والتوبة أحياناً لا تقلع جذر الخطية لأنها حسب محبة التائب، ولكن رغم ذلك يعطي الرب جسده ودمه إلى كل الذين يأتون إليه؛ لأنه قال: "مَن يُقبِل إليّ لا أخرجه خارجاً" (يو ٦: ٣٧). وقال أيضاً: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (مت ١١: ٢٨).

٢٥- عندما يقول الكاهن: «القُدْسات للقديسين»، فإن هذا الإعلان يقابله رد الشعب: «واحدٌ هو الآب القدوس، واحدٌ هو الابن القدوس، واحدٌ هو الروح القدس»، مؤكّداً أن قداستنا هي من الثالوث الذي وحده هو القدوس، وإننا لا نتكل على برّنا للتناول من الذبيحة، بل على رحمة ومحبة الرب للبشر.

٢٦- الإفخارستيا هي طعام التائبين، ومنع هؤلاء من التناول هو قتلٌ روحيٌ يُحَاسَبُ عليه القاتل. ولم يمنع شيوخ الدير أيّاً منّا من التناول إلّا مَن أظهر عدم إيمان. وهذا كان يُقابَل بمحبةٍ غافرة لكي يعود بمحبةٍ إلى المسيح؛ **لأن اللوم يزرع طلب البر الذاتي والسعي إليه في قلب مَن ينال اللوم. أمّا المحبة فهي تُغذّي تواضع القلب.**

٢٧- يقول الرب: «اسألوا تُعطَوا". ونحن نسأل خبز الغد، أي خبز الحياة الآتية؛ لأن "اليوم" هو "يوم خلاص". أمّا "الغد"، فهو ذلك الذي نرتّل له: "وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي".

٢٨- عندما نتكلم عن جسد ودم ربنا يسوع المسيح، فنحن لا نتكلم عن الناسوت دون اللاهوت؛ لأن الربَ لم يكن إنساناً وبعد ذلك صار إلهاً، بل منذ أن حُبِلَ به، هو الإله المتجسد الذي لم ينفصل لاهوته عن ناسوته لحظةً واحدةً، ولا طرفة عين.

وهكذا نحن لا نتناول الناسوت دون اللاهوت، ولا اللاهوت دون الناسوت. لأن التعليم الأول هو تعليم نسطور المنشق عن تعليم الكنيسة الجامعة. والتعليم الثاني هو تعليم أوطاخي الذي أنكر تجسد ابن الله. أمَّا نحن، فإننا باستقامةٍ أرثوذكسية، نتناول عمانوئيل إلهنا المتجسِّد، فنصير واحداً معه حسب وحدته مع الآب والروح القدس، وأعضاء في جسده حسب قانون التدبير الإلهي.

٢٩- عندما نأكل الخبز السمائي، فنحن نأكل "الخبز النازل من فوق"، من عند الآب، أي "المَنّ السمائي"، ونشرب كأس محبته الذي فاض من جنبه بحياة عدم الفساد. فلا يظنن أحدٌ أننا نتناول عناصر فاسدة تفسد، بل نتناول الرب نفسه وننال شركةً في حياته.

٣٠- يؤكِّد وجود الخبز على المذبح أن الرب هو «غذاءُ» الروح والجسد، والكأس هو غذاء وفرح القلب والجسد.

لِنأكل لكي نشبع روحياً، ونشرب لكي نفرح إلى الأبد "فرح الرب هو قوتنا".

٣١- رَفَعَ الصليبُ الموتَ، وبذلك رفع كل حواجز وموانع الإتحاد، فصار سر موت الرب هو سر إتحادنا به؛ لأننا بموته ندخل حياة عدم الموت. ولمَّا أباد الربُ الموتَ رفع كل موانع الإتحاد به.

٣٢- بالصليب وبالقيامة صار الربُ "رأسَ الجسدِ»؛ لأنه هو رأسُ الخليقةِ كإله، وبتجسُّده صار البِكرَ، وبموته نال سيادةً خاصةً على الموت، وبقيامته نال سيادةً على الهاوية وأباد الفساد وفتح طريق شجرة الحياة، وأسَّس بذلك قوة الحياة التي تجمع، وأسَّس عِزة آدم الجديد الذي يسود على الكل.

٣٣- كلما نتناول نمتلئ من الروح القدس الذي رتّب الأسرار، وهيّأ جسد الابن، وأعلن ربوبيته، ومسحنا في المسيح. ومن المسيح، وبالروح القدس، نميّز جسد الرب ودمه.

٣٤- الصوم قبل التناول هو ترتيب المتقدمين؛ لأن سفر الخليقة يقول: "في البدء خلق الله السماوات والأرض". فالسماء سبقت الأرض، والحي سبق المائت، وعديم الفساد، أي ابن الله سبق الفاسد.

لِنصم لكي نأكل خبز الحياة قبل ثمرات الأرض.

٣٥- الصوم المقبول قبل التناول هو أن نغسل العقل من كل فكرٍ رديء، وآذاننا من سماع، حتى ما هو مقدس، وأن نملأ القلب من الهذيذ ومن كلمة الله الحية.

لِنطلب الربَ وحده، فهذا هو الصوم الحقيقي الذي يسبق الانقطاع عن طعام الفم.

٣٦- إنكار الذات يضبط اللسان. وضبط اللسان يؤدّي إلى إنكار الذات عند الفاهمين. ومتى تناولنا، لِنغلق أفواهنا عن كل ما هو باطل.

لِنأخذ طعام الحياة لكي ندرك أنه لا حياةَ فينا بدون الرب.

لِنحيا في المسيح وبالمسيح لكي نتعلم إنكار الذات الحقيقي.

مَن لا حياة فيه لا يتشامخ ولا يخاف ولا يغضب؛ لأن الحياة التي فيه ليست منه وهي ليست له، بل لمن مات وقام لكي يعطي لنا حياةً أبديةً.

٣٧- يُقاس جحد الذات بعطية الإفخارستيا. فكما أن الرب أحب ذاته وقدّمها عطيةً، هكذا علينا أن نحب ذواتنا وأن نقدّمها عطيةً للآب في ابنه يسوع المسيح، وبإلهام روح يسوع المسيح، أي الروح القدس.

٣٨- لأن الرب يسوع يحب نفسه؛ لذلك قدّم ذاته ذبيحةً.

لِنحب أنفسنا، وبالمحبة المصلوبة مع يسوع، نقدّم ذواتنا ذبيحةً لكي ننال حياة الدهر الآتي.

٣٩- يقول الرسول: "المحبةُ تطرح الخوفَ خارجاً»؛ لأن الإفخارستيا هي دواءٌ وترياقٌ يشفي محبتنا من كل أمراض الخوف والأنانية والسُّبح الباطل.

٤٠- هل تريد أن تعرف كيف يحب الرب ذاته؟

اسمع صوته وهو يقول: "أنا والآب واحد"، ومِن هذا الصوت تدرك لماذا قال الرسول إنه هو "الخبز النازل من فوق"، وإنه "خبز الآب السماوي"؛ لأننا عندما نشترك في جسد الرب، فإننا نشترك في محبته للآب والروح القدس، كما نشترك في محبة الآب والروح للرب يسوع المسيح.

٤١- يحب الآبُ الابنَ الوحيد، ولذلك يجعله طعاماً لحياة العالم كله.

ويحب الروح القدس الابنَ الوحيد؛ لذلك يقدِّس قربان الابن.

ويحب الابنُ الآبَ والروح القدس؛ لذلك يجمع أعضاء جسده، أي الكنيسة ويقدِّمها للآب قربانَ محبةٍ في الروح القدس.

٤٢- عندما نجتمع في الكنيسة حول مذبح الرب، فإننا ندرك سر اجتماع الرب بنا نحن البشر:

أولاً: من إعلان محبته الذي يؤكِّد سر وجوده معنا في السر المجيد، فهو يقول: "أنا هو الراعي الصالح والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف".

وثانياً: من هبة محبته، أي موته المحيي الذي فيه أباد الموت لكي تبقى محبته الأبدية.

وثالثاً: من قيامته؛ لأنه صار رأس الجسد أي الكنيسة لكي يجعل لها رؤية سماوية من خلال وجوده كرأسٍ حيٍّ في السماء. ومن فوق ننال ما يريد الرب لنا أن نراه حتى يكمل زمان المغفرة وتعود الخليقة إلى الآب، فنرى كل شيءٍ كاملاً.

٤٣- عندما يُقسِّم الكاهنُ جسدَ الرب في السر المجيد، فهو يعلن ليس انفصالَ أجزاءٍ عن بعضها، بل تمايُز أعضاء جسد الرب. ويعلن ميراث كل متناول؛ لأنه يعطي لكل متناول جسد الرب يسوع ودمه الكريم.

وحقاً لا ينقسم الرب ولا يتعدد، بل يجمع المنقسمين ويوحِّد المتفرقين؛ لأنه

هو الرأس الذي منه كل أعضاء الجسد.

٤٤- عندما نأكل معاً الذبيحة المقدسة، فإن ثلاثة أسرار تحدث معاً في وقت واحد:

أولاً: سر عودتنا إلى الرأس، أي المسيح الذي منه أخذنا وجودنا الجديد حسب قول الرسول: "إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة" (٢ كور ٥: ١٧)، وهذا لا يعني أننا انفصلنا عنه، فلا شيء يفصلنا عن المسيح كما يقول نفس الرسول (رو ٨: ٣٥).

وثانياً: سر ثباتنا في الثالوث؛ لأننا بالوسيط الواحد ربنا يسوع المسيح، نثبُت.

وثالثاً: سر اتحادنا بالرب الذي هو اتحادنا بالثالوث؛ لأننا به، أي بالمسيح ندخل شركة محبة الآب بابنه بالروح القدس، إذ يرانا الآب أعضاء جسد ابنه الوحيد.

٤٥- وفي سر عودتنا للرأس تتجدد فينا قوة قيامة الرب وشركة آلامه.

وفي سر ثباتنا في الثالوث نغتسل من كل نجاسةٍ ودنسٍ، وننال مغفرة الخطايا.

وفي سر اتحادنا بالرب، ننال كل الإعلانات والمعرفة السماوية التي تؤهّلنا لميراث الملكوت.

٤٦- قال الربُ: "أنا هو القيامة والحياة"، وبذلك أكّد أنه لا توجد لنا قيامة بدون شركتنا في قيامته التي قال الرسول عنها: "مات من أجل خطايانا وأُقيم من أجل تبريرنا" (راجع رو ٤: ٢٥)، أي تبرير الحياة من الموت. وهكذا نأكل خبز الحياة الذي لا يموت مَن يأكله، بل ينال القيامة من الرب.

٤٧- نحتاج إلى التناول دائماً، ليس لأن خطايانا وأسقامنا تقوى على نعمة الرب، بل لأننا كلما زاد عطشنا إلى محبة المسيح، قويت فينا إرادة الحياة، وزادت فينا رغبتنا في الشركة.

لِنطلب الرب دائماً ونأكل هبة الحياة أي جسده؛ لكي تحيا نفوسنا وأجسادنا بحياته التي لا تموت، بل قهرت الفساد.

٤٨- مِن الرب نفسه نأخذ بتوليته، وهي وإن كانت سلوكه وحياته، إلّا أنه أسَّسها وزرعها في الخليقة الجديدة مؤكّداً لنا هذا بقوله عن القيامة: "لا يزوِّجون ولا يتزوجون بل يكونوا كملائكة الله". وبهذا صارت هذه الحياة الملائكية تُزرع فينا، ونرى ثمرها الكاملة يوم الدينونة، وهي، أي الحياة الملائكية، تقاتِل شهوات الخليقة القديمة.

وعندما زرع الرب البتولية في آدم الجديد، صارت لنا جميعاً حتى للذين ارتبطوا بالزيجة. ونناها نحن في الحياة الرهبانية؛ لأننا جميعاً نتّحد بجسد الرب يسوع المسيح البتول الكامل الذي أخذه من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم. ونحن نأخذ هذا الجسد ذاته من الروح القدس، ومن الرب نفسه الذي يوزّع علينا جسده لننال فيه بركات حياة القيامة.

٤٩- يحل الروح القدس على القرابين في الخدمة الإلهية المقدسة (القدّاس) لكي يسلّمنا جسد الرب ودمه؛ لأنه هو ذاته - أي الروح القدس - الذي سلّم للابن الوحيد جسده ودمه وكل ما يخص إنسانيته، أي إنسانيتنا. وكما استلم الرب جسده ودمه من الأقنوم الثالث، هكذا نحن نأخذ جسد الرب ودمه، أي جسد الأقنوم الثاني بعطية وموهبة روحه القدوس، أي الروح القدس.

٥٠- عندما نتناول، فإننا نأخذ حياة الرب كلها: سر ميلاده من البتول، وسر معموديته، وغلبة الشيطان في البرية، وصومه، وصلاته، وموته المحيي لأجلنا، وقيامته، وعظمة ومجد صعوده إلى الملكوت. وتظهر حياة الرب فينا حسب أعمارنا وخبرتنا واشتياقنا، ولكن في نهاية هذا الدهر عندما يطل علينا نور الأزل، سوف "نكون مثله" كما قال الرسول.

٥١- يأخذ المتزوجون بتولية الرب بالالتصاق بزوجة واحدةٍ في قداسة ومحبة المسيح؛ لأن الرب الذي خطب وتزوج الكنيسة، ويقيم حفلَ زواجه ووليمة عرسه في القداس الإلهي، يعطي البتولية لكل الكنيسة، أي الزهد في إرضاء الشهوة، والعفة في السلوك، في الأموال، والكلمات، والطعام، والحرص على أوقات الصلاة وخدمة الإخوة. هذه هي مكونات (حرفياً عنصر) البتولية.

٥٢- ونأخذ نحن الرهبان بتولية الرب في حياة الدير في الانقطاع عن العالم تماماً والزهد في الصالح والمقدّس نفسه مثل الزواج والعمل وسائر المقدّسات.

٥٣- عندما يسلّمنا الروح القدس جسد ودم عمانوئيل في القداس الإلهي، فهو يجدد فينا أيضاً شركته فينا، أي سكناه في طبعنا الإنساني المحتاج دائماً إلى التقديس؛ لأننا نأخذ جسد ودم الشفيع ورأس الكنيسة لكي تنحدر منه مسحته المقدسة إلينا نحن الذين ننال فيه كل خيرات اللاهوت.

٥٤- هكذا ستكون قيامة الأجساد، سوف نرى ما أخذناه في السر المجيد والفائق، أي سر الشكر الإلهي؛ لأننا سنرى فينا عدم الفساد وعدم الموت، وستقوم أجسادنا بمجد المسيح وهو ذات المجد الذي نعاينه سرياً في تسبيح الشاروبيم والسيرافيم، لأننا نشترك معهم في تسبيح الرب. وبسبب تجسده الذي رفعنا إلى مقامه الإلهي، سوف نجلس معه؛ لكي نسمع ذات التسبيح الذي كنّا نردده ونحن على الأرض، ولكنه صار الآن يخص جسد الرب كله، أي الكنيسة الجامعة.

٥٥- هل نسيت أختام الميرون الإلهي؟ إذا كنت تظن أنها قد فنيت، فاسأل نفسك من أين تجد في قلبك الشجاعة والإيمان لرشم علامة الصليب؟ نحن نتّحد بها في الميرون وتصبح قوة روحية فينا تجعل رشم الصليب نابعاً من داخلنا.

٥٦- وعندما نرشم علامة الصليب على تقدُمة الكنيسة، فإننا نلاحظ أنه بعد التقديس يصبح الرشم بالدم والجسد؛ لأنه بعد إعلان السر المجيد، أي بعد استدعاء الروح القدس، صار الخبز جسد الرب والخمر دمه الكريم. وهكذا ننال قوة الصليب التي زُرِعَت فينا بالمعمودية، وصارت ختماً بالميرون، وصارت تتجدد بقوة الرب نفسه فينا كل مرة نتّحد به في الإفخارستيا المقدسة.

٥٧- لا تقل لقد تناولت مراراً ولا زالت الشهوة كامنة في قلبي، وصار قلبي مرتعاً للأرواح النجسة ... بل قل لقد تناولت مراراً ولا زلت أحب الضعف؛ لأنني لم أختبر قوة الرب وعمل قيامته.

٥٨- أعطانا الربُ جسده ودمه لكي نشترك نحن فيه.

لِتكن هذه العطية شرارة المحبة التي تجعلنا نفضّل الرب على كل شيء آخر، وبذلك ينتهي سلطان الخطية من القلب.

٥٩- إذا سقطّتَ وندمت، فأعلم أن شرارة المحبة الإلهية لا زالت مشتعلة في قلبك. غذّي هذه النار الصغيرة بجسد ودم الرب لكي تصبح شعلةً حيةً فيك، وأنت حيٌ فيها.

٦٠- **التناول باستحقاق ليس حسب الأعمال الصالحة، بل حسب الإيمان الأرثوذكسي (القويم)؛ لأنه "بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه" (عب ١١: ٦). أمَّا الأعمال الصالحة فهي لا ترضي الله؛ لأن** رضاء الله **معلنٌ قبل إنشاء العالم في تدبير ابنه الوحيد وموته المحيي**. ولا يجب أن نفكر في العكس، أي في أن الأعمال الصالحة تغضب الله طالما أننا ننكر أنها ترضيه؛ لأن رضاء الله علينا أُعلن في مصالحة ابنه يسوع المسيح، وبهذا الإيمان ننال رضاه.

٦١- بالإيمان وحده نتقدّم إلى هذه الذبيحة السماوية؛ لأن أعمالنا – مهما كانت – لم تخلق المحبة والرحمة في جوهر الثالوث غير المخلوق. وفي كل مرة نتكلم أو نعلن صفات جوهر الثالوث القدوس في الصلوات، فإننا نعلن معها أن كل صلاح وخير ومحبة هو من الله.

هكذا جاءت هذه العطية من فيض صلاح الله الذي لا يعتَمِد على صلاح الإنسان، ومن فيضان المحبة الإلهية التي خلقت كل الأشياء من العدم، ومن تجسُّد الرب يسوع المسيح الذي أخذ جسده من الروح القدس ومن والدة الإله؛ لكي يجمع في ميلاده الفائق ما هو سماوي وما هو إنساني في شخصه الواحد، ومن موته المحيي الذي به أباد كل أنواع الانفصال بين صلاح الله ومحبته وبغضة الإنسان وعداوته؛ لأنه قَتَلَ العداوة، وصَلَبَ الدينونة، وأَعلن بر الله ''بدون الشريعة'' (رو ٣: ٢١)، ومن قيامته التي سكبت الحياة من جديد في كل الخليقة.

والآن، لِنقف أمام هذا الفيضان الفائق ونعلن إيماننا؛ لأننا لم نكن نفكر ولم نكن نستطيع أن نحرّك الله نحو هذا كله، بل هو تحرّك بصلاحه، وهو الذي جاء إلينا، ولم نكن نحن الذين طلبناه.

لِنتقدم إلى هذه الذبيحة بلا اتكال على برنا الذاتي الذي إذا وُجِدَ، فهو لا يهيِّئنا إلى شيء، ولا يعطي لنا الاستحقاق، بل الإيمان وحده هو الذي يعطي لنا الاستحقاق. إيمانٌ بمن يبرر الفاجر، ويمنح اللص اليمين ميراث الفردوس؛ لأنه آمن فنال رضى الله.

٦٢- قال الرب عن هذه الذبيحة: "هذا اصنعوه لذكري"، وكان يعني ذكرى إلوهيته التي تغيب عن أذهاننا بسبب قساوة قلوبنا، وذكرى ميلاده الذي به ردَّنا إلى الروح القدس، وذكرى موته الذي به أباد الموت، وذكرى قيامته التي أحيا بها الخليقة كلها، وذكرى تجرده عن كل شيء حتى جسده ودمه الذي أعطاهما لنا.

لنتذكر هذه الأمور؛ لأنها علامات الخلاص.

٦٣- عندما يقام القداس الإلهي تفرح الخليقة وتتهلل؛ لأنها تستقبل معنا نعمة الحياة من رب الخليقة، أي ربنا يسوع المسيح. ونحن لذلك نسمي هذا السر الفائق "سر الشكر"؛ لأننا به ننال أعظم عطية، أي جسد ربنا يسوع المسيح ودمه الكريم.

وعلامات فرح الخليقة تراها في قلوب الذين استناروا وأخذوا النور الحقيقي، أي ربنا يسوع المسيح نفسه. فهم يسيرون بنشاطٍ وفرح، والجسد لم يعد ثقيلاً، والقلب يرتل ويسمع عذوبة الترتيل في صوت الرياح وحفيف أوراق الشجر واهتزاز النخيل، بل وهدوء رمال البرية.

٦٤- وعندما تجمعنا هذه الذبيحة بالقديسين الذين في كورة الأحياء السماوية، والذين لا زالوا معنا على الأرض، فإننا ننال استنارةً تجعلنا نفهم أقوالهم حسب استطاعتنا، ويشتعل الروح فينا بالمحبة حتى أننا لا نطيق أن يكون لنا حياة تختلف عن حياة آبائنا، وبهذا نرى كيف صرنا واحداً مع الرب، وكيف صار لنا شركة مع القديسين.

٦٥- بالتناول من الأسرار الإلهية غير المائتة، أي جسد الحياة ربنا يسوع

المسيح، ندخل عربون القيامة ونراها ونحسها فينا حتى في أجسادنا المائتة قبل الدهر الآتي، أي يوم قوة ابن الله واستعلان مجده في يوم الدينونة.

وأول علامات عدم الموت نراها في السر نفسه، فقد ذَبَح الربُ ذاته بالنية وبالإرادة، وقدّم ذاته، أي جسده ودمه في العلّية معلناً كمال التقديم على الجلجثة. هكذا حمل الرب جسده على يده عندما أمسك بالخبز والكأس وقال: خذوا كلوا، خذوا اشربوا، فنالت الكنيسة من الرب نفسه هذا السر، وهو ما جعل الرسول يقول: «إنني استلمت من الرب ما سلّمته إليكم» (راجع ١ كور ١١: ٢٣). وهكذا نحن أيضاً نحمل أجسادنا على أيدينا، أي بالإرادة، ونقبل موت المسيح المصلوب في أجسادنا لكي نحيا به وفيه مصلوبين معه. وعندما نقبل أن نواجه الداء الخفي (الخوف من الموت)، فإننا بقوة السر ننال نعمة الإتحاد بالقائم من الأموات لأجل تبريرنا، لأنه قام لكي يبرر حياة الخائفين، ويحول الخوف من الموت إلى خوفٍ مقدسٍ، أي الخوف من فقدان الشركة في آلامه وقوة قيامته التي تسبق الآلام.

٦٦- ومن علامات عربون القيامة ما نراه في السلام العميق الذي يجعل بعض المبتدئين يستغرقون في نومٍ عميق بعد التناول، وهو أمرٌ جيِّدٌ؛ لأن راحة الجسد تولّد نشاط الروح.

٦٧- ومن علامات عربون القيامة ذلك التآلف المؤقت الذي يُولَد فينا من نعمة الإتحاد بالمسيح، عندما يصبح الجسد والروح في مصالحةٍ نحِسُّ بها في كلامنا وفي سيرتنا وأعمالنا؛ لأن الروح الإنسانية تتعلم المصالحة مع الجسد، حتى تنال القيامة والمصالحة الكاملة. ولكن لا يدوم هذا التآلف؛ لأننا لا زلنا تحت سلطان الخليقة الأولى إلى أن تُستعلن الخليقة الجديدة التي أعلنها الرب يسوع المسيح في ذاته وصار بذلك "الباكورة".

ولا يدوم هذا التآلف فينا؛ لكي ما نطلب ما هو أبدي ودائم في يسوع المسيح الذي له المجد الدائم.

٦٨- ومن علامات عربون القيامة ذلك الاشتياق الشديد الذي يجعل الدموع

تنساب في غزارة عندما نرى المجد الأبدي الذي ينتظرنا في الدهر الآتي، وهو ذاته الذي يجعلنا نستهين بما يحدث لنا.

٦٩- يقول الرسول المبارك الذي استلم "سر المسيح" إن الخليقة خُلِقَت بواسطة الابن، وإنها قائمةٌ فيه، وإنها ميراثه؛ لأنها "به وله قد خُلقت" (كولوسي ١ : ١٦). ومن الصعب علينا أن ندرك كيف خُلِقنا، **ولكن من الإيمان نرى كيف أننا له وأننا فيه نبقى وندوم في الوجود.**

وهكذا صارت الإفخارستيا علامة الخلق الجديد؛ لأننا - بقربان الكنيسة - ندرك أن الابن هو رب الخليقة وخالق كل الأشياء.

ومن التقديس نرى كيف يجمع المخلِّصُ المنظورَ، أي قربان الكنيسة بغير المنظور، أي الروح القدس، وأيضاً الأرضيين مع السمائيين.

ومن توزيع جسد الرب على المتناولين نرى كيف أننا نبقى ونثبُت في الرب الذي أحبنا فخلقنا، وأحبنا فخلّصنا، وأحبنا وأعطانا ميراثه الأبدي، أي ملكوته السماوي.

ونحن به؛ لأننا قيامٌ في هيكل قدسه.
ونحن فيه؛ لأننا نقترب به للآب.
ونحن له؛ لأننا ميراثه الأبدي.

وعندما ننال الأسرار المقدسة، فإننا نرى كيف صار الخلق من العدم، أي (به)، وكيف آلت إلينا الخليقة الجديدة؛ لأننا (فيه)، وكيف سنصير مثله؛ لأننا (له).

٧٠- يقول الرسول: "لأن كل الأشياء «منه» و «له» و «به». ولذلك في الخدمة الإلهية نقول: «نقرب لك كل شيء من الذي لك"، أي من جسدك ودمك الذي أخذته من البتول، ومنك أنت وحدك مؤسِّس وموزِّع السر.

«على كل حال»، أي حسب ترتيب طقس محبتك.

«ومن أجل كل حال»، أي من أجل المقاصد العليا السماوية التي أردت أن ننالها فيك ومنك وبك.

وفي يسوع نرى «منه » كخالقٍ، و«به» كوسيطٍ، و«له» كوارثٍ.

لنتقدم بإيمان ومحبة؛ لأن كل الأشياء تلتقي في الخدمة المقدسة:

- السماء والأرض.
- الثالوث المحيي والكنيسة، اجتماع جسد الرب الواحد.
- الخليقة الأولى والخليقة الجديدة.
- الإعلانات والمواعيد التي تمت، والتي سوف تتم.

هذا كله يجمعه السر المجيد.

٧١- قدَّم يسوع جسده لنا، لنقدِّم أجسادنا له.

قدَّم روحه لنا، لِنقدم أرواحنا له؛ لكي نحيا به.

قدَّم دمه لكي يعتقنا من أسر الخطية، لِنتحرر به لكي نكون له، ولنتقدس فيه لكي نحيا فيه وفي الآب إلى الأبد.

٧٢- يقول الرب لنا: "مَن يأكلني يحيا بي" (يوحنا ٦: ٥٧). ولماذا أشار إلى الأكل بالذات؟ والجواب هو أننا حسب الجسد نحيا بما نأكل، لذلك يصبح قول الرب تأكيدٌ على أنه لا حياةَ لنا بدونه، وأننا نحيا به لكي تصبح أجسادنا مثل جسده، وأرواحنا مثل روحه ولكي يتم الوعد الإلهي: "أنا الكرمة الحقيقية وأنتم الأغصان" (يوحنا ١٥: ٥).

٧٣- "مَن يأكلني يحيا بي»، أي يحب ما أحب، وفي قلبه يتدفق نهر ماء الحياة معطياً حياةً. وذات المحبة الإلهية للأعداء والأحباء على حد سواء[١١]، لأن الكل يلتقي عند واهب الحياة ورئيس الخليقة ومبدع الأشياء من العدم وحافظ كل الأشياء بكلمة قدرته (راجع عب ١: ٣).

٧٤- قال الرب: "أنا القيامة والحياة"، وقال أيضاً: "مَن يأكلني يحيا بي".

لِنتناول لكي نقوم من موت الخطية، ولكي نحيا به.

وهذه هي علامات قيامة النفس[١٢]:

١١- راجع القداس الكيرلسي حيث تقول الأوشية "الذين قالوا لنا أذكرونا والذين لم يقولوا .. أعدائنا وأحبائنا اللهم ارحمهم".

١٢- قيامة النفس أو الروح تسبق قيامة الجسد في اليوم الأخير. وهذا التعبير مألوف عند كل الآباء.

أولاً: عندما نفضّل الأمور السماوية على الأمور الأرضية، حتى وإن كانت صعبة.

ثانياً: عندما نقبَل الصليب بكل عاره، ورفضه لكل صور القوة، وغفران ومسامحة الأعداء، حتى وإن كان هذا ضد أحكام العقل والحكمة الإنسانية التي تعتبر الصليب جهالةً.

ثالثاً: عندما تزن النفس بميزان كلمة الله كل ما ترى وتسمع وتفكر، فتحيا بالكلمة الإلهية وتفضّل حكمة الأسفار على الحكمة التي عند الناس.

رابعاً: عندما ترفض الشهوات الصالحة والمفيدة من أجل المسيح ناظرةً إلى ما هو أبدي.

خامساً: تقوم النفس في المسيح، وعند ذلك – تدريجياً – يتحول الجسد إلى قوة عاقلة، والقوى الأخرى مثل الغضب والخوف التي أُعطيت للإنسان هبةً من الله – حسب تسليم الآباء، وكتاب سُلّم السماء ليوحنا الدرجي / الدرجة ٣٥ – تصبح قوىً مقدسةً تعمل تحت سيادة النعمة، ويحركها الصليب نحو البذل.

هذه هي علامات القيامة الواضحة، كُتِبَت من أجل منفعة المبتدئين. أمّا باقي العلامات فقد كُتبت في رسالة الأب أغاثون المتوحّد، وليس لدينا ما يمكن إضافته.

٧٥– تقوم النفس بالتناول من الأسرار الإلهية غير المائتة دفعةً واحدةً، وبمداومة التناول تكتشف قوة السر الفائق؛ لأن الإفخارستيا مثل شعاع الشمس، أو بالحري شعاع الشمس مثل هذه العطية الفائقة، ينير حياتنا دائماً بنور واهب النور ربنا يسوع المسيح.

ونحن نتناول على الأقل في أيام السبوت والآحاد؛ لأننا نحفظ راحة الرب (السبت) بفرح الروح القدس براحتنا في المسيح، ونحفظ قيامة الرب (يوم الأحد) بقوة قيامة الذي داس الموت.

لِنبقَ في نور الحياة؛ حتى نتعلم أن الحياة التي فينا ليست مِنّا، ولكنها هبة المسيح الفائقة.

٧٦– يقول الرب في الإنجيل المقدس: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين وثقيلي

الأحمال وأنا أريحكم" (مت ١١: ٢٨)، وبالإتحاد به في السر الإلهي تصبح أحمالنا هي أحماله هو. ويقول الرب بعد ذلك: "أحملوا نيري عليكم، لأن نيري هين وحملي خفيف فتجدوا راحة لنفوسكم"؛ لأن شركة الرب في آلام حياتنا تجعل آلام الحياة الإنسانية هي آلامه، ولذلك السبب، عندما نحمل نير الصليب، نجد أن الحمل الأكبر خاص بالمسيح.

٧٧- الإفخارستيا هي غذاء وقوة الضعفاء، والامتناع عن التناول بحجة الضعف الروحي لن يشفِ الطبيعة الضعيفة. وعن ذلك قال الرب نفسه: "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى".

٧٨- أعطانا الرب جسده بقوة الإتحاد النابعة من أقنومه، أي حسب تدبير التجسُّد، وبقوة الصليب التي أزالت الموت، وبقوة القيامة التي ردت الحياة، وبقوة صعوده إلى مجد الآب التي أخضعت الأزمنة (حرفياً تعاقُب الأجيال) إلى سلطانه الذي قال عنه: "دُفِعَ إليَّ كل سلطان مما في السماء وعلى الأرض»، وبقوة شركته في ذات جوهر الآب والروح القدس، أي جوهر الثالوث الواحد غير المنقسم، وبقوة تمايزه الأقنومي عن الآب والروح القدس، فكيف بعد كل هذا يمكن لنا أن نشك في أن الرب نفسه هو الذي يعطي لنا جسده ودمه في سر الشكر.

٧٩- وإذا قلنا: «قوة اتحاد اللاهوت بالناسوت»، فإن هذا الإتحاد بين أقنوم الابن وناسوته هو الذي يجمع كل المؤمنين معاً ويجعلهم جسد الرب في سر الشكر، أي قوة الإتحاد التي تنبع من أقنومه الإلهي وتجعل الكل معاً واحداً كما جعل ناسوته واحداً مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير.

٨٠- وعندما نقول: «قوة الصليب»، فقد كان الموت هو الذي يفصل المائتين عن نبع الحياة أي الابن المتجسد، وعندما صالحنا الابن المتجسد بموته، فقد أزال الموت، وفتح أحضان الآب لكي نصبح معه دائماً، ولكي لا يفصلنا الموت عنه، فَرَدَّ لنا الشركة في الحياة، بالصليب.

٨١- وعندما صالحنا مع الآب بموته، رَدَّ الحياة لنا بالقيامة التي أعطانا فيها عدم الفساد، فصارت قوة القيامة تسري فِي أرواحنا وفي أجسادنا، وهي ذات

القوة التي تجعل الخبز جسد الرب، والخمر دمه الكريم.

٨٢- وعندما نقول: «قوة صعوده إلى مجد الآب»، فإننا نقصد إخضاع الزمان وكل حقبات الأزمنة إلى سلطانه الإلهي؛ لأنه يحكم الآن من السماء ويسوس الكنيسة جسده المقدس، ومن فوق - حسب قانون السماء وشريعة الثالوث - يعطي للمتناولين حياة عدم الموت حسب طبيعة السماء.

٨٣- ولأن جوهر الثالوث هو واحدٌ غير منقسم، تتمايز فيه أقانيم الثالوث؛ صارت وحدة الجوهر للثالوث هي نبع وحدة المؤمنين بالرب في العشاء الإلهي، ومائدة الملكوت، ووليمة المحبة التي تجمع. وهكذا نقل إلينا الرب هذه الهبة في السر الفائق لكي ندخل به أعماق الشركة ونصبح واحداً مع الثالوث بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير.

٨٤- وماذا نقصد بقوة تمايزه الأقنومي؟

والجواب ليس صعباً لمن له إيمانٌ قويم (أرثوذكسي)، فالرب واحد مع الآب والروح القدس، ولكنه واحدٌ معهما كابنٍ، أي متمايز في شركة جوهر الثالوث. هكذا يحفظ لنا التمايز نعمة البقاء كأبناءٍ في ذات الشركة مع الثالوث، ويحفظ لنا البقاء كأعضاء في جسد الرب، ويحفظ له مكانته وتقدُّمه الفائق لأنه هو الرأس الذي منه تُولد كل الأعضاء، وهو متقدِّمٌ علينا في كل شيء، وهو النبع الذي منه نأخذ كل الصالحات، وهو يظل متمايزاً عنا لا يفصلنا عنه شيء. ولما قال الرسول: إننا الآن أولاد الله الآب، فقد أضاف قائلاً: ولم يظهر بعد ماذا سنكون؟ ولكن متى أُظهر ربنا يسوع سنكون مثله (راجع ١ يوحنا ٣: ٢). والمجد الذي سيُعلن فينا، مُعلَنٌ قبل يوم الدينونة في المسيح، ويصعب على كلماتنا وأفكارنا أن تحصره؛ لأن الله عندما يعطي، يعطي أكثر مما نظن أو نفتكر.

٨٥- ومِن توزيع جسد الرب على المتناولين، ندرك أن ميراث كل مؤمن هو المسيح، كما أن ميراث المسيح هو الآب، وميراث الآب في عطية ابنه الوحيد وانسكاب روحه القدوس فينا؛ لأننا بالسر الفائق نصبح "جسداً واحداً وروحاً واحداً».

٨٦- أخذ الابن الوحيد جسده من الروح القدس، وأخذ إعلان محبته من الآب، ولذلك السبب عينه نصلي للآب، ونصلي للابن، ونصلي للروح القدس.

وعندما نصلي القداسات للآب، فإننا ندخل شركة الثالوث بشفاعة الروح القدس. وعندما نصلي للروح، فإننا ندخل شركة الثالوث بشفاعة الابن. وقد كتبْتُ ما يكفي في الوقت الحاضر عن شفاعة الروح القدس، وأكتفي بأن أقول إن الأسفار المقدسة والآباء القديسين لم يذكروا شفاعة الآب بالمرة لسببٍ واحدٍ، وهو أن الآب هو مصدر كل الأشياء، وهو الذي أقام ابنه بقَسَمٍ رئيسَ كهنةٍ، وهو الذي بواسطة الابن أرسل الروح القدس.

وصلواتنا للروح القدس أقل مما يجب؛ لأنه هو الذي يُملي ويلهم قلوبنا ويرتّب كلماتنا؛ لأنه مُعلّم الصلاة، ومقدّس الذي يطلبون الآب والابن بواسطة شفاعته. ولأن الروح القدس هو "عطية" الآب لنا، لذلك لا نصلي للعطية؛ لأن العطية هو مصدر كل صلواتنا.

٨٧- وفي القداس الإلهي نأخذ جسد الرب من الروح القدس، ونأخذ الروح القدس من الرب يسوع، ونأخذ الابن والروح القدس من الآب؛ لأننا - بنيةِ الذبح، أي نية الرب نفسه - ندخل شركة الثالوث. وبإرادة الابن في تقديم ذاته، ندخلَ خدمة كل الأسرار. وبتقديس الروح القدس لجسد الرب ودمه، نتناول متّكلين على برّ المسيح الذي أحيانا من الموت. وبه، أي بذات التقديس، تتقدس كل العناصر التي تخدم الأسرار مثل الخبز والخمر والماء.

٨٨- كيف تحوّل القيامةُ خبزاً أرضياً من الأرض إلى طعام سماوي روحاني؟ الجواب ليس صعباً على الفاهمين الذين تربّوا في مدرسة حكمة الإنجيل.

لقد غمر الربُ كل الكائنات بحياة جديدة، ردّ للكون مكانه المفقود في شركة الثالوث، أي ما خسره الإنسان الأول عندما رمى تاج مُلك الخليقة تحت سلطان الشيطان، فتسلّط الموت والفساد على كل ما هو حي. أمّا الآن، فقد لبس هذا التاج الإنسان الثاني "الرب من السماء" (١ كور ١٥: ٤٧)، وردّ للإنسان ما فقده، وجدّد وأعاد الحياة؛ إذ خلعها من سلطان الهاوية، فصارت الحياة هي نهاية كل ما هو كائن.

هكذا لا نأكل الخبز الأرضي لكي نعود إلى الأرض، بل لكي نحيا في انتظار مجد القيامة ونهار عزة ابن الله.

وعندما ننال الطعام الروحي، فإننا بقوة قيامة الرب، وبذات التقديس، ندخل إلى شركة حياة الثالوث حيث تلمع كل العناصر بنور الحياة؛ لأنها تأخذ وجودها من الآب، وحركة حياتها من الابن، وكمالها، أي غايتها من الروح القدس. والآن قد أعطاها (أي العناصر المخلوقة) الرب يسوع المسيح مكانها في خدمة الخلاص، ففي الوسيط الواحد، الذي أخذ جسده من أجسادنا أي من عناصر الأرض، دخلت الخليقة عصر المسحة المقدسة في المسيح، وصارت الآن تُمسح في المسيح، الذي فيه[١٣] يجمع الرب بقوة لاهوته، كلَ الكائنات والعناصر التي ستدخل الحياة الجديدة ممسوحةً بمسحة عدم الفساد ومعطياً لها مكاناً جديداً في الملكوت حسب إيماننا الأقدس.

٨٩- نحن نتكلم عن ما هو آت، وكلامنا لا يحصر نعمة الله ولا يقيّدها بما نعرف الآن؛ لأننا "الآن ننظر في لغز كما في مرآة" (١كور ١٣: ١٢)، أمّا عندما يُعلَن ملكوت المسيح كاملاً؛ لأنه الآن يُعلَن جزئياً، فسوف نفهم الكل.

٩٠- نحن نحيا في زمان الروح القدس الذي يجمع فيه رئيس الكهنة ربنا يسوع المسيح عناصر الخليقة الجديدة ويعطي لها مكانها في خدمة الخلاص؛ لأنه أعطى للموت قوة هدم القديم، وأعطى للمرض أن يتلاءم مع عطية الصحة، وأن يعلن لنا نهاية الخليقة القديمة وبداية الجديدة التي نراها في صراخ الكنيسة المقدسة في صلوات مسحة المرضى. وأعطى المياه أن تلد للخلاص أبناء وبنات الملكوت، ونهاية التمييز بين الذكر والأنثى؛ لأنه "في المسيح يسوع ليس ذكراً ولا أنثى" (غلا ٣: ٢٨)، ودخولنا رتبة السمائيين.

أمّا الخبز وهو طعام الخليقة القديمة، فقد صار هو الخبز الجوهري، أي طعام الخليقة الجديدة. وهكذا لم يعد الخمرُ سببَ فقدان الحكمة والتعقل، بل صار

١٣- تعني كلمة "الآن" هنا، زمان انسكاب الروح القدس بعد يوم العنصرة، وهو زمان الروح القدس كما يقول المؤلف نفسه في الفقرة ٩٠.

كأس الخلاص هو السُّكر الحقيقي بمحبة الآب، لذلك يقول الشماس: ''لنقف حسناً''؛ لأننا قياميون (من القيامة) ونقف في جمال قيامة ابن الله معلِنين – بقيامتنا – دخولنا الزمان الجديد الذي فيه ننال رؤية ما هو فائق في يسوع المسيح ربنا.

٩١– عندما نصلي ''مجمع الآباء'' القديسين في القداس الإلهي، فإننا نجتمع معهم،

أولاً: في الصلاة.

ثانياً: كأعضاء جسد المسيح الواحد الذي له رأسٌ واحدٌ هو رئيس الكهنة.

ثالثاً: لأن الخدمة الإلهية هي اجتماع «ملء الكنيسة الجامعة» حيث نصبح واحداً في المسيح. وتعلَن هذه الوحدة في سر الذبيحة الإلهية التي فيها نصبح معاً مقدَّسين في يسوع المسيح نحن والذين سبقونا إلى «كورة الأحياء''، أي أورشليم السمائية.

رابعاً: تتحد شفاعة آبائنا القديسين الراقدين في يسوع المسيح مع شفاعتنا نحن الذين نقف عند المذبح السمائي، لكي تصبح شفاعةً واحدةً لجسدٍ واحدٍ له رأسٌ واحدٌ هو يسوع المسيح ربنا.

٩٢– وأساس هذه الصلوات جميعها هو الذبيحة والكاهن والمذبح، أي ربنا يسوع المسيح الذي بالروح القدس ذُبِح لكي يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد. وهو ذُبِحَ بالروح القدس، أي أنه قُدِّم قرباناً حياً، فقد دخل قدس الأقداس، أي السماء بقوة لاهوته الذي لا يموت، حاملاً معه – أي فيه – دمه الكريم؛ لكي يقدِّس طريق العبور للمفديين الآتيين من الأرض إلى ميراثه السماوي الأبدي، وبعد قيامته أدخل الناسوت إلى ذلك الميراث عينه لكي يبقى فيه إلى الأبد، وبالروح القدس الذي هيَّأ جسده، ومسحه في الأردن بعد خروجه من الماء، واشترك معه في كل شيء؛ لكي يؤسِّس وحدة عمل الثالوث لنا نحن الذي نحتاج إلى هذه الوحدة، معلناً لنا أننا ننال بقوة الروح القدس فاعلية وعمل الذبح في تطهير وغسل الطبيعة الإنسانية من الموت ودنس الخطية.

وعندما نقدِّس المذبح بزيت مسحة الميرون الذي به نُمسح بعد معموديتنا،

فإننا ننال – مع المذبح ومع الأواني المقدسة والأيقونات – علامة الذبح، أي رشم (ختم الصليب)؛ لأن المصلوب جمع كل هذه معاً في وحدةٍ واحدة، وجعل الكل قرباناً لأبيه السماوي.

٩٣– نحن والقديسون الراقدون جسدٌ واحدٌ. ونحن في المسيح وبه جسدٌ واحدٌ؛ لأن الذي يجمع الأعضاء الواحدة دون انفصال هو الواحد الذي فيه اتحدت الطبيعة الإلهية بالطبيعة الإنسانية؛ لأنه "واحدٌ من اثنين" كقول معلمي البيعة[١٤]، جسدٌ واحدٌ لا ينفصل ولا يقوى عليه الموت. وكما يقول الرسول إن كل أعضاء الجسد هي واحد رغم أنها كثيرة؛ لأن الحياة التي تجمعها هي حياة الرب، والقوة التي تربطنا معاً هي قوة اتحاد لاهوته بالناسوت. والوحدة التي لا تقبل التقسيم هي وحدة جسده بلاهوته، وهي وحدة بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. فهو يجمع أعضاء جسده بواسطة دمه وجسده لكي نصبح فيه مقدَّسين، أي مثله، أنقياء مثل نقاوته، وهو ما يجعلنا واحداً معه.

٩٤– نحن نأكل جسد الرب ونشرب دمه الكريم، والرب هو طعام الحياة الباقية.

هو يؤكل فعلاً؛ لأننا نتناول جسده ودمه، ولكنه لا يفنى؛ لأنه الحياة.

وبسبب قيامته من الأموات، صار هو طعام الحياة الذي يغلب فساد الطبيعة المائتة كقوله الإلهي: "مَن يأكلني يحيا بي"، أي يحيا في عدم فساد (يوحنا ٦: ٥٧).

فإذا تسلَّطت علينا قتالات الأرواح النجسة، وانعكست على عقولنا خيالات الحياة الماضية وتكاثرت في عقولنا الأفكار الشريرة، فإن هذا لا يعني أننا فقدنا النعمة، بل يعني أن العدو الشرير يحاول أن يذكِّرنا بأن حياتنا الماضية لم تُمت، في حين أنها ميِّتةٌ فعلاً؛ لأنها غير قادرة على أن تأسرنا، ولا قوةُ بقاءٍ فيها، بل حُكم عليها بالموت على الصليب، وهو حكمٌ يؤكد عدم جدواها.

لِنَرشم الصليب بقوة الذبح التي في الرب، لكي يذبح الرب أعداء حياتنا، ويحوِّل

١٤– عبارة معروفة للقديس كيرلس الإسكندري.

أفكارنا الشريرة التي تزورنا من وقت لآخر إلى مناسبات تمجيد لمن مات عنّا.

لِنَقترب من الأسرار بالإيمان الذي ليسوع المسيح، أي الإيمان بصلاح الله الذي يغفر، ويُصالح الأعداء، ويبرر الفاجر، ويستر كثرة من الخطايا حسب محبته الفائقة؛ لأنه حيث كثر الإثم تكثر أكثر محبة الله ونعمته الغنية.

٩٥- سألني بعض الأخوة عن أسباب التناول الأسبوعي، وماذا يحدث بعد التناول، وهل يكفي أن نتناول مرةً واحدةً؟ وجواب هذه الأسئلة يحدد نوع الإيمان، ورؤيتنا لإتحادنا بالرب يسوع المسيح ونضوج المحبة والتواضع، ونمونا نحو المخلص نفسه في التشبه به.

أولاً: يجب علينا إذا حاصرتنا أسئلةٌ من هذا النوع، أن لا نقع في حيرة وشك، بل أن يكون لنا إيمانٌ بصلاح محب البشر الذي يتولانا دائماً بالرعاية حتى إن كُنّا لا نحس بها، فهو الذي يسهر على حمايتنا كراعٍ صالحٍ، وهو الذي يقودنا نحو الحياة الحقيقية.

ثانياً: علينا أن نؤمن أن عمل الله الآب في ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح وعطية الروح القدس، لا يتوقف على نشاط إرادتنا، بل هو تدبير المحبة الإلهية الأزلية التي أعلنت في الدهور في يسوع المسيح، دون أن تخضع لتوبة البشر أو تأخذ بعين الاعتبار إيمان البشر وقبولهم للرب يسوع. فهو الذي جاء إلينا بنفسه متجسّداً من البتول والدة الإله، و لم يكن تجسُّد الرب معتمداً على إيماننا، بل على تواضعه ومحبته، ولذلك قال الإنجيلي إنه هو «أحبنا أولاً» (١ يوحنا ٤: ١٩).

هذا هو جوهر الإيمان وخلاصة الإنجيل؛ لذلك، لنذهب لمن جاء إلينا ونقبَل مَن تنازَل وقدَّم جسده قرباناً.

ومن استطاع أن يتناول كل يوم، فهو في وضع أفضل من الذي يتناول كل أسبوع؛ لأنه يحيا بالطعام السمائي الحقيقي جسد ودم ربنا يسوع المسيح.

ماذا يحدث لنا عندما نتناول؟

لا يجب أن نُخضع عطية الله للذكاء والفكر البشري.

ماذا يقول ذكاء المحبة أو بالحري حكمة محبة الله؟ «هوذا على كفي نقشتك» (أش ٤٩: ١٦)، "ومَن يمسكم يمس حدقة عينه» (زك ٢: ٨)، و«ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ٢٠).

هذه المواعيد لا يمكن أن نفحصها حسب مقاييس الذكاء والحكمة البشرية. أولاً؛ لأنه لا يوجد في العالم المنظور شيء يمكن أن نقارِن به عمل الله. ولا يوجد شخص يمكن أن نقارِن به المسيح. ولا يوجد كتاب يشبه كتاب الله، أي الأسفار المقدسة. كل هذه هي أمورٌ سمائية لا يمكن مقارنتها بالأمور المنظورة الأرضية. وهذا يفرض علينا أن نقارن الروحيات بالروحيات، وأن نجعل مقياس الأمور الروحية هو المسيح نفسه. فقد كان مع التلاميذ دائماً، وكان مع الآب والروح القدس. كان يتكلم مع السامرية، وكان يرى الآتيين عبر الزمان إليه، ومن القرية سوخار. هكذا ندرك أننا معه في الهيكل وهو معنا، وأننا به ندخل شركة الآب. وعندما تنتهي الخدمة المقدسة وننصرف من هيكل الله، فإننا نخرج من الكنيسة لنكون هيكل الله الحي، وهذا ما يجعلنا نرتل المزمور ١٥٠ فهو تسبيح كمال الخليقة الجديدة التي صارت في فردوس الله، وتأكل من شجرة الحياة، وتحيا على الأرض في انتظار ظهور ربنا يسوع المسيح بكامل مجده.

إذا حاصرتنا الأفكار الأرضية، وغاب عن ذاكرتنا اسم الرب يسوع، وثقُلت نفوسنا بالاهتمامات الجسدية، فلا يجب أن نظن أن الرب قد فارقنا ولم يعد يسكن فينا؛ لأن هذا الظن يعادل التعليم الفاسد الذي يقول إن نعمة الله تعتمد على توبة الإنسان، وإن رحمة الله تُسكب فقط على المؤمنين. لنتذكر قول الرب في الرؤيا: "ها أنا واقفٌ على الباب وأقرع، إن فتح لي أحد أدخل وأتعشى معه وهو معي" (رؤ ٣: ٢٠). لقد دخلنا مع الرب في القداس الإلهي، وإذا خرجنا داخلياً، فهذا لا يعني أنه خرج وترك شركته معنا، فهو يظل أميناً لا يقدر أن ينكر نفسه؛ لأن أمانته تجعله يجمع المتفرقين ويوحِّد أعضاء جسده به. وحكمة محبته لا تجعله يترك الخروف الضال أو يهمل الدرهم المفقود، بل يجمع الكل معاً في شركته السمائية.

لِنبقَ في حياة الصلاة، وهذا يعني أن نترك كل فكرٍ – مهما كان – لكي نجعل قلوبنا مذبحاً مقدساً مستعداً لعمل الرب يسوع، ومنتظراً مواهب روحه القدوس.

٩٦- بخصوص مواهب الروح القدس، وهي تلك التي تعلَن في القداس الإلهي؛ هي جميعاً صفات آدم الجديد التي أخذها الناسوت من أقنوم الابن الكلمة عندما تجسد، وهي ذاتها مُسحت بالروح؛ لكي تُنقَل إلينا نحن حسب قول الرب يسوع عن الروح القدس: ''يأخذ مما لي ويعطيكم'' (يوحنا ١٦: ١٥، ١٦)، فهذا القول ينطبق على كل شيء، حتى التكلم بالألسنة الجديدة؛ لأن الرب يسوع يتكلم مع كل قلب بلسان هذا القلب، ويتكلم مع الكل بلسانٍ واحدٍ، وهو لسان المحبة، أي اللسان الجديد الذي يوحِّد الكل.

من أجل هذا الأمر بالذات، صار من الضروري أن نتذكر أننا نتَّحد بآدم الجديد بقوة صليبه وقيامته وفي نهر الروح القدس، وننال هذه المواهب حسب إرادة الروح القدس لكي يعلن بنا وفينا الإنسان الجديد المخلوق حسب الله (كولوسي ٣: ١٠).

٩٧- ما هو نوع إتحادنا بالرب في سر الإفخارستيا؟

أقول للأخوة المبتدئين إننا نتحد بالرب على مثال اتحاد لاهوته بناسوته، أي ذات الإتحاد الذي حدث في أحشاء البتول والدة الإله، وإننا لذلك السبب نفهم أن عبارة الرب: ''أنا هو الكرمة الحقيقية وأنتم الأغصان'' (يوحنا ١٥: ٥)، تؤكد لنا أننا مثل ناسوته؛ لأن «الكرمة» اسمٌ خاص بالناسوت.

وهكذا، كما اتحد اللاهوت بالناسوت في الأقنوم الواحد ربنا يسوع المسيح، نتَّحد نحن به بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. هو ''واحدٌ من اثنين''، ونحن أيضاً على مثال هذا الإتحاد: هو ''الرأس''، ونحن ''الأعضاء''. وهكذا كتب الرسول بولس المجاهد لأجل سر المسيح، أنه كما أن الجسد واحد رغم أن له أعضاء كثيرة، هكذا أيضاً المسيح رأس الجسد وأعضاءه نحن (١ كور ١٢: ١٢). لذلك علينا أن ندرك، أنه كما لم ينفصل الناسوت عن اللاهوت ''لحظةً واحدةً

ولا طرفة عين" (صلاة الاعتراف في القداس الإلهي)، هكذا نحن أيضاً لا ننفصل عن المسيح لحظةً واحدةً ولا طرفة عين؛ لأنه لا يمكن لقوة في السماء أو على الأرض أن تفصل أعضاء المسيح، ولا توجد أي قوة، حسب عبارة الرسول التي تدوّي مثل صرخةٍ إلهيةٍ في آذان الزمان والبشر "لا شيء يستطيع أن يفصلنا عن محبة الله التي في يسوع المسيح" (رو ٨: ٣٥).

٩٨- مات الرب على الصليب لكي نرث موته، أي لكي يصبح الصليب هو باب الخلاص، وإذا قال الرسول: "ورثة الله بيسوع المسيح" (راجع رو ٨: ١٧)، فهو يعني وراثة الحياة.

مات الرب على الصليب لكي بموته يرفع عائق الاتحاد به أي الموت. ومات لكي تصل إلينا قوة صليبه المحيي. ومات لكي نصل نحن إلى حياته التي لا تموت. ومات لكي يؤسّس بموته ذلك السر الفائق؛ لأنه حمل جسده على يديه وحوّله إلى خبز سمائي، أي طعام سمائي، فعَبَرَ بذلك هاوية الموت والفساد إلى مجد اللاهوت. وقدّم جسده بنفسه من الموت إلى الحياة، عندما أطعم المائتين في العلّية لكي يُعلَن بعد ذلك علانيةً على الجلجثة، ومن القبر أعلن نهاية الموت بالقيامة.

هكذا بالصليب وضع أساس الحياة غالبة الموت. وهكذا صُلب لكي يتّحد بنا، وقام لكي يجعلنا أحياءً معه وفيه.

٩٩- قبل أن يذوق الموت بالجسد قال: "مَن يأكلني يحيا بي"؛ لأنه هو الحياة. وقبل أن يُصلب قال: "جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق" (يوحنا ٦: ٥٥)؛ لأنه هو الحياة أي حياةُ مَن قال: "أنا هو القيامة والحياة من آمن بي ولو مات فسيحيا" (يوحنا ١١: ٢٥)، فصار قوله إعلاناً عن الخلاص والحياة والقيامة، وعن كل ما فيه من قوة وثبات ومغفرة، فهو "المذُخَّر فيه كل كنوز الحكمة والمعرفة" (كولوسي ٢: ٣).

يجمع الربُ الحياةَ التي له - كأقنوم - مع الموت الذي لنا في طبيعتنا؛ لأنه أخذ جسداً ونفساً مثل جسدنا ومثل نفسِنا، وفيه تغلب الحياةُ الموتَ.

طهَّر الطبع الإنساني بالإتحاد، وغلب الموت الذي يأتيه من الخارج، وهو الذي عنه قال: "ليس أحد يأخذها مني (حياته) لي سلطان أن أضعها وسلطان أن آخذها أيضاً" (يوحنا ١٠: ١٨)، وهكذا غَلَبَ الموت الذي كانت طبيعتنا خاضعةً له، وثبَّت هذه الغلبة بالقيامة. والآن يعطي لنا عربون هذه الغلبة في سر الشكر الإلهي الذي فيه تتَّحد بالرب يسوع المسيح بالآمه المحيية التي غلبت شوكة الخطية، وبقيامته المجيدة التي أعطت لنا رؤية الحياة السماوية التي له والتي سوف تصير لنا، والتي نتذوقها هنا ونحن في الجسد.

١٠٠- لِنطلب من الرب أن تكون حياتنا ليتورجية حيةً، نقدِّم فيها القربان، أي أجسادنا وأرواحنا على مذبح كلمة الله الحية الفعالة التي هي أقوى من كل سيف ذي حدين (راجع عب ٤: ١٢)، وهنا نذبح النية الداخلية لكي نصير صعيدةً للرب.

وليكن لنا نية الذبح ورغبة تقديم أجسادنا كل يوم.

لنقدم أيضاً حياتنا العقلية (رو ١٢: ١)؛ لأننا عندما نُبقي في ذاكرتنا اسم ربنا يسوع المسيح، ننال هبة البقاء في الأسرار السمائية.

وليكن لنا مصالحةٌ دائمة، وتسبيحٌ مع القوات السمائية.

لنطلب الروح الناري حسب وصية معلمنا العظيم أنطونيوس؛ حتى نصبح به جسداً واحداً وروحاً واحداً مع الرب نفسه الذي لأجل هذه الغاية أخذ جسدنا من والدة الإله بالروح القدس.

لنُصلِّ من أجل شركتنا المقدسة؛ لكي نرتل بفرح مع القديسين هنا وفي السماء. وهكذا نتبع ترتيب الخدمة المقدسة صائرين بقوة ربنا يسوع المسيح أطهاراً وقربانَ حياةٍ له وحده.

لقد ذكرت ما فيه الكفاية، وأسرار الرب عجيبة فائقة لا يمكن أن نصل إلى أعماقها إلَّا بقوة ومعونة الروح القدس الذي يكشف لنا عن جمال محبة ربنا يسوع المسيح.

المئوية الخامسة

المسيح مُحب البشر

رسالة الأب صفرونيوس
إلى تلميذه ثيؤدوروس (تادرس)

مائة مقالة

عن المسيح محب البشر
إلى
الأب ثيئودوروس

مقدمة

تسألني أيها العزيز ثيئودوروس - يا عطية الله بالحق - عن محبة المسيح، وأنت لا تريد أن تلقي بي في هذا البحر الذي لا حدود له ولا ندري عمقه؛ لأن الأبدية سوف تكون هي هذا العمق الذي لا قرار له؛ لأننا عندما نظن أننا وصلنا إلى الياء (الأوميجا Ω)، فإننا نجد أنفسنا أننا لا نزال في البداية؛ لأنه في حقيقة الأمر لا توجد بداية ولا نهاية؛ لأن هذه المقاييس خاصة بالمنظورات وبما هو محدود.

والآن عليّ أن أطلب نعمة الله الوافرة لكي أقترب من هذا البحر الهائل الذي يفيض من جوهر الثالوث ويغرِق، أي يملأ كل الكائنات حسب حدود طبعها.

إنني أطلب معونة الروح المعزّي لكي ينير قلبي؛ لأن معرفة أمور الله بدون روح الله، هي عطب كبير ودمار للحياة وهلاك لقوى الحياة فينا، ولذلك صرخ الرسول وقال: "من هو كفؤ لهذه الأمور" (راجع ١كور ٢: ١١ - ١٦).

محبة الثالوث

١- أتأمّل اتساع البرية الهائل ورمال البرية التي تحيط بالدير وتدخل كل مكان فيه، وأحياناً أسأل نفسي: هل خلق الله هذا الكم من الرمال لكي يذكّرنا بقدرته؟ وعندما أتذكر قدرة الله التي تضبط كل المخلوقات المنظورة، هذه القدرة الأزلية (رو ١: ٢٠) التي تشهد له بالربوبية، لا أملك أن أترك علاقة القدرة الإلهية بالمحبة؛ لأن السؤال الذي أسمعه من كثيرين: "لماذا خلق الله العالم"؟ تجيب عليه المنظورات وتشهد بالصلاح الإلهي الذي جاء بكل الموجودات من العدم، وصوَّر كل الكائنات في تنوع بديع يشهد بأن الخالق هو صالحٌ ورحيمٌ، خَلَقَ حبات الرمال بهذه الوفرة ومن فوقها نجوم السماء اللامعة — خلق الكل من العدم، من لا شيء، وجاء بها لكي تشهد له بالصلاح والخير والقدرة والمحبة التي من طبعها الجود.

٢- هذه الموجودات لم تُخلَق فقط، بل لا تزال حية باقية بما أودع الخالق فيها من حياةٍ وحركة حسب حدود طبعها؛ لأن الله لم يكتفِ بخلق العالم، بل أعطاه نظاماً وحدوداً وثبَّت كل الأشياء حسب صلاحه.

٣- نحن نعترف بأن الآب هو خالق كل الأشياء بابنه يسوع المسيح الكلمة ضابط الكل. هذه الحقيقة الفائقة التي تفوق كل الأشياء وتعلو على الفحص، تُعلِن لنا أن الآب خلق العالم المنظور وكل ما فيه، وغير المنظور وكل ما فيه من أجل الابن الوحيد؛ لكي يكون مجال استعلان الأبوة الإلهية. وعندما نقول من أجل الابن، فإننا نعتمد على عبارة الرسول: "الكل به وله خلق" (كولوسي ١: ١٦)، فهو خالق كل الأشياء بالابن وواهب كل الأشياء له، ولذلك "الكل خلق له".

٤- أعدَّ الآبُ الخليقةَ لتكون مجال استعلان المحبة الإلهية في ابنه وبالروح القدس، ولذلك كانت بدايات الإعلان: خَلقُ الإنسان حسب صورة الله (تك ١:

٢٦) ليكون له الوجود الفائق فوق كل الموجودات المنظورة، بل وغير المنظورة، ليس بقدرات الإنسان، بل بقدرات النعمة الإلهية. وعندما خُلِقَ الإنسان حسب صورة الله، فقد كانت عطية الصورة تحتوي على أركان الشركة؛ لأن صورة الله هي الوجود الروحي العاقل الذي يستمد منه الإنسان معرفته بنفسه (كيانه) ومن معرفة الإنسان بنفسه يسمو مرتفعاً نحو الحقيقة الأعلى، أي الكلمة ابن الآب الذي لأجله خُلِقَ الكل لكي يقود الكل كراعٍ صالح ومعلّم الحق للآب الذي منه كل الأشياء ونحن به (١ كور ٨: ٦)، والذي منه وُلِدَ الابن أزلياً لكي يعلنه للخليقة ويقودها نحوه لكي تسكن في الثالوث مستنيرةً بالإعلان الإلهي الذي يعطيه الابن ويغرسه الروح القدس المعزّي.

٥- هذه هي أساسات المحبة الإلهية: خلقُ الإنسان على صورة الله، وإعلان الثالوث عن حياته وقدرته ومحبته بواسطة الابن. تقبل الخليقة هذا الإعلان من الابن في كيانها المنظور وغير المنظور أي الجسداني والروحي معاً. ثبات الخليقة في المحبة الإلهية المعلَنة بالروح القدس.

٦- كيف تعبّر الصورة الإلهية التي أعطيت للإنسان عن محبة الله؟ ولماذا يجب أن تصبح عطية الصورة هي أساس المحبة؟ لا يجب أن تغيب هذه الحقيقة الرسولية عن فكرنا لأن المحبة هي تشبُّه ومخالطة وشركة واتحاد بمَن نحب. هكذا غرس الله المحبةَ في قلب الإنسان لكي يعلو بالشركة نحو ما هو أسمى من الوجود المنفرد الخاص بكل شخص؛ لأن الوجود المنفرد لكل شخص لا يعطي الكمال بالمرة، ولا يمنح للإنسان الوجود الحقيقي.

وإذا كان الإنسان مخلوقاً على صورة غير صورة الله، فقد تعذّر عليه أن يحب الله؛ لأن المحبة والصورة هما وجهان لا يمكن فصلهما عن الآخر. الصورة هي الكيان نفسه، والمحبة هي القوة التي تحرك الإنسان وتجعله يطلب الآخر ويسعى نحوه بقوة عاقلة حرة تطلب الشركة. هذا ليس على المستوى الحسي والجسداني فقط، بل على المستوى الروحي الفائق؛ لأننا عندما نفشل في محبة الآخرين نبقى في فراغٍ نحس به، ويدفعنا إلى أن نمتلئ من شهوات نفوسنا فقط لكي يكبر ويزداد

هذا الفراغ لأنه لم يمتلئ حسب الصورة الإلهية، أي حسب أساس الشركة، بل طلب الامتلاء من الذات وبالذات، فصار فراغه أكبر، يحضّه على الأنانية والبغضة والحسد، وعلى خطايا أخرى مركزها الذات التي «حُشِرَت» في الجسد، ولم تعد تعرف حياة أعلى وأجمل من الحياة الجسدانية؛ لأن الذات عندما تتجه نحو كيانها، يظلّم فيها الإدراك، وتصبح المعرفةُ فيها غارقةً في لُجة شهواتٍ جسدانية تظن النفس أنها غاية وجودها، فيزداد فيها الظلام.

لكن الله محب البشر وَهَبَ للإنسان صورته لكي يكون عاقلاً وحراً وحياً ساعياً نحو الشركة؛ إذ تأتي المعرفة من القلب ومن الخارج أيضاً. من القلب، حيث يعمل الروح القدس رب الحكمة والناطق في الأنبياء لكي يعطي للإنسان الفهم والحس الروحي الذي لا يُولد ولا يأتي من الاستدلال، بل يشعُّ مثل نورٍ يُشرق في القلب بدون مقدمات أو حتى سابق معرفة، وكم من مرةٍ لَمَعَ فيها معنى كلمات الوحي الإلهي فجأة بسبب الاستنارة التي تأتي من روح الحكمة، ومن لمعان نور الحق المشرق في القلب.

جاءت مع الخطية لعنة الموت، وهي اللعنة التي طلبها الإنسان، والتي شطرت (أي قسمت) الحياة الداخلية إلى قوى متصارعة، وهي من أول علامات الموت والانحلال الداخلي الذي يفصل القوى الخاصة بالحياة، ويحوّل الاستدلال من إدراكٍ للحق كما هو إلى تحقيقٍ للشهوة؛ إذ يظن الإنسان أن القتل شجاعةٌ، وأن سفكَ الدم قدرةٌ، وأن الضربَ والشتائم واللعنات هي قوة وتفوُّق. ومتى سكنت الشهوة واللذة في العقل، تحوّل التصور إلى طلب اللذة لا إلى طلب الحق. وعندما يشتعل القلب ويسعى وراء اللذة، فإن الذاكرة تمد المخيلة بكل خبرات الماضي، وتشعل الصور العقلية في الإرادة الرغبةَ الجامحة. عند ذلك يقترب الإنسان من حفرة الموت، وهي حفرة طلب تحقيق مطالب الذات تحت صورةٍ مُقنَّعةٍ للحياة؛ إذ يلبس الموت صورة الحياة التي يظن الإنسان أنها صالحة، وهي حسب عبارة الرسول «منشئة الموت» (راجع رو ٧: ٢٤).

٧- هذه الدوامة العنيفة التي يدور فيها الإنسان المشتعل بنار اللذة حول ذاته،

وضع لها الرب يسوع المسيح الدواءَ الوحيد الذي يجب أن يطلبه الإنسان بإرادته الخاصة مهما كانت ضعيفة، فقد ثبَّت تجسد رب المجد قاعدة "إخلاء الذات" (فيلبي ٢: ٦) وفي كلمات شافية يقول الرسول: "إن المسيح لم يرضِ ذاته" (رو ١٥: ٣)؛ لأن إرضاء الذات هو بداية التحول عن الله والسعي وراء غرورٍ ووهم باطلٍ، وهو تصورات القلب الذي يسعى وراء مجده الذي لا مكان لله فيه. وقد جاء موتُ الرب المحيي على الصليب المكرم لكي يثبت للإنسان الضعيف الخائر العزم:

أولاً: قوة البذل التي أبادت الخوف من الموت.

ثانياً: خلود الحياة الجديدة التي جعلت الموت والشيطان والجحيم تحت أقدامنا، ولذلك نقول للرب: «اسحق رؤوسه تحت أقدامنا سريعاً» (صلاة التحليل)، ولا نكتفي بذلك، بل نقول: «بدد عنا أفكاره وتصوراته العقلية الشريرة».

لقد جاء الرب يسوع كطبيب حكيم محب ونصب خيمته بيننا (يوحنا ١: ١٤). سكن فيه كل ملء اللاهوت جسدياً. و»السكنى» من علامات الإتحاد، «والحلول» من علامات «الإستعلان». وكما سكن الرب إله الآباء في وسط شعبه قديماً، يسكن الآن بيننا كرأس الجسد الذي منه تأخذ كل الأعضاء حياتها وقوتها؛ إذ يرسل يسوع الطبيب محب البشر قوة إخلاء الذات من أقنومه الإلهي المنتصر غالب الموت، قوة الصليب ومجد الحياة الأبدية إلى كل عضو في الجسد الواحد، جسد الرب الكنيسة، معلِناً – كطبيب – أنه يترل إلى حفرة الخطية معنا لكي يرفعنا، ويدخل إلى القلب المنقسم لكي يرده إلى السلام، وينير الخائف بجمال ونور الحياة الأبدية ومجد النعمة السماوية.

٨- إذا صلَّينا بحرارة الروح القدس كل كلمة نطق بها الرب يسوع حسب وصية المزمور الأول الذي يصف الصديقين بأنهم "يلهجون نهاراً وليلاً في شريعة الرب" (مزمور ١: ٢)، عند ذلك تنكشف لنا أسرار المحبة الإلهية، ويظهر يسوع محب البشر حتى للذين غطَّت غشاوة الخطية عيونهم؛ لأننا نرى الرب يسوع المسيح كراعٍ يؤكِّد أنه لا يضحي بخروفٍ واحد، بل يترك الـــ ٩٩ ويفتش على

الخروف الضال (لو ١٥: ٤ – ٦). هو النور الذي يشرق في الظلمة لكل الضالين لأن فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه (يوحنا ١: ٤ – ٥). والظلمة هي العداوة والبغضة ولذلك قال الرسول يوحنا: ''الله نور وليس فيه ظلمة البتة'' (١ يو ١: ٥).

وعندما يقول الرب نفسه إن المدينة التي على رأس الجبل لا يمكن ان تبقى خفية وأن المنارة التي توضع في مكان عال تضئ لكل البيت (متى ٥: ١٥)، فقد كان يشير من طرف خفي إلى حقيقة تواضعه ومحبته؛ لأنه هو النور الذي يضيء وهو على المكان العالي؛ لأنه «ارتفع» على عود الصليب لكي يرسل لنا شعاع محبته الفادية لكي يتم قوله الإلهي: «وأنا متى ارتفعت أجذب إلى الجميع» (يو ١٢: ٣٢)، فقد «رُفِعَ»؛ لكي يرفعنا معه لكي نرى مجده ونؤمن به.

٩- يذكر الإنجيل المقدس في أكثر من موضع أن يسوع كان يطوف القرى والمدن ليشفي الجموع التي كانت مثل خرافٍ لا راعي لها. هو الطبيب الحقيقي الذي يبحث عن المرضى. هو ''الطبيب الحقيقي الذي لأنفسنا وأرواحنا''. هو''إله الأرواح والأجساد''. هو الذي يفتّش عن المحتاج؛ لأنه في اشتعال محبته للبشر، لا يجلس مستريحاً في انتظار الآتين إليه. قَلَبَ يسوع قواعد حياة الملوك، صار الملك الذي يفتّش عن الرعية، والملك الخادم الذي ينحني لكي يبحث عن المطرود، عن غير الأنقياء، عن الضالين، عن الذين وقعوا تحت سلطان الشيطان. محب البشر الذي يبحث عن المحتاج.

١٠- عندما قال الإنجيلي يوحنا: «لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق» (١ يو ٣: ١٨)، فقد استلم هذا من المعلم يسوع المسيح محب البشر الذي لم يأتِ لكي يتكلم عن المحبة، بل بالأعمال أظهر المحبة. رآه زكا العشار وأدرك عمق محبة يسوع له، ولذلك أحس الرب بمحبة زكا، فطلب ضيافة زكا. لم يتكلم زكا عن أي شيء، و لم يذكر الرب أنه يحب زكا بل جمع الصمت الإثنين، وفي أعماق الصمت اكتشف زكا ضرورة توبته. المحبة تُعلَن بدون كلمات، والضيافة أقوى من الألفاظ.

١١- ونفس ما ذكرناه ينطبق على اللص الصالح الذي صُلِبَ عن يمين الرب، فقد لمس براءة ونقاء المصلوب؛ ولذلك تبع الرب في آلامه، ونطق بالحق، وشهد لبراءة يسوع. وفي عمق عذاب الصليب لم ينسَ الربُ اللِّصَ، فقال: "اليوم تكون معي في الفردوس". فقد لمح الربُّ بقوة بصره الإلهي بذرة المحبة في نفس اللص؛ إذ كيف يرى اللص براءة المصلوب وهو غارقٌ في دنس الخطف والإستيلاء على ما يخص الآخرين، لأنه يرى أنه أعظم وأفضل، وأن غيره لا يجب أن يقتني شيئاً، لكن الصليب جرّده من شهوات السرقة، وأدرك أن ساعته قد جاءت، ولذلك رأى نقاوة المصلوب. كان تدبيراً إلهياً أن يموت مع المخلص، وأن يسبقه الرب لكي يستقبله في الفردوس. وفي الفردوس رأى ما كان بعيداً عن الإدراك، رأى ذاك الذي هو لهيب محبة، والذي وعده بالفردوس. لم يدخل محب البشر الفردوس وحده، بل دخل ومعه اللص؛ لأن المحبة لا تطلب ما لنفسها (١كور ١٣: ٥).

١٢- دخل محب البشر السامرة لأنه كان يرى القلب العطشان للمحبة، وهو قلب المرأة السامرية. وجلس عن البئر ينتظر ذلك القلب، ذلك الوعاء الفارغ الذي امتلأ من نجاسات الجسد، وظن أن فيها الجائزة الكبرى. اشتاق يسوع أن يعطي المرأة الماء الذي لا يسبب العطش، بل يعطي الارتواء، ومتى ارتوى صار الشوق إلى الارتواء الأكبر هو ذلك الينبوع الذي ينبع إلى حياة أبدية (راجع يوحنا ٤:١٤). العطش هو ثمن ما ليس لدينا، هو رؤية الماء والسعي اليه. أما الارتواء فهو طلب تذوق يدفع إلى طلب البقاء في النعمة والسعي نحو المزيد، ليس عن شهوة، بل عن قناعة التخلي عن كل ما يعطّل، إنها عدة قوى روحية تعمل معاً:

١- الرغبة في الالتصاق بالرب.

٢- التخلي الحر عن كل ما يعطل هذا الالتصاق.

٣- جحد كل ما يعطل الالتصاق.

٤- التسبيح والبقاء في الشركة.

هذا ليس هو الارتواء، بل الارتواء هو أولاً بالرؤيا لمجد الحياة الأبدية، وهو ليس فقط رغبة أو شعور أو عواطف، بل هو انطلاق الروح بقواها العاقلة نحو ما

هو أعظم، وهو الرب يسوع المسيح المتكئ في حضن الآب، والسعي للبقاء في حضن الآب. عند ذلك يصبح طلب المواهب الروحية مثل الحديث عن التراب، أما طلب البقاء في نار المحبة، فهو الذهب النقي الذي تريده النفس بإصرار المحبة.

١٣- أسقطت السامرية أول قطعة من الغشاوة عندما سمعت يسوع يتحدث إليها كيهودي، وسقطت قطعة أخرى عندما سمعت الرب يسوع يقدم لها "عطية الله" (يو ٤: ١٠). وتبدد ما تبقى عند البحث عن وسيلة، ليس لديك "دلو". الماء ليس ماء بئر يعقوب، إنه ليس الاختبار القديم، ولا هو فكر ورؤية البشر الذين عاشوا قبلنا، مَن يشرب من التاريخ القديم يحيا في القديم، ويظل سجين الماضي؛ لأن الزمان والعادات والأفكار، حتى الجديدة منها لا تقربنا من الله؛ لذلك قال الرسول وشاهد يسوع المسيح إن الطعام لا يقربنا من الله (١كو ٨: ٨). وعندما قال إن ملكوت الله ليس أكلاً أو شرباً بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس (رو ١٤: ١٧)، فقد أكد أن الوسطاء غير قادرين على أن يقربوننا من الله. الوسطاء هم:

* نوع الطعام.
* فرائض الاغتسالات حسب شريعة موسى.
* نظام ومواعيد الصلوات.
* فترات الصوم.
* أنواع الملابس.

وغيرها من ممارسات لا تجعلنا «مرضيين» عند الله؛ لأن الله رضى بنا عندما تجسد وتأنس وأحب الطبيعة الإنسانية التي قدَّمها له الروح القدس، الروح المعزِّي لكي "يغرس" المحبة الإلهية، بآدم الأخير (١كور ١٥: ٤٥)، ويقدم للآب إنساناً كاملاً له "ملء القامة" (أف ٤: ١٣) التي أرادها الآب الصالح عندما دبَّر خلق العالم.

١٤- عندما جاء الرب إلى سوخار وتعب من السفر، جلس عند البئر، وكانت نحو الساعة السادسة (يوحنا ٤: ٦). هي الساعة التي صُلِبَ فيها معلناً

محبته للبشر. وهناك عند البئر قدَّم لها بشارة الحياة الأبدية، إلى امرأة كان لها ''خمسة أزواج'' (يوحنا ٤: ١٨)، والسادس كما قال رب المجد: ''ليس هو زوجك''؛ لأنه كما يبدو من كلام المخلص كان عشيقاً. عجيب أن يقدم الرب نعمة الحياة الأبدية لهذه المرأة، ولكن أين هي حدود المحبة الإلهية؟ بل ما هي هذه الحدود؟

* أنها لا تنتظر ولا تطلب شروطاً ولا تضع قيوداً، بل هنا لم يطلب الرب التوبة لأن توبتنا لم تستدعِ محبة الله، ولم تكن هي سبباً لتجسده، بل كما علَّمتنا الكنيسة «غُلِبَ من تحننه»، ثم «أرسل لنا ذراعه التي تعلو على كل قوة لتهدم كل الموانع».

* المحبة «تتأنى وترفق»، بل «تصبر على كل شيء»، ولكنها لا تتراجع.

* المحبة لا تقبِّح لأنها لا ترى الخطايا ولا حتى تتحدث عنها، بل لا ترى الخاطئ قبيحاً؛ لأنها تراه كما تحب أن يكون.

* المحبة لا تسقط أبداً، حتى أمام عناد وتشامخ الفكر وكبرياء القلب، لا تطلب المحبة الدينونة بل المصالحة، لا تسعى للحكم بل تسعى للغفران، لا تنتقم من الذين يرفضونها؛ ولذلك قال الرسول يعقوب عن وجه المحبة اللامع والمشرق بالقبول والغفران: «الرحمة تفتخر على الحكم» (يع ٢: ١٣)، وقد أضاف إلى قول الرسول معلمنا الكبير ديونيسيوس: الرحمة هي وجه المحبة وهي تفتخر على الحكم في يوم الدينونة؛ لأننا بالرحمة ندخل الملكوت، وما أكثر الخطاة الذين سوف تنقذهم رحمة الله.

١٥- لا تضع طقوساً مثل السامرية ''آباؤنا سجدوا في هذا الجبل'' لكي تعطل محبة الله، ولا تضع الخلافات عائقاً ''وأنتم تقولون أن في أورشليم المكان الذي ينبغي أن يسجد فيه البشر لله (راجع يوحنا ٤: ٢٠) ولكن أيها الباحث عن الله، هذا هو صوت المحبة: لقد كان الخلاص هو من عند اليهود (يوحنا ٤: ٢٢)، ولكن عندما يندفع طوفان المحبة الإلهية، فإن طقوس الآباء والعادات التي تميِّز جماعة معينة تجرفها المحبة الإلهية؛ لأن السجود الحقيقي للآب هو بروح الحق،

روح يسوع الإله المتجسد، لأننا في يسوع نسجد فيه بالروح القدس المنبثق من الآب (يوحنا ١٦: ٢٥) لكي يضعنا الروح القدس في بحر المحبة الإلهية حيث لا عوائق ولا موانع لأن يسوع ملك المجد قد غلب الموت وقهر الفساد ورفع الحكم وأعطانا الحياة الأبدية.

١٦- ترك لنا الإنجيلي لوقا دستور المحبة الإلهية في الإصحاح الخامس عشر، كان عسل المحبة الشهي يقطر، ولذلك كما يقول الإنجيلي: "كان جميع العشارين والخطاة يدنون منه ليسمعوه". لقد رأوا فيه ما لا يمكن رؤيته في الفريسيين الذين أضافوا كل الشروط الثقيلة على وصايا الله وجعلوها كما قال الرب: "أحمالاً يستحيل على أي أحد أن يحملها (حسب الأصل أحمالاً عسيرة أو شاقة). سكب الرب يسوع كأس المحبة أمام الجميع لأنه كان - كما ذكر الإنجيلي - "يقبل الخطاة ويأكل معهم" (لو ١٥: ٢)، وجاء المثل مثل سيل مياه كثيرة لا يمكن أن يقف أمامها عائق. يترك صاحب الخراف الـــ ٩٩ ويذهب لأجل الضال. لا تقبل المحبة أن تخسر ولو خروفاً واحداً ضالاً، ولاحظوا كلمات الرب نفسه: "وعندما يجد الخروف الضال لا يقوده بل يضعه على منكبيه ويا لقوة المحبة، يحمله "فرحاً" (راجع لوقا ١٤: ١ - ٤).

عندما قال الرسول: «المحبة لا تفرح بالإثم»، فقد وضع الحد الذي لا يمكن أن تعبره؛ لأنها ضد كل إثم، ولكن هنا يضع الرب يسوع محب البشر ما هو أعظم من عدم عبور الحد؛ لأن هذا هو حركة سلبية، بل الحركة الإيجابية للمحبة هي أنها إيجابية تفرح بعودة الضال وتحمله لأنه تعب من ثقل حمل الإثم والخطايا. هكذا يحمل «محب البشر» كل ضال مهما كانت آثامه، ولذلك قيل إنه «حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يوحنا ١: ٢٩).

١٧- ويعلن الرب يسوع فرح المحبة، فقد جاء صاحب الخراف إلى بيته ودعى الأصدقاء والجيران قائلاً لهم افرحوا معي لأني وجدت خروفي الضال (لوقا ١٥: ٥). لم يقل وجدت الخروف، بل "خروفي". لم يترع عنه الانتماء، لا زال يملكه ويقول: "الضال" ليس من قبيل الشماتة، بل لكي يعلن أن الفرح الحقيقي،

أي فرح المحبة التي لا تحفظ هذا الفرح لنفسها لأن المحبة لا تطلب ما لنفسها، وختم الرب قوله: "هكذا يكون فرح في السماء" (لوقا ١٥: ٢٧).

١٨- لنقف قليلاً عند فرح المحبة بعودة الضال، فقد أكده الرب في مثل الدرهم الضائع الذي تبحث عنه ربة البيت بكل اجتهاد (لوقا ١٥: ٨)، بل أنها توقد سراجاً فترسل المحبة نور المعرفة للاستنارة لكي يدخل نور المحبة القلب المظلم، ثم مع الاستنارة يأتي التطهير؛ لأنها "تكنس البيت" وتفتش باجتهاد (لوقا ١٥: ٨)، ثم بعد التطهير يأتي الاتحاد، وهو قبول الخاطئ في الشركة.

المحبة تفرح بنا، بل تفتّش علينا وتدعونا إلى العودة إلى الله، وتجتهد المحبة لأنها تعلم أن الضائع سيبقى ضائعاً إن لم تسعَ خلفه. لقد طلب الربُ الضالين وحدد بذلك حركتين للمحبة: الحركة الأولى هي طلب الضال كما في مَثَلَي الخروف والدرهم، والحركة الثانية هي بحث الضال نفسه عن المحبة كما في مثل الابن الشاطر، «لأنه تذكر رتبته الأولى» التي سقط منها، وقرر العودة.

* تفرح المحبة برد الحياة لأنها تحيي، وكما يفرح الفلاح عندما يجمع الحصاد؛ لأن الذين يغرسون بتعب وعرق النهار «يحصدون بالفرح» (راجع مزمور ١٢٦: ٢٤) ويجيء الحصاد بالترنم (مزمور ١٢٦: ٦) وعندما تثمر بذرة الحياة الجديدة فينا، يضع الرب ذات الفرح في قلوبنا وفي قلوب الرتب السماوية حسبما ذكر هو بفمه الإلهي (راجع لوقا ١٥: ١- وما بعده).

* تفرح المحبة بالانتصار على الانفصال؛ لأن الخروف الضال ترك القطيع وعندما أعاده الراعي الصالح رب كل الخراف كان فرحٌ في السماء.

* تفرح المحبة بغلبة الرحمة على القسوة، والغفران على العداوة، والسلام على الخصام، والألفة والشركة تقهر العداوة وتدوس الدينونة بقدمي الرحمة والصلاح.

١٩- لقد أعطت المحبة حرية الاختيار لأنه حيث لا مكان للحرية لا يوجد للمحبة مكان (حيث لا مكان للحرية لا مكان للمحبة) ولذلك قسّم الأب معيشته وأعطى الابن الأصغر الشّطر الذي يخصه (راجع لوقا ١٥: ١١ وما

بعده). تركت المحبة لنا حرية الاختيار، ولذلك "بعد أيام ليست كثيرة جمع الابن الأصغر كل شيء وسافر إلى كورة بعيدة" (لوقا ١٥: ١٣).

* لا يعرف الشرُّ حدوداً يجب أن يقف عندها؛ لأنه تحرر من كل التزام. بدد الابن المال الذي لم يجمعه مثل آدم الأول الذي بدد صورة الله ومثاله (تك ١: ٢٦). عجيب حقاً أن تأتي المجاعة الشديدة في وقت الفقر (لوقا ١٥: ١٤). تلك مأساة، بل هي كارثة الخطية التي تظهر عندما نجد أن كل الوسائل التي اخترعناها لأنفسنا عاجزةٌ عن أن تُشبع قلوبنا الجائعة.

لقد تسوَّلت البشرية من الوثنية و لم تشبع، وتسوَّل شعب اسرائيل من التوراة و لم يجد فيها سوى العبودية، ولكن جاء ابن الله لكي يذكِّرنا بالغنى الذي كان لنا في بيت الآب، جاء برسالة الملكوت. جاء الابن يطلب أن يكون عبداً أجيراً بعد أن فقد كرامة البنوة وبدد الميراث، ولكن ماذا يقول الرب: «وإذ كان لم يزل بعيداً رآه أبوه فتحنن وركض»؛ لأنه لم ينتظر أن يأتي إليه الابن لئلا يخطئ الابن في فهم هذا الانتظار، وحتى لا يترك للشك مكاناً في قلب ابنه أخذه وقبَّله على عنقه» (لوقا ١٥: ٢٠)، ذلك العنق الذي حمل نير الخطية والشر، قبَّله معطياً إياه أعظم ما تجود به المحبة وهو القبلة.

* المحبة لا تحفظ الخطايا، بل تطرحها في بحر الغفران (راجع ميخا النبي ٧: ١٨ - ٢٠).

* حنان المحبة أقوى من خطايانا؛ لأن المحبة تعرف الضعف، ولا تلتمس الأعذار لأن العذر هو من رتبة[١٥] المحاكم، ولكن المحبة لا تحاكم أحداً لأن الحنان لا يحاكم أحداً.

٢٠- أمَّا عدو المحبة الأول فهو الانقسام، وهو ثمرة من ثمرات الكبرياء ومن بقايا الطبيعة القديمة. لأن آدم أراد أن يكون إلهاً بدون شركة في اللاهوت، وبذلك تسلل الانقسام إلى كيانه. لم يقبل أن يكون صورة الله، فصار صورةً لذاته، و لم

١٥- العذر هو طقس المحكمة وتقديم العذر هو نوع من العتاب، والمحبة ترتفع على مستوى العتاب لمن يقدر عليه (الأنبا مكسيموس أسقف القليوبية المتنيح).

يرضَ بالحدود التي أعطيت بالنعمة فسعى إلى ما يوصف حسب كلمات الإنجيلي بـــ «التعدي»، أي الخروج خارج (دائرة الوجود)، وطلب الوجود الذاتي النابع من الكيان المخلوق من العدم، ولذلك سقط في الموت.

٢١- الكبرياء تقسّم؛ لأنها سعي الذات نحو نفسها، وصورة هذا السعي "الأنانية" حيث تطلب الذات من داخلها وبواسطة المخيِّلة ما تظن أنها لها وحدها.

٢٢- لكن المحبة هي تلك النار التي تلتهم الكبرياء أي محبة يسوع؛ لأن البشر يُفسدون هذه الكلمة ويستعملونها في غير موضعها وفي غير معناها الحقيقي. المحبة تنبع من القلب ϩⲎⲦ وهي رؤية داخلية وإدراك من الفطنة ⲚⲞⲨⲤ فهي ليست فكرة تأتي من العقل، بل هي الأساس ⲠⲒⲤⲀⲚⲦⲒ أو أساس الوجود الحي ⲠⲒⲰⲚϦ لأن الوجود الخاضع للموت يعرف الشهوة والامتلاك، أمّا الوجود الذي صار حياً في المسيح يسوع ربنا، فهو يعرف العطاء، وقد تحوّلت فيه الشهوة إلى قوة للعطاء لا إلى عمى الامتلاك.

٢٣- يذكرني هذا الرقم بالمزمور ٢٣ وهو من ألحان المحبة لأن كل المزامير هي أناشيد محبة، أحياناً جريحة من مصائب الأعداء وتصرخ، وأحياناً ترتمي في بحر الرحمة الإلهية لكي تحيا حسب هذه الرحمة. لذلك علينا – عندما نصلي المزامير – أن نقف ولو لبرهة قصيرة لكي نستعيد محبة يسوع، ولكي نرى أنه حق في الكلمات التي نطلب فيها الانتقام من الأعداء، فإن هذه الكلمات هي مرآة الحياة القديمة التي أخذناها من آدم الأول والتي يجب أن تُفتدى في آدم الأخير ربنا يسوع المسيح الذي له المجد الدائم إلى الأبد. آمين.

٢٤- حسناً. جئنا إلى أحد جوانب المحبة، وهي العواطف والمشاعر التي أحياناً نحس بها مثل اندفاع مياه طوفان عنيف. هذه أحد فروع المحبة، ولكنها ليست الجذر، ولا حتى ساق شجرة المحبة. العواطف المقدسة النبيلة جيدة، ولكن المحبة ليست هي هذه العواطف أو المشاعر المقدسة، إنها أقوى وأعظم؛ لأنها من

الحكمة والفطنة والإرادة والرؤيا (حرفياً التاؤريا[16]) وفي حرارة الروح القدس والالتصاق بيسوع المسيح أحياناً كمصلوب ومتألم ومطرود ومُشتكى عليه، وأحياناً في مجد جبل طابور (جبل التجلي) تُولد هذه المشاعر من كلمة الله، ومحاربة القوات الشريرة، ومن مضايقات الناس، لكن طريق الكاملين هو في ولادة المشاعر والعواطف من الحكمة لا من شعور أو عاطفة فقط.

٢٥- عندما سألتني - يا عطية الله - عن نار الروح القدس، وجدت نفسي أمام آتون المحبة الإلهية. ووجدت أن ألسنة اللهب تتحرك في اتجاهات متناغمة. فهي تطهّر وتزرع الخشية من الخطية. وهي تنير وتقوي السعي فينا لطلب الحق. وهي تقدّس عندما تمنحنا رؤية مجد الحياة الجديدة، هذه التي نطلبها بذات حرارة الروح القدس. وهي تغوص في أعماق الروح الإنسانية؛ لكي تجعل الموت أهون من السقوط، ومحبة الأعداء وغفران الخطايا الموجّهة ضدنا مثل عسل شهيّ للروح والجسد. عند ذلك لا تجد في نفسك رغبةً في النوم أو الكلام، أو خُلطة (معاشرة) الناس، بل سعادة وفرح بالصمت.

٢٦- عندما تلمس نار الروح القدس كياننا، تصبح العواطف والفكر أي عواطفنا وأفكارنا بلا قيمة، بل لا نحتاج إليها؛ لأننا "عراةً" خرجتُ من بطن أمي كما قال أيوب البار (تركنا النص كما هو)، وعراةً نعود إلى الله؛ لأن المحبة النارية تجردنا من كل شيء وتجعلنا أحراراً عراةً من كل ما نعرف ونطلب أمام الثالوث القدوس.

٢٧- عندما يجرّدنا الروح الناري — حسب كلمات أبينا انطونيوس البار — من تفضيل الذات على الرب وعلى الآخرين، ويوحّدنا بأعضاء جسد الرب يسوع، فإننا عند ذلك ندخل طاحونة الجلجثة، حيث تُطحن الذات لتصير الدقيق الذي بنار الروح القدس يصبح خبز حياة يوزّعه الرأس نفسه، أي الرب يسوع المسيح في خدمة أعضاء جسده، ولأنه هو الذبيحة وخبز الحياة، فإنه بالروح القدس يوحّدنا في محبته لكي نتحرر من الأهواء عاملين معه وبه إرادته السماوية

١٦ راجع كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية للأب متى المسكين. ولم يحدد الأب صفرونيوس ما هو المقصود "التاؤريا".

لكي نصل إلى ما علّم به رسول الرب نفسه: "قدموا أجسادكم ذبائح حية روحية" (راجع رو ١٢: ١).

٢٨- هذا يعمله الرب من أجل (بسبب) محبته؛ لأنه يحوِّلنا إليه لكي نصير كمثل تحوُّل ناسوته؛ لأن هذا هو غاية المحبة أي شركتنا في حياة الثالوث بالابن الممجد.

٢٩- أمَّا إذا سألنا عن تطهير الروح القدس، فإن أحدى صلواتنا تقول: ''أعطني النار غير المحسوسة لكي تحرق الضعيفات''؛ لأن هذه النار تكشف مجد الأمور الأبدية لنا، وتنزع عنا كل التصاقٍ بالأمور الأرضية، وتعطي للنفس أن تعاين بهاء الحياة الجديدة وجمالها، فتسعى إليها بشوق وعزم.

٣٠- والتقديس ليس نزع ما هو غريب عن المحبة الإلهية، بل تحوُّلنا نحن إلى ذات المحبة على قدر ما تسمح به نعمة الله وتقبله الطبيعة البشرية، وهو ما أُعلِن في تدبير تجسد ابن الله ربنا يسوع المسيح.

٣١- توجد قداسة واحدة للثالوث القدوس أُعلِنت لنا في الابن بواسطة الروح القدس. وهي نعمة وعمل الثالوث التي تردنا إلى صورة الله التي جُدِّدت في يسوع المسيح ابن الله. قداسةٌ من الآب الذي قال: ''كونوا قديسين'' مُعلَنةٌ في الابن الذي قال: ''لأجلهم أقدِّس ذاتي لكي يكونوا مقدسين في الحق''. هذه القداسة تعطي لنا تخصيص المحبة الإلهية وارتفاعها فوق التصورات والمشاعر وكل أنواع العواطف.

٣٢- محبة الثالوث، محبة القدوس، محبة خاصة لا مثيل لها. وتقديس المحبة هو في ارتفاع هذه المحبة فوق كل ما هو أرضي. وعلينا أن نطلب ذلك من الروح الناري لكي نُقدَّس. وهذه هي علامات تقديس المحبة كما نلاحظها:

كل من لا يضبط لسانه، ولا يعف عن الكلام الباطل هو غريب عن محبة الله؛ لأن المحبة تشفي ولا تجرح. وجروح اللسان لا تُشفى في أيام، بل تصيب الذين جُرحوا «بصغر النفس» بعطب. لذلك نحن لا نصدق من هو سريع الاعتداء على الآخرين بأنه عَرِفَ أو ذاق المحبة الإلهية، بل هو حتى غريبٌ عن محبة ذاته، أي محبة الذات الحقيقية التي سوف نشرح جوانبها المختلفة.

٣٣- من يجد لذةً في سرد أخطاء وخطايا الآخرين هو مولود من الشيطان، ولم يعرف محبة الله، ولا قبل غفران الله.

٣٤- سد أذنيك معاً، أي لا تجد في صمتك فضيلة عندما تسمع مذمة، بل قل في قلبك أنا لست أفضل، وقل كلمات محبة؛ لأنك بهذا تقف عن يمين الآب مع الرب الذي لا يدين، بل يغفر وقد أجَّل الدينونة إلى اليوم الأخير.

٣٥- إذ جاء عليك رعب الدينونة إذا سقطت، فاعلم أنه أحد بقايا "العبد" التي لم تتجدد في يسوع المسيح الابن الحر، الذي لم يكن رعباً لنا، بل الراعي الصالح والطبيب والكرمة. عليك أن تضع بقايا هذا العبد تحت قدمي الرب الذي صار عبداً لأجلنا (فيلبي ٢: ٦) لكي يرفعنا إلى مجد بنوته.

٣٦- لا تظن أن الله الآب الكلي الصلاح يحبك على قدر معرفتك، فهذا خطأٌ في إدراك التدبير؛ لأن الله ليس فقط أعظم من أن تدرك عقولنا عمق محبته وارتفاعها عن كل حدود الطبائع المخلوقة، بل لأن إعلان محبة الله في يسوع المسيح يفوق كل إدراك لأن تجسد الابن ربنا يسوع هو تواضع إلهي هدم كل شموخ العقل، وأسر كل تصور عن المحبة الإلهية وقيَّده بقيد التدبير، أي إنكار كل ما وصلنا من الوثنية. ومن يتصور أو يحس بأن الله يتعامل معنا على قدر معرفتنا؛ لن ينجو من الخوف ورعب الدينونة، ولن تنمو محبته لأن المعرفة الخاطئة صارت قيداً يقيد المحبة.

٣٧- إذن ماذا يجب علينا أن نفعل إذا وجدنا أنفسنا أسرى لفكر خاطئ، وهو أن نتصور الله كما نتصور البشر، أو عندما يصبح الله الكلي الصلاح هو صورة eikon أكبر وأعظم من البشر؛ لأن هذه هي وثنية جديدة تدفعنا لأن نجد الله في نظريات وإدراك الفكر. والجواب هو أن نعود إلى كلام الرسول، أي أن ندرك محبة الله الفائقة المعرفة (أف ٣: ١٩) في يسوع المسيح وحده.

٣٨- لا تسأل "كيف؟"؛ لأن هذا السؤال معناه أنك تريد أن تسلك ذات الطريق القديم، أي طريق المعرفة التي تبحث عن المحبة، وهو خطأٌ فادحٌ؛ لأن المحبة التي تولد من المعرفة تظل مقيَّدة بما أعطته الأم. أما المحبة التي تلد معرفة

إلهية، فهي تلك التي يعطيها الروح القدس (رو ٥: ٥) حسب قول الرسول بأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بهذا الروح الناري الذي يجرف أمامه كل شموخ الفكر، ويجرد الإنسان من رعب الدينونة لكي لا يتوب توبة الخوف، بل توبة المحبة التي تجعل هذه التوبة نقية مثل الفضة التي صفيت سبعة أضعاف (مزمور ١٢: ٦).

٣٩- هكذا أيضاً لا يجب أن نبقى في خوف من الدينونة، بل أن يصبح هذا الخوف ثمرة المحبة، أي أن نخاف أن نفقد هذه المحبة الوافرة ونرتد على أنفسنا ونسقط في خطايا كثيرة مصدرها الأول والأخير هو العودة إلى الذات والإفراط في محبتها؛ لأن هذا هو الطريق الواسع الذي يؤدي إلى الهلاك. ولذلك قال طبيب الجنس البشري ربنا يسوع المسيح: "من وجد نفسه"، أي من أغلق ذاته على ذاته، يفقدها، أي لا تثمر بل تحيا جحيم الموت قبل جهنم الأبدية. أمّا من "أضاع أو بذل ذاته"، يجدها أي يدركها في بحر المحبة الذي يُعلِّم كل إنسان تواضع القلب والانكسار أمام صلاح الله الذي يفوق كل ما يمكن أن يقال أو يعلَن. علينا أن نسير حسب تدبير الروح القدس الذي يخلع من القلب محبة الذات النابعة من الذات، ويجعلنا نحب أنفسنا بنعمة الذي دعانا إلى المجد والفضيلة (٢ بط ١: ٣).

٤٠- حسب تدبير الروح القدس، تسقط كل معارفنا عند قدمي المصلوب يسوع المسيح ربنا الذي مات لأجل الخطاة، وبموته عن الخطاة خلع من الإنسان كل محبة فاسدة تقود إلى تشامخ الفكر، فقد غرس الصليب في التاريخ والوجدان لكي يؤكد لنا أن الإنسان، كل إنسان خاطئ، وأنه بدون المسيح لا يمكن أن يتذوق محبة حقيقية لا لنفسه، ولا للعالم، ولا لله نفسه.

٤١- تأمَّل، لماذا أصر المسيح الرب على أن عدم الغفران يحرمنا من الغفران؟ ليس لأن صلاح الله ومحبته محدود بما نفعل، وإنما لأن عدم الغفران يجعلنا نحن أنفسنا غير قادرين على تذوق غفران الله الآب. لأننا إن لم نغفر لا يغفر لنا الآب السماوي، ليس بقساوة، وإنما لأننا فقدنا النعمة، أي نعمة الغفران التي تعطىَ لنا لكي ننمو في معرفة غفران الله الآب. فكيف ندفن هذه "الوزنة"، ثم نتوقع أن

ننال شيئاً بعد دفنها؟

٤٢- وعندما لا نغفر للآخرين، فإن محبتنا تظل مقيَّدة لا تنمو، بل قد تموت تحت وطأة وثقل العداوة، وبذلك نفشل في تذوق محبة الله الآب.

٤٣- كل ما نفعله من أعمال، وكل ما نقبله من تصورات (خيالات)، وكل ما نحس به هو القاعدة والأساس الذي تقوم عليه حياتنا. كل قول وفكر وعمل يعود علينا نحن ويقيِّدنا إمَّا بالفضائل أو الرذائل، لذلك من تقسَّى قلبه؛ عجز عن الإدراك أو حتى الإحساس القلبي بقوة غفران الله الآب.

٤٤- لقد تعلمنا من آدم الأول أن نضع أنفسنا قبل الله نفسه. فقد أدار آدم نظره نحو ذاته فوجدها كما أرادها، مستقلةً ذات إرادة منفصلة عن الله، ووضع لذاته شريعة معرفة الخير والشر حسب تصوره، فصارت الذات هي الوجود، وأصبح هذا الوجود منفصلاً عن الله، فدخل الموت وقتل الشركة، وصار الخوف من الموت هو "الداء الخفي" الذي يحرك إرادة الإنسان نحو ما يظن الإنسان أن فيه خلوده. من هنا بالذات توقف نمو الإنسان؛ لأن الذات لا تنمو بقدراتها وحدها، بل بما تنال من عطايا في الشركة. وتوقفت المحبة، فقتل قايين أخيه، وعمَّ الفساد والقتل والزنى.

٤٥- أمَّا الطبيب الحقيقي فقد جاء متجسداً من والدة الإله، ونال جسده من الروح القدس لكي يضع أساس شركتنا حتى بالجسد في الحياة الإلهية، وأخلى ذاته لكي يستر عري آدم، ولذلك قال إن كل مَن لا يجحد ذاته ويحمل صليبه لا يستحق أن يكون له تلميذاً (لو ١٤: ٢٧)، أي يعجز عن دخول مدرسة المحبة. لذلك علينا أن نقبل هذا الدواء الذي يغسل عار الارتداد نحو الذات كمصدر للحياة الوجود.

٤٦- فما هو جحد الذات؟ هو كراهية وبغضة الحياة الأولى التي أخذناها من آدم لكي نؤهَّل سرياً أن نأخذ الحياة الجديدة من آدم الأخير الرب يسوع المسيح الذي بصليبه حوَّل الناسوت فيه إلى حياة جديدة متألِّهة بالاتحاد بأقنومه؛ إذ جعل الناسوت يحيا حسب هذا الاتحاد السري الفائق لكي يكون مثالاً وينبوعاً لاتحادنا

السري بالرب يسوع حسب عمل الروح القدس فينا.

٤٧- وكراهية الذات القديمة هي "قرار" الإرادة، ولكن كمال هذا "القرار" هو بمسحة الروح القدس؛ لأن الذي يثبّتنا وقد مسحنا هو الله الآب في ابنه يسوع المسيح، الذي ختمنا بالروح القدس (راجع ٢ كو ١: ١٢).

٤٨- قرار الإرادة النابع من المحبة الإلهية التي تؤلّه الإرادة الإنسانية حتى لا تقع في التردد، وذلك عندما يقدّم لها الروح القدس المناظر الروحية العالية للحياة الجديدة وصورها الكاملة، ويضع العطش لطلب ذات مجد ابن الله ربنا يسوع المسيح، فتجد النفس أن راحتها في مجد الابن الوحيد، حتى لو كان ذلك يتعارض مع كل المشاعر؛ لأن "الحس الروحي" الذي يغرسه الروح القدس هو ذات "الحس الروحي" الذي ناله الناسوت وأدركه بالإتحاد بأقنوم الله الكلمة عندما تجسد ونما قليلاً مثل البشر، ونحن نأخذ من ملئه (يوحنا ١: ١٤) تلك النعمة التي تعلِن محبة الثالوث للبشر؛ لأننا بالمحبة نغلب وننمو صاعدين نحو الكمال الذي أدركه يسوع نفسه كإنسان.

٤٩- جحد الذات هو بداية التواضع الحقيقي؛ لأننا عندما نقول: "إننا خطاة"، فهذا تقريرٌ للحقيقة. أمّا التواضع، فهو عندما نرى أنفسنا فارغين من كل صلاح، وأن ما فينا هو من هبات الاستنارة التي يعطيها روح المحبة الإلهية (رو ٥: ٥) لكل مَن يطلب؛ لأن التواضع هو الذي يقودنا إلى الامتلاء من الروح القدس. وعندما ندرك أننا نعجز عن محبة الله، فإن الروح القدس الذي يئن مشتاقاً إلى أن يعطي لنا كل شيء (رو ٨: ٢٦)، يسكب هذه المحبة في قلوبنا الفارغة على قدر صلاحه وعلى قدر احتمال طبعنا الواهن الضعيف.

٥٠- عندما أنشد الرسول نشيد المحبة (١كو ١٣: ٤ - ٨)، فقد وضع أساس الحياة السرية Mystical لكل مَن يطلب هذه الحياة. أمّا مَن يريد أن يسير ويعيش حسب الأهواء، فهو مثل ورقة شجرة يابسة تطوّح بها الرياح في كل اتجاه. الثبات في المسيح هو ثبات في محبته (يوحنا ١٥: ٩)، والمحبة تغلب؛ لأن من طبيعة المحبة ليس فقط الوفاء، بل البذل والعطاء، ولذلك يأتي جحد الذات

مثل النار التي تعطي الدفء لكل عمل روحي.

٥١- عندما وصف الرسول المحبة بأوصاف سلبية، ونفى عنها تماماً أنها لا تتفاخر ولا تعلو ولا تقبح ولا تطلب ما لنفسها، فقد كشف لنا سر محبة المصلوب لأن:

* عدم الحسد مصدره الصلاح.

* عدم التفاخر سببه البذل.

* عدم الاستعلاء يعني التواضع.

* عدم تصور أو إعلان قباحة الخطاة هو نار المحبة التي جعلت القدوس ابن الله يموت عن الخطاة.

* ولا تطلب ما لنفسها، فقد أعلنت الغفران الكامل للكل.

ولكن لاحظ تكامل المحبة:

* المحبة تتأنى وترفق، ولذلك لا تحسد.

* المحبة لا تتفاخر ولا تعلو، ولذلك لا تطلب ما لنفسها.

* المحبة لا تحتد لأنها ترى الكمال قبل النقص وهي ينبوع الرجاء.

* المحبة لا تظن السوء لأنها لا ترى الشر وليس فيها شر، بل هي النقاء.

* المحبة لا تفرح بالإثم؛ لأن الفرح بالإثم هو فرح الشيطان، بينما فرح المحبة هو فرح الله.

* المحبة تفرح بالحق، وهنا نرى الثالوث: الآب يفرح بالابن الحق، والابن الحق يفرح «بروح الحق»، وروح الحق يفرح بالحق الذي تعلِنه الكنيسة[١٧].

* المحبة تحتمل كل شيء؛ لأنها رفعت خطايا العالم كله كمانع يحجز العالم عن الله.

* المحبة تصدق كل شيء، ليس لأنها بلهاء أو غبية، بل لأن نقاء المحبة لا يسمح بالشر، وكل المواعيد الإلهية هي حق، ومَن ذاق المحبة لا يجرِّب الله، بل

١٧- راجع كتاب الثالوث فرح الخليقة الجديدة، للأب صفرونيوس.

يثق في مواعيده، ولذلك هي ترجو كمال الكل، وتصبر حتى على الابن الضال حتى يعود. ولذلك قال الرسول إنها لا تفشل ولا تسقط؛ لأن السقوط قاصر على الخطاة، والسقوط هو الفشل في الوصول إلى غاية.

٥٢- والآن لنعود إلى الحياة السرية Mystical لأن من يريد الاتحاد بالمسيح، عليه أن يعرف شريعة المحبة، وأن يسلك حسب هذه الشريعة؛ لأن بداية الاتحاد حسب شريعة المحبة هو في كلمات الرسول السابقة (١ كو ١٣: ٤ - ٨)، والسلوك حسب هذه الشريعة يعني أن نترك الخطية تماماً؛ لأن كل الخطايا هي ضد المحبة، وهي لذلك السبب عينه هي ضد الله.

٥٣- تغلق الخطية علينا كل سبل تذوُّق المحبة؛ لأن دمار الخطية للنفس هو أنها تجعل النفس مصدر أو ينبوع وغاية كل شيء، وهي بذلك تجعل الحواس أسيرةً لكل لذةٍ، وتحصر الفكر في تطلعات الإدراك إلى إشباع الذات. هذا كما ترى - يا ثيئودوروس - هو ما حذَّر منه الرسول عندما جعل المحبة أساس الحياة، وجعل المحبة ترياق السموم التي تقتل الحياة، وهي: الحسد - التعالي - ظن السوء - الفرح بسقوط الناس - احتداد الطبع وسرعة الغضب. وهذه كلها هي طبيعة الشيطان نفسه.

٥٤- شريعة المحبة هي الصليب وغايتها القيامة، ولذلك كل الأوصاف السلبية والإيجابية للمحبة في كلمات الرسول (١كور ١٣: ٤ - ٨) تؤكد لنا أن ما لا يمكن أن تفعله المحبة هو قدرة الصليب وقوته، حيث لا حسد، ولا حدة طبع كسرها الرب بالغفران لصالبيه، وتأنيه على عودة بطرس الذي جحده، ولم يطلبْ منه حتى الاعتذار، بل صفح عنه بسؤال واحد: "هل تحبني أكثر من هؤلاء؟".

وغاية شريعة المحبة هي القيامة؛ لأن القيامة ترياق «الداء الخفي» لا تجعلنا نطلب ما لنفسنا، بل لأن الخلود استقر فينا بالروح القدس لم يعد لنا ألفة مع أي شيء آخر، ولم يعد لنا ينبوع حياة غير تلك التي يعطيها الآب بالابن في الروح القدس، ولذلك قال الرسول، وقد أدرك «قوة القيامة» (فيلبي ٣: ١٠) إن

«المحبة لا تطلب ما لنفسها»، فليس لها حقوق تسعى إليها؛ لأن من صار البذل طبيعةً له، لم يعد له اشتياق لأن يطلب شيئاً، بل صار مسكنه هو الابن الوحيد، وفرحه هو أنه في هيكل الروح القدس يعبد الثالوث الواحد في جوهره - أي في محبته - وغير المنقسم.

٥٥- رَسَمَ الرسول أيقونة وجه الله الآب المعلَنة في يسوع المسيح بكلمات نشيد المحبة (١ كور ١٣: ٤ - ٨)، مؤكِّداً لنا أن استعلان الله هو استعلان يفوق الشريعة القديمة، تلك التي أُعطيت على الجبل، وكلمات على الحجر، أمَّا هذه، فقد أُعلِنت في يسوع المسيح ابن الآب ولم تكتب على حجرٍ، بل على القلب (ارميا ٣١: ٣١)، وصارت بقوة الروح القدس لا بقوة الحرف المنقوش على حجر. لذلك - يا ثيئودوروس يا محب المسيح بالحق - علِّم الإخوة أن لا يجعلوا الشريعة، أي شريعة، تعلو على غاية الشريعة، وهي خلاص الساقطين وتوبة الخطاة؛ لأن غاية الناموس (الشريعة) هي المسيح (رو ١٠: ٤). ولم يأتِ الرب لكي يهلك ويعاقب ويبدد، بل جاء لكي يطلب الهالكين. لذلك إحذَر الناموسيين؛ لأنهم كانوا مع الجمع الذي صرخ "أصلبه أصلبه"، وهؤلاء لا يعرفون أن غاية الشريعة هي خلاص الكل، فلا تجعل لهم وصاية على المبتدئين، ولا تسمح لهم حتى بالتعليم لئلا يغرسوا القساوة والخوف المريض من الله؛ لأن الخوف المقدس هو من فقدان الشركة، أمَّا الخوف المريض فهو خوف العبيد من الحكم ومن الدينونة بسبب الظن أن الله قاسي القلب، متربصٌ بالخطاة، يقف منتظراً خطية واحدة لكي يُسرع بالعقاب.

٥٦- خوف المحبة لا وجود له - كما قال رسول الرب وشاهده (١يوحنا ٤: ١٨)؛ لأن المحبة تطرح الخوف خارجاً، لأن بذرة المحبة التي يغرسها الروح القدس في القلب، تنمو وتدرك صلاح الله، فتترك الخوف مثل رداء قديم يتركه عند باب الرحمة الإلهية.

٥٧- "الخوف له عذاب"؛ لأنه يحاكم الرجاء، ويلقي ظلالاً من الشك في صلاح المحبة، ولذلك هو من بقايا الخطية؛ لأنه من "نواقص" الطبيعة القديمة

الآدمية، تلك التي خافت عندما سمعت صوت الله في الجنة (تكوين ٣: ١٠)، ولم تعد قادرة على الألفة لأنها اغتربت عن الشركة.

٥٨- هل يوجد خوف مقدس، ذلك الذي قال عنه الكتاب المقدس: "رأس الحكمة مخافة الله"؟ نعم. يلد الخوف كثيرين، وما أكثر الذين يبدأون بالخوف، لكن الخوف هو طفولة الروح الإنسانية التي تخاف من الدينونة، فتسرع بالتوبة، ولكن الطفل يجب أن ينمو صاعداً نحو تذوق المحبة الإلهية في يسوع المسيح ربنا الذي علّمنا "حكمة المحبة" لا خوفها. وحقاً قيل: رأس الحكمة ⲁⲣⲭⲏ أي البداية. أمّا كمال ونضوج الحكمة، فهو في تذوق صلاح الله الذي يعطي ذاته في ملء المحبة لكي نُدرِك - روحياً وسرياً - محبة المسيح الفائقة المعرفة.

٥٩- الذين ولدوا من خوف الدينونة لا يجوز لهم تولي رعاية النفوس بسبب عدم كمال المحبة، ولأن خوف الدينونة يخلق فيهم قساوة قلب مصدرها الرعب من الله؛ إذ يتحول هذا الرعب إلى انتهار وشجب وأحياناً غضب، بل يصل إلى الانتقام؛ لأن المرتعد يريد أن يجعل كل الناس مثله، وعندما يفشل يهجم عليهم ظناً أنه يقرّبهم من الله.

٦٠- عندما قال الرب بفمه الإلهي: "لا تدينوا"، فقد أعلن لنا سبب عدم اشتراكنا في الدينونة، وكشف لنا عن الفساد القابع في النفس؛ لأنه قال: لأنكم سوف تدانون حسب مقياس الدينونة الذي أخذتموه وعالجتم بهم شركتكم مع الآخرين[١٨] (راجع مت ٧: ٢)، فكيف ندان أو لماذا ندان حسب مقياس الدينونة الخاص بنا؟

أولاً: لأنه مقياس بلا صلاح ورحمة.

ثانياً: لأنه يولد من الدفاع عن الذات، وهو «جرح» ذلك «الداء الخفي»، أي الموت.

ثالثاً: لأننا بذلك المقياس نفسه وضعنا الله في ميزان القضاء الخاص بنا،

١٨- ليس هذا نصاً كتابياً بل شرحاً.

وهو ما يجعلنا خارج الشركة تماماً معه ومع محبته الإلهية. فما أعظم العطب الذي نقع فيه؛ إذ عدمت نفوسنا الحس الروحي الصحيح بصلاح الله ورحمته، وأي ميراث نظن أننا سوف نأخذه.

٦٠- كل أفعالنا تعود إلينا حاملةً معها إما خيراً وصلاحاً، وإما نقصاً وتراجعاً عن المحبة. أما المحبة فهي لا تعيد إلينا إلّا الثالوث نفسه؛ لأنه الشركة المثلثة لوجود متبادل بين الأقانيم[١٩] perichoresis وكل أقنوم يسكن ويحل في الأقنومين دون انفصال أو انقسام؛ لأن حركة المحبة الإلهية هي حركة الطبيعة الفائقة التي لا انقسام فيها، بل هي غالبة الانقسام.

٦١- لأن طبيعة الله هي المحبة؛ لذلك أصبح التمييز بين الطبيعة والجوهر والأقنوم هو تمييز عقلي للفهم لأن الأقنوم هو كيان خاص متمايز بصفة خاصة لا تجعله منفصلاً بل متمايزاً، وعلى سبيل المثال "البنوة" خاصة بالابن، فهي عطاء الآب، وهي شركة الابن في الآب كما هي شركة الآب في الابن، وهي ليست شركة مغلقة أمام الروح القدس، بل لأن الروح القدس هو "روح الآب"، فهو "ينبثق" ويستقر في الابن، ولذلك وُهِبَ لنا من الآب بواسطة الابن.

٦٢- لكي ندرك عمق المحبة الثالوثية، استخدم الآباء التمييز اللفظي الذي لا يجب أن يقود الفكر إلى تصور كيان منفصل بسبب اختلاف الأسماء - كما فعل أريوس وانوميوس من بعده - لأن اختلاف أسماء الأقانيم: آب وابن وروح قدس هو إعلانٌ عن الحياة الإلهية التي تُثلِّث حسب الإعلان الإلهي، وحسب الحكمة الإلهية، وليس حسب الذكاء والتصور العقلي.

٦٣- الآب هو الينبوع، والابن يولد دائماً من الينبوع لكي يُعلن الينبوع إعلاناً عن محبة خاصة تفوق الإدراك. لأن ولادة الابن الأزلية - التي أنكرها أريوس - هي استعلان المحبة الإلهية التي تتحرك بقوة الحياة لكي تلد ليس من هو أقل، بل من هو "مساوٍ"؛ لأنه مولود من ذات الطبيعة التي ليس فيها عظيم

١٩- أو الحلول المتبادَل، فكل أقنوم حال في الآخر حسب قول الرب: "أنا حيّ في الآب والآب فيَّ"، وغيرها من عبارات تؤكد تمايز الأقانيم وحركة حلول متبادَل.

وحقير، أول وثان؛ إذ هي طبيعة واحدة فائقة. هنا كان استخدام كلمة طبيعة ضروري لتأكيد وحدة الآب والابن؛ لأنها وحدة محبة.

٦٤- الروح القدس هو عطية المحبة، والعطية الفائقة χαρισμ α ليست جديدة وحديثة، بل هي تُعطى من الآب للابن؛ لأن الروح هو محبة الآب للابن، لذلك "ينبثق" من الآب ويستقر في الابن، وقد أدركنا ذلك من تجسد الإبن ومعموديته؛ لأن الروح المستقر أزلياً في الابن خلق له مكان استقراره فينا، أي الجسد، ثم مسحه بعد خروجه من مياه الأردن معلِناً أنه المسيح ابن الله، وعندما مُسِحَ قال الآب: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت" (مت ٣: ١٧). وعندما ظلل الروح القدس الابنَ المتجسد على الجبل قال الآب: "هذا هو ابني الحبيب. له اسمعوا" (لوقا ٩: ٣٥) لأننا ؛ن سمعنا تعليم الرب أخذنا ذات المجد السماوي.

٦٥- المحبة تعطي ذاتها عطاءً كاملاً، ولذلك المحبة تعطي ولادة الابن وانبثاق الروح القدس، وكلاهما يعطي كيانه كاملاً للآب، كما يعطي الآب كيانه كاملاً للابن والروح القدس، لذلك كانت حكمة الآباء هي استخدام كلمة أقنوم لتمييز العطاء الكامل. فكيف يتناغم هذا مع وحدة الطبيعة التي لا انفصال فيها ولا تقسيم؟ والجواب سهل على مَن يدرك أن المحبة ليست حركة توحيدية توحِّد، بل حركة طبيعية تعطي، لأن توحيد الأقانيم لا يدل على الانقسام، بل يدل على وحدانية الجوهر أو الطبيعة. فالآب ليس أقنوماً يضاف إلى الطبيعة، ولا هو صادرٌ أو آتٍ من طبيعة، بل هو طبيعة اللاهوت. فليس الثالوث أقانيم ثلاثة تضاف إلى الطبيعة، بل هي أقانيم في الطبيعة الإلهية، أي الآب نفسه. ونحن نؤكد هذا لأن الآب هو ينبوع الابن والروح القدس.

٦٦- فما هو المُعلَن من هذه المحبة الخاصة الفائقة؟ والجواب ثلاثة إعلانات:

الأول: هو المحبة الأبوية التي لا تحفظ لنفسها شيئاً، هي فائقة الصلاح تعطي بلا حدود.

ثانياً: ولادة الابن هي ولادة المساوي، فليس في المحبة الإلهية «دونية» (أي ما هو أقل)، بل المساواة تحفظ أيضاً كل كلام عن الخلاص والحياة الأبدية. الآب

لا يحب من هو أقل منه لأن الاستعلاء هو خطية الشيطان.

ثالثاً: وانبثاق الروح القدس من الآب لكي يستقر في الابن، هو تأكيدٌ على أن الروح القدس المساوي للآب والابن هو العطية التي يملكها الآب ويعطيها للابن لكي بالولادة الأزلية والانبثاق الأزلي، يظهر الثالوث في محبته التي في جوهره الواحد غير المنقسم. فقد أعلن الآب أنه آبٌ لابنٍ وحيدٍ، ثم أعلن أنه مصدر الروح القدس؛ لأن الروح لا يولد ولكن ينبثق، وكِلتا الكلمتين تعبّران عن تمايز ولادة الابن وانبثاق الروح القدس. الولادةُ معلَنةٌ كولادةٍ؛ لأنها تحدد مصير البشر الذين ينالون بواسطة الابن التبني كعطية من الآب بالابن في الروح القدس.

٦٧– هذه العطية من الثالوث هي هبة، وهي من الينبوع وتُعلَن بالابن، وتُوهَب في الروح القدس. لأن هذه العطية لها ثلاثة مناحي:

الأولى: هي على مثال الابن، أي شركة تبنٍّ.

الثانية: هي روحانية من روح الحياة، روح الآب.

الثالثة: هي ليست خاصة بفرد واحد دون الباقين، بل هي لكل أعضاء الجسد الواحد، أي أعضاء الكنيسة، أعضاء المسيح، ولذلك هي تنقل كلَ ابنٍ نال هذه العطية إلى شركة مع الثالوث وبالثالوث في الكنيسة.

٦٨– تتحرك محبة الثالوث في داخل الحياة الإلهية، فهي تشبه الدائرة رغم أنها ليست دائرة؛ لأن الدائرة مغلقة، أما محبة الثالوث، فهي منفتحة على الخليقة. ومن الآب تُشرق، وبالابن تُعلَن، وبالروح القدس تُعطى.

٦٩– تُشرق مثل فيضان الماء من الينبوع، وتُعلَن مثل انسكاب الماء في وعاء، وتُوهَب لأنها هي التي تقدم نفسها، فلا يتجرّأ أحدٌ على اختطاف المحبة الإلهية، ولا يتجاسر أحد على أن ينالها باغتصاب.

٧٠– لماذا تتحرك المحبة نحونا حركة ثالوثية؟

أولاً: لأن لها ينبوع وهو الآب.

ثانياً: لأنها معلَنة في يسوع المسيح ابن الآب.

ثالثاً: لأنها تُوهَب بالروح القدس.

ولعل أهم ما يجب أن يُقال، هو أنها محبة شركة وليست محبة فرد واحد، فالفرد يحب كفرد ولا يملك أن يحب محبة شركة إلّا مع آخر، محبة مغلقة على اثنين لها خصوصية خاصة، وهي اتحاد الاثنين مثل اتحاد الرجل والمرأة، لكن محبة الفرد لفرد آخر - رغم اهميتها - إلّا أنها محبة مخلوقة لا يوجد فيها تخصص الشركة التي ترتفع فوق الثنائية، وتعلو في العطاء، فلا تغلق الشركة على اثنين، بل تفتح الشركة وتجود على هذا النحو:

أولاً: يحب الآب الابن ويعطي له ذاته، وكذلك يفعل الابن. ولكن هذا العطاء لا يُغلَق أمام هذه المحبة؛ لأن العطاء القاصر على اثنين ليس أقوى من عطاء ثلاثة، ولا هو أفضل رغم جودته وصلاحه الواضح.

ثانياً: عندما يعطي الآب ذاته للابن ويعطي له الآخر الذي هو منه، أي الروح القدس، فهو يجرد ذاته تجريداً كاملاً، ويعطي بالروح ذاته، وبعطاء الروح القدس للابن لا يضيف الآب ثالثاً من الخارج، بل يعطي الثالث الذي منه والمساوي له للابن لكي تكمل دائرة المحبة.

٧١- وعندما نسأل عن سبب ثالوثية المحبة، فإن الجواب هو من الإعلان الإلهي الذي أُعلن في تجسد الرب ومعموديته وتجلّيه على الجبل. لأنه تجسد من والدة الإله بالروح القدس وبقوة ومسرة الآب، واعتمد من يوحنا ومُسِحَ بالروح القدس، فأعلن للبشرية "الابن المحبوب".

وتجلى على جبل طابور وظلّله بالروح القدس، أي السحابة المنيرة، ونادى الآب: «هذا هو ابني الحبيب له اسمعوا»، وهكذا أعلن التجسدُ بنوةَ الابن الأزلية.

كما أُعلِن الروح القدس سرياً، ولكن الروح أُعلِن بشكل منظور في هيئة الحمامة، فأكّد الإعلان تمايز الروح عن الابن، وظلّ الآب مستتراً، ولكنه أُعلِن بالصوت السماوي؛ لأن قلب الإعلان هو الابن، وقوة الإعلان هي الروح القدس، لكن يظل استعلان الآب في الابن بالروح القدس منفتحاً على الزمان الحاضر وعلى الأبدية.

٧٢- في تجسد الابن أُعلِنت عطية البنوة. وفي معموديته أُعلِنت عطية الروح

القدس. وفي التجلي ظهر مجد الحياة الآتية، وهو مجدُ محبة الشركة الذي أعلنه الرب عندما جاء ومعه موسى وإيليا، وجَمَعَ معهما التلاميذ الثلاثة في أيقونة الكنيسة، أي أيقونة المحبة.

٧٣- لا يوجد سببٌ للمحبة الإلهية، بينما تتنوع الأسباب لمحبة البشر؛ لذلك لا تسأل عن سبب المحبة التي تجمع؛ لأن الشركة هي حركة دائمة في المحبة، فهي توحّد بالشركة وبالعطاء.

٧٤- لأننا خُلقنا على صورة الله ومثاله (تك ١: ٢٦)، فإننا لذلك السبب عينه نبحث في الأسباب والغايات. قبل السقوط كانت الشركة هي الغاية والقصد الذي لأجله خُلقنا، ولم يكن من الصعب علينا أن ندرك غاية الوجود نفسه كاستعلان لمحبة الثالوث، ولكن بعد السقوط وتشتُّت المعرفة وتنوُّع الغايات والأهداف وانقسام المعرفة وانفصالها عن المحبة، أصبح للمعرفة دورٌ يتعارض مع المحبة إلى أن يتم فداء المعرفة بفداء الكيان الإنساني كله. ولكن ملامح فداء المعرفة هي في ثلاثة أمور ظاهرة وثلاثة أمور خفية. والأمور الظاهرة هي:

+ خضوع المعرفة لنقاوة المحبة؛ لأن المحبة ليس لديها اختيارٌ خاص ولا هدف، ولذلك تُخضع المعرفة وتجعل المعرفة نقيةً من الاهتمام بالذات.

+ وتتكون المعرفة في داخل المحبة، وتدرك المعرفة أنها بدون المحبة عقيمة؛ إذ ترتد إلى الذات ساعيةً وراء إرضاء الذات، فتجد الذات قد سلكت طريق "جحد الذات"، أي طريق الصليب، فتنمو المعرفة في اتجاهٍ آخر مختلف عن الاتجاه الأول أي إرضاء الذات، وبذلك تسعى إلى القضاء بحرية المحبة على كل أشكال الأنانية.

+ تُولد المعرفة الجديدة من المحبة المتجددة فينا بالروح القدس، ولذلك تستنير بقوة النور الإلهي وتصبح هي والمحبة حركةً واحدةً واعيةً بالاستنارة الروحية.

أمَّا ما هو خفيٌ، فهو:

+ صمت المعرفة أمام فخامة ولمعان الأسرار الإلهية والاقتناع بعدم الاقتحام.

+ تخلي المعرفة عن كل ما هو مفهوم ومقبول من أجل المعرفة الأعلى التي تعلو على الإدراك.

+ الاندهاش والذهول الذي يجعل العقل نفسه في حالة احتقار كامل لكل البراهين والنظريات، وهي بداية التسليم الذي يستهين بالشكوك وكل أكاذيب وحيل الشيطان.

٧٥- المحبة توحِّدنا بالله، وتقود المعرفة، وتحدد الاتجاه، أي الإتحاد بالله. وهذه هي علامات شركتنا في الطبيعة الإلهية. ثلاثُ علاماتٍ ظاهرة وثلاثٌ خفيَّة:

+ مَن ذاق محبة الله للخطاة وعَرِفَ كيف يحبه الله في يسوع المسيح، وكيف أن هذه المحبة هي للكل، وهي أيضاً خاصة لكل مؤمن على حدة؛ لأنها انعكاس الإلوهة حيث الجوهر الواحد للثالوث هو شركة الكل ولكل أقنوم كيانه الخاص، كذلك المحبة للكل، الذين يؤمنون وخاصة بكل إنسان على حدة حسب قامته ونموه.

+ وعندما تؤقنِم المحبة كل إنسان على حدة، يُدرِك كل من تأقنم بالمحبة أن هذه الخصوصية تمنعه من أن يكون أي شيء آخر غير أن يكون ابناً، ولا أن يحيا حياة غير حياة التبني. ومَن أدرك حرية الابن، فقد تألَّه، وذلك لأنه ارتفع فوق عبودية الطبيعة الساقطة إلى "حرية مجد أولاد الله" (رو ٨: ٢١)، وهي أول علامات الشركة في اللاهوت.

+ وثان هذه العلامات، هي تقديس النفس والجسد وخضوع الإنسان لعمل الروح القدس الذي يقدِّسه ويجعله "الإناء المختار" للمحبة، فلا يطلب شيئاً لذاته حتى من الثالوث، بل يجعل الشركة هي الغاية والوسيلة معاً لكي يخضع لله الآب كخضوع الابن الوحيد، وهو "التشبُّه بالمسيح"، الذي عندما نشتاق إليه، ندرك من هذا الشوق الجارف، بل والعنيف أيضاً أن كل شيء يهون، وهي علامة أكيدة على التألُّه.

+ وثالث هذه العلامات هي الاستهانة بكل شيء مهما كان؛ لأن مَن ذاق

حلاوة الحياة الأبدية وهو في الجسد، فقد ذاق باكورة ثمار القيامة، وهي علامة أكيدة على الشركة في اللاهوت، أي لاهوت المسيح الغالب.

أمَّا العلامات الخفية وهي الأكيدة فهي:

+ الفرح بالروح القدس.

+ رؤية المجد الأبدي، وهو مجد ربنا يسوع المسيح وتجلي النفس والجسد معاً بالروح القدس.

+ الانسجام (الهرمونيا)[٢٠] مع حركة المحبة في الثالوث نفسه، وهي رؤية الحياة الآتية التي ليس لدينا عنها أي كلام يمكن أن يُقال في الوقت الحاضر.

٧٦- الفرح بالروح القدس هو طريق المصلوب الذي صَلَبَ إرادته قبل تجسده عندما صار "مسرة الآب" و"ابن محبته" (كو ١ : ١٣)، وصار الآب هو فرح أقنومه الإلهي، وهو أيضاً فرح الابن المتجسد بالروح القدس الذي أعدَّ له الجسد والنفس الإنسانية في مستودع البتول والدة الإله، فصار فرح الثالوث هو فرح المحبة في تجسُّد الابن الذي "جمع" الإنسانية في أقنومه الإلهي المتجسد، وفيه "سكنت" الطبيعة الإنسانية في الثالوث إلى الأبد سُكنى حياة المجد التي سعى يسوع المسيح ابن الآب كي يثبِّتها لنا فيه.

٧٧- الفرح بالروح القدس هو فرح شركة محبة الثالوث القدوس، هو فرح الآب بالابن، والابن بالآب، والآب والابن بالروح القدس. وفرح الروح القدس بالآب والابن هو فرح كل أقنوم بالآخر، وأول علامات وجود هذا الفرح فينا هو الشوق الجارف للصلاة والوحدة والجلوس في القلاية والانصراف حتى عن النوم والطعام؛ لأن قوة هذا الفرح تجعل الزمان يسير ويمضي ونحن لا نحس به، وهو يأتي إلينا كعطية لا تسعى النفس إليها حتى لا تقع في اقتحام المجال الإلهي وتسقط في الوهم بأنها نالت ما تتصوره بالعقل، وهو غير حادث في حياتها.

٧٨- أمَّا رؤية المجد الأبدي، فهو الاستنارة بالروح القدس الذي يعطي لنا

٢٠- الهرمونيا كلمة يونانية قبطية.

هذه الرؤية، فهي ليست رؤية من الخيال، ولا هي من تأمل العقل، ولا حتى هي من شِبَع القلب بالمحبة الإلهية بل هي عمل الروح القدس، فهي إعلان كامل وتام يضع فيه الروح النور الإلهي في الحياة العقلية لكي نستطيع أن تبصر وترى بهاء مجد الله المتجلي في محبة الله الآب ونعمة الابن الوحيد وشركة الروح القدس.

هذه هي دعائم الإعلان الإلهي للثالوث القدوس، وهي كما نرى، هي بداية التقديس في الخدمة (الليتورجية) الإلهية؛ لأننا برشم الصليب نسمع هذه الكلمات قبل أن ندخل «بحر التقديس»، فهي دعوة المحبة التي تُعطى بالنعمة: محبة الآب ونعمة الابن، ولكن كمال وحقيقة هذه الدعوة هو بالروح القدس الذي يسكن فينا.

سُكنى روح المحبة«٢١»

٧٩- "يحل"، و"يسكن" هما فعلان يعبّر كل منهما عن عمل الروح القدس؛ لأنه "يحل"، أي يعلن عمله. و"يسكن"، أي يمنح الإنسانية "ختم الثبات الأبدي"؛ لأنه سبق ومسح ناسوت الرب لكي يصبح كل إنسان مدعواً لهذه المسحة.

يسكن فينا روح المحبة (رو ٥: ٥)؛ لأنه يرفع منّا الجهل ويذيب قساوة القلب باستعلان تواضع الآبِ ومحبته، لأننا نعرف أن تواضع القلب هو بمعاينة الصلاح الإلهي واكتشاف الفقر الروحي الحقيقي، مما يجعل انسحاق النفس أكثر حلاوة من العسل؛ لأن النفس التي تذوق صلاح الله ومحبته للخطاة لا تستطيع أن تدخل حياة الشركة بأي نوع من البِّر، بل بسبب الصلاح الإلهي الذي يعلن محبة الثالوث.

والصلاح هو وجهٌ أبدي لمحبة الثالوث؛ لأن الله صالح ولا يحتاج لأحد ولا يطلب شيئاً من البشر، وهو الغنى الإلهي الذي يعطي بلا سؤال، ويطلب مَن هو بعيد، ويسعى وراء الضال ويشفي النفوس المريضة، ولذلك - من أجل الصلاح - يسكن فينا الروح القدس ملتهباً بأشواق نارية للإنسانية التي سكنت في جوهر الله بسبب تجسد الكلمة ابن الآب الوحيد.

٨٠- والصلاح والرحمة هما معاً لا يمكن فصل أيهما عن الآخر. فالصلاح طلب السامرية، والرحمة أعلنت لها الخلاص والمحبة تقدِّم لها "الماء الحي". هذه ليست صفات تحرك الطبيعة الإلهية، ولكنها أي الطبيعة الإلهية، تعمل بحركة المحبة التي تسكب ذاتها في الخليقة وتعطي الوجود والحياة؛ لأن الله يحتضن الإنسان عند خلقها، ويوحِّدها حسب التدبير ويؤلِّهها حسب النعمة، ويمجدها في الابن بحلول روح قدسه فينا.

٢١- العنوان من وضع الناسخ نفسه بخط أحمر.

٨١- يسكن فينا روح الآب، وهو روح الابن أيضاً المنبثق من الآب (يوحنا ١٥ : ٢٦)، والمُعطي لنا في يسوع المسيح «ختم التبني» الذي لا يضمحل؛ لأنه روح المحبة الغالبة التي لا تقوى عليها الخطية، والذي إذا رُفِضَ، تحول إلى نار دينونة، أمَّا إذا سكن فينا، فهو يتحول إلى نار التقديس.

٨٢- إنها سكنى التواضع الإلهي الذي يجعلنا رغم قصورنا، نصرخ فيه وفي يسوع: "أبّا أيها الآب" (غلا ٤ : ٤). ونحن نصرخ بالروح القدس؛ لأنه هو الذي يشفع فينا، إذ يقدِّمنا رغم قصورنا كأبناء للآب السماوي بسبب فداء البشر في يسوع المسيح. هذه الصرخة هي صرخة المحبة الأبوية التي فاضت بالتبني، وهي التي بها بذاتها، نتقدس من كل أدناس العبودية.

نار المحبة الخاصة بالبشر«٢٢»

٨٣- نستطيع أن نقول إن المحبة النارية الخاصة التي أعلنها الثالوث هي محبة البشر بشكل فائق؛ لأنها إنعام روحي يفوق الإدراك لم يُعطَ لأي من الرتب السماوية التي لا تعرف إلَّا القليل جداً عن سقوطها وعن علاقتها الخاصة بالله، لكن علينا أن نعترف بكل أمانة أن الله الكلمة لم يأخذ من الرتب السمائية روحاً سمائياً لكي يخلص الملائكة، بل أخذ جسداً بشرياً من والدة الإله مُعلِناً محبته الخاصة للبشر. فقد شهد الإنجيلي يوحنا لسر محبة الله للبشر بالاعتراف بأن الكلمة صار جسداً وسكن فينا نحن البشر عندما تجسد.

٨٤- وهي محبة لا تعرف الانفصال؛ لأن اتحاد اللاهوت بالناسوت هو بلا انفصال، بل لقد جاء هذا الاتحاد لكي يقضي على كل أشكال الانفصال وأسبابها، ويؤسِّس الإتحاد الدائم الأبدي بنا.

٨٥- وهي محبة بلا اختلاط للطبيعتين، إذ لم تفقد كل طبيعة خصائصها، ومع ذلك نالت الطبيعة الأدنى، أي الناسوت مجد الطبيعة الفائقة أي اللاهوت، وذلك لكي يعلِن لنا تجسد ابن الله أن الاتحاد هو تمجيد وتقديس ورفعة للإنسانية التي فقدت رتبتها.

٨٦- وهي محبة بلا امتزاج وبلا تغيير؛ لأن ابن الله رغم أنه أخذ صورة العبد، إلَّا أنه هو نفسه الكلمة لم يصبح عبداً للآب، بل رفع صورة العبد إلى رتبة التبني ومجَّدها. وعلى الرغم من أنه اتحادٌ حقيقي أبدي، إلَّا أنه منذ الاتحاد لم يحوِّل اللاهوت إلى ناسوت ولا الناسوت إلى لاهوت؛ لأن تحول أي منهما يهدم سر تدبير الخلاص، ولكن بقاء الناسوت متَّحداً باللاهوت هو الذي يعطي الناسوت الرتبة الجديدة الخاصة بآدم الثاني.

٢٢- من وضع الناسخ وبذات الخط الأحمر.

٨٧- محبة البشر النارية تؤسّس حرارة وقوة الصلاة التي لم يعرفها الشعب القديم، الذي كان يشتكي من احتجاب الله عنه، بل غيابه. لكن شعب العهد الجديد يعرف أن احتجاب الله عنا هو قصور وضعف من جانبنا، وليس من الثالوث نفسه الذي أرسل الابن لكي يعطي المحبة النارية. لذلك صراخ المزامير وسؤال النبي: "لماذا تختفي يا الله في أزمنة الضيق؟" هو سؤالٌ لمن رأى الصليب بروح النبوة كما في مزمور ٢٢ ولكنه لم يذُق الصلب والموت والدفن والقيامة مع الرب في سر المعمودية. ومَن مُسِحَ ملكاً على إسرائيل ولكنه لم يمسح بالميرون الإلهي. ولذلك عندما نرتل هذه المزامير علينا أن نتذكر أن قاعدة الصلاة الأولى هي "تدبير تجسد الرب الابن الكلمة" الذي جاء إلينا واحتجب في الناسوت ولم يحتجب عنا. هو لا يتركنا، ولكن بقايا حياتنا القديمة وعجزنا عن فهم محبته للبشر، يجعلنا نظن أن الرب يفارقنا، ولكنه وعدنا بحلول وسكنى الروح القدس فينا إلى الأبد، لأنه الروح "المعزّي" المُدافع عن الإنسانية ضد كل قوى الشر في عالم الظلمة، والشفيع لدى الآب الذي يضم البشر لكي يقدمهم لله الآب.

إعلانات الرب يسوع المسيح
لمحبة البشر«٢٣»

٨٨- يدخل بيت زكا الذي يكرهه أهل قريته؛ لأنه يجمع منهم الضرائب. والرب لا يحب مَن يحبهم البشر ويكره الذين نكرههم، بل يحب الجميع بلا تمييز.

٨٩- ينكر عليه بطرس أن يُصلَب ويموت، بل وينتهر الرب يسوع (مرقس ٨: ٣٢)، وينتهره الرب يسوع ويقول له إن رفض الصليب يجعل بطرس مع الشيطان، ولكن رغم ذلك لا يطرد الرب بطرس، بل يتأنّى عليه وينذره بأنه سوف يسقط في خطية الجحد، ولكن رغم سقوطه لا يُظهِر الرب شماتة البشر، ولا يوبّخ تلميذه، ولكن يسأله إن كان يحبه ويعيده إلى خدمة الإنجيل رغم عثرات بطرس.

بل حتى بعد الامتلاء من الروح القدس، يتردد بطرس في الذهاب إلى الكرازة بين الأمم، ويرسل له الرب الإنذار بالرؤيا حسب شهادة الأعمال (أعمال الرسل ١٠: ١٣)، ويظل التردد في ضمير بطرس حتى وهو في انطاكية، ويفرز نفسه من الأكل مع الأمم (غلا ٢: ١٢)، ولكنه يظل - مع ذلك - محبوباً لأن الرب يقول لكل الذين سقطوا في التردد: "ها أنا واقف على الباب وأقرع إن فتح لي أحد أدخل وأتعشى معه" (رؤ ٣: ٢٨).

٩٠- ويدعو الرب شاول الطرسوسي مضطهِد الكنيسة الذي كان يسوق تلاميذ الرب لإنكار الإيمان، بل ويطردهم، ويحول هذه الغيرة إلى غيرة على الإنجيل؛ لأنه محب البشر الذي قيل عنه: "قصبةً مرضوضةً لا يكسر وفتيلة مدخنة

٢٣- أيضاً من وضع الناسخ.

لا يطفئ"، بل يعيد إليها النار لكي تنير، لذلك أقول أنا الخاطئ إن كنت فتيلة مدخنة وبردت محبتك للرب، فلا تجعل يأس الخطية يسود عليك، بل أطلب محبة الرب لكي تشتعل في قلبك من جديد، وتصبح ليس فتيلةً مدخنةً، بل قبساً من نار محبته.

٩١- أمّا ابني الرعد "بوانرجس"، فقد رفض الرب أن تنزل ناراً من السماء لتحرق "السامريين" الذين رفضوا بشارة الإنجيل، ولكنه قَبِلَهما رغم غباوة الإدراك والعجز عن فهم "روح يسوع". وعندما قال الرب: "من أي روح أنتما؟"، فقد أعلن عدم انتماء هؤلاء إلى روح المحبة، ولكنه مع ذلك لم يطردهما، بل تركهما ينموان معاً لكي يخدمان الإنجيل.

٩٢- من الصعب علينا أن نشرح المحبة الإلهية للبشر لِمَن لم يعرف المحبة، ولذلك كانت بداية البشارة هي بالتوبة (تغيير اتجاه الحياة) وتذوُّق المغفرة؛ لأن مَن ذاق حلاوة المغفرة، ذاق أول قطرات ينبوع المحبة. هكذا دخل شاول الطرسوسي في شبكة الإنجيل، فقد اصطاده الرب بعتاب المحبة الذي مزَّق سد الكراهية، وأعاده إلى صوابه. ولذلك وضع الرب بنفسه الطلبة الخاصة بالغفران في الصلاة (الربانية)؛ لكي ندرك أنه لا غفران بلا محبة، ولا محبة بلا غفران. ومع ذلك، **فالغفران هو أدنى أعمال المحبة، أمّا أعظم أعمال المحبة، فهي الشركة في حياة الثالوث حيث يسكب الآب حياته في ابنه لكي تعطى بالروح القدس.**

٩٣- إن محبة البشر النارية، تراها معلَنةً في معجزات الشفاء، وفي دعوة الذين لا مكان لهم في حياة الناس، وهم أعظم عند الله؛ لأن هؤلاء لم تزدحم قلوبهم بالعالم، بل طُرِدوا منه عنوةً، فوجدوا الله.

٩٤- لتكن صلواتنا بمحبة، وحتى تلك التي تمارَس بتغصُّب، فإنها تغرس في القلب شجاعة وثقة في محبة الله. وعندما يراقب الروح القدس السعي الحثيث نحو الآب، فإنه يضع فينا ثقةً بمراحم الله. والتغصُّب يعلّمنا نحن حقيقةً ثابتةً، وهي أن قدرتنا ونشاطنا ومثابرتنا ليس هو باب ملكوت السموات، بل هو في الحقيقة الدرس الذي نتعلم منه أن الميراث السماوي هو عطية الآب؛ لأن مثابرتنا مثل

أمواج البحر تعلو وتهبط، ولكن المحبة النارية الثابتة هي محبة الله الذي "يعطي بسخاء ولا يعيِّر"؛ لأنه لا يفتخر بالعطاء ولا يفتخر بالمرة، ولذلك قال الرسول: "مَن أراد أن يفتخر فليفتخر بالرب"، أي أن يلتصق بمن لا يفتخر؛ لكي يتعلم صلاح الله ومحبته الفائقة.

٩٥- تأمَّل درجات المحبة للبشر. فقد كان ولا زال اتحاد اللاهوت بالناسوت هو دعوة الله الآب العليا أن نتحد به بيسوع المسيح ابنه. فالإتحاد هو غاية المحبة، وهي القصر الملوكي الذي ندخله في يسوع المسيح لكي يكون لنا فيه ميراثٌ أبديٌ. أمَّا ما هو قبل الميراث الأبدي، فهو خاص بالزمان الحاضر، ولذلك كل ما نأخذه من عطايا - مهما كانت - لا تقارَن بعطية الحياة الأبدية التي تبدأ بالمعمودية وهي رسم ΤΥΠΟΣ التبني؛ لأننا لا نفتخر إلَّا بالبنوة، وهي ليست منَّا، بل من الذي لا يفتخر وهو الله.

المحبة توحّد«٢٤»

٩٦- عندما تذكر الأسفار المقدسة، ويؤكد ذلك الرب يسوع أن الحياة الأبدية هي معرفة الله الآب والرب يسوع المسيح، فإننا يجب أن نكون على يقين أن هذه هي معرفة محبة الله الآب الذي دعانا أن نكون "أولاده" كما يقول الإنجيلي يوحنا.

والمعرفة النابعة من المحبة تُوحّد الألفاظ وتنسق معانيها ولا تفصل بينها، ولذلك لا يوجد فصل بين المحبة والحياة الأبدية والتبني؛ لأن الحياة الأبدية هي محبة تحفظ كل واحد منا ليس كعبد، بل كابن، وتعطي لنا معاً، فلا يمكن فصل المعرفة عن الحياة الأبدية، ولا الحياة الأبدية عن التبني؛ لأن المحبة لا تجعلنا أبناء للآب في هذا الزمان فقط، بل هي المحبة الأبدية والبنوة الأبدية، وهي أيضاً ليست بنوة بلا حياة كما أنها ليست حياة بلا معرفة.

ولذلك علينا أن نرى المحبة الأبدية — المعرفة — البنوة كقوى الثالوث القدوس الخاصة بكل أقنوم وبالجوهر الإلهي نفسه؛ لأن ابن الله هو ابن محبة الآب، وهو مُعلِن الآب لنا، وهو واهب حياته التي هي حياة أبدية، بل إنّ كل هذا لا ينفصل عن "القداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب" (عب ١٢: ١٤)؛ لأن القداسة ليست فضيلة، بل هي شركتنا في قداسة الله، وهي الشركة التي تجعلنا "بلا لوم أمامه" (أف ١: ٤) ليس بسبب كمال أو مثابرة، بل بانسكاب عطية الروح القدس فينا التي تحوّلنا إلى هذه القداسة عينها.

٩٧- أيها المحبوب ثيئودوروس، لقد طال الكلام وثقُلت الكتابة، والمحبة ليست كلاماً، بل هي قوام الحياة الإلهية للثالوث.

٢٤- عنوان من وضع المترجم.

الآب يحب الابن وترك له كل شيء خاص بخلاصنا وتجديدنا؛ لكي بظهور الابن، ندرك عطية التبني المعلَنة فيه. وهو سبب تجسد الرب يسوع المسيح الذي جاء لكي يردنا – كأبناء – للآب.

والابن يحب الآب، ولذلك يقول للآب: «هانذا والأولاد الذين أعطاني إياهم الآب» (راجع عب ٢: ١٣)، بل هو الفادي الذي يعرف قصور وضعف كل واحد منّا، ومع ذلك، فهو «لا يستحي أن يدعونا اخوته» (عب ٢: ١١)؛ لأنه مثل الطبيب الذي جاء لكي يداوي جراح الإنسانية، فهو لا يستحي من كل جراح الخطية، ولذلك علينا أن نعترف له بجرح برودة المحبة فينا وتقاعسنا عن الاشتعال بذات المحبة النارية التي يسكبها الروح الناري العظيم؛ **لكي بهذه النار نطلب ليلاً ونهاراً أن لا يكون لدينا أعز من المسيح**، وأن تهون كل الصعاب، **وأن يكون لنا صبر القديسين، بل «صبر يسوع المسيح نفسه»؛ لأن صبر المحبة لا يعرف اليأس ولا الحياء ولا يقف عند حدود، بل هو قوة المثابرة التي تدفعنا إلى أن نترك كل شيء لكي نرى كمال المواعيد الإلهية التي أُعلِنَت في يسوع المسيح.**

٩٨- لتكن شركتنا في السر العظيم – جسد الرب ودمه، شركة محبة، أي لنقبل الرب بذات المحبة التي أحبنا هو بها وهي محبة حتى الموت موت الصليب، وأن نفضِّل الموت على أي إغراء وأن نقف ثابتين في محبتنا.

ليكن المذبح هو "الخدر" الذي فيه تتحد النفس والجسد بيسوع المسيح، وأن يصبح كل قداس (حرفياً ليتورجية) هو عيدنا الكبير الذي نعيِّد فيه باتحادنا بالرب يسوع المسيح ثابتين في محبتنا، وأن نترك كل شيء لأجل هذه المحبة.

٩٩- لا تنسى يا ثيئودوروس علامة المحبة الإلهية، أي ختم الصليب المحيي؛ لأنه هو إمضاء المحب يسوع المسيح الذي بدمه وقَّع ليس وثيقة حريتنا، بل العهد الأبدي بدمه؛ لأنه راعي الخراف الذي قام بدم العهد الأبدي (عب ١٣: ٢٠)، مؤكِّداً لنا أن القيامة هي قوة الصليب؛ لأن الرب بمحبته هزم الموت وغلبه على الصليب.

لنختم (نرشم) ذواتنا بعلامة المحبة، وعندما نختم رشم الصليب بقولنا: «والروح القدس»، ليكن معروفاً لنا أننا بقوة الروح القدس نعود إلى علامة العهد الأبدي، وختم محبة ربنا يسوع المسيح الله الآب الذي يغرسه فينا الروح القدس.

١٠٠- أخيراً. أتوسل إلى اله المراحم أن ننمو معاً في محبة الله بشفاء نفوسنا من الإفراط في محبة الذات، وأن لا تتحول محبة الله فينا إلى شهوة نطلبها، بل إلى منهج حياة؛ لأن النمو في المحبة مصدره النمو في النعمة، والنمو في النعمة مصدره اتحادنا بالروح القدس، وهو وحده الذي يفتح لنا حياةً جديدةً في شركة كاملة أبدية ومحبة أبدية.

صفرونيوس يطلب صلواتكم عني. الرب يسوع المسيح معكم.

تسألني أيها العزيز ثيئودوروس - يا عطية الله بالحق - عن محبة المسيح، وأنت لا تريد أن تلقي بي في هذا البحر الذي لا حدود له ولا ندري عمقه؛ لأن الأبدية سوف تكون هي هذا العمق الذي لا قرار له؛ لأننا عندما نظن أننا وصلنا إلى الياء (الأوميجا Ω)، فإننا نجد أنفسنا أننا لا نزال في البداية؛ لأنه في حقيقة الأمر لا توجد بداية ولا نهاية؛ لأن هذه المقاييس خاصة بالمنظورات وبما هو محدود.

والآن عليَّ أن أطلب نعمة الله الوافرة لكي أقترب من هذا البحر الهائل الذي يفيض من جوهر الثالوث ويغرِق، أي يملأ كل الكائنات حسب حدود طبعها.

إنني أطلب معونة الروح المعزِّي لكي ينير قلبي؛ لأن معرفة أمور الله بدون روح الله، هي عطب كبير ودمار للحياة وهلاك لقوى الحياة فينا. ولذلك صرخ الرسول وقال: "من هو كفؤ لهذه الأمور"

(راجع ١ كور ٢: ١١ - ١٦).